معارج الألباب

في مناهج الحق والصواب

تأليف العلامة المحقق الشيخ
حسين بن مهدي النعمي
المتوفى سنة ١١٨٧ هجرية

حققه
محمد حامد الفقي

مكتبة المعارف
الرياض

الطبعة الثالثة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٢٣٩٧٩

الرياض - المملكة العربية السعودية


معارج الألباب
في مناهج الحق والصواب



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، علمه البيان. خلقه من نطفة أمشاج يبتليه، فجعله سميعاً بصيراً ، وهداه السبيل : إما شاكراً وإما كفوراً (٦٤:١-٤ يسبح لله مافي السموات ومافي الأرض . له الملك وله الحمد . وهو على كل شيء قدير . هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، والله بما تعملون بصير . خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم . وإليه المصير . يعلم مافي السموات والارض ويعلم ماتسرون وماتعلنون . والله عليم بذات الصدور) (٥٧:٩ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور . وإن الله بكم لرءوف رحيم) (٦٢:٢-٤ هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم . وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم) (٤٨:٢٨، ٢٩ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وكفى بالله شهيداً . محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً، يبتغون فضلا من الله ورضوانا . سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه، فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) (٤٠:١٠-٢٠ ان الذين كفروا ينادون : لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم، اذ تدعون الى الإيمان فتكفرون . قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين، فاعترفنا بذنوبنا . فهل الى خروج من سبيل ؟ ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم، وإن يشرك به تؤمنوا . فالحكم لله العلي الكبير . هو الذي يريكم آياته . وينزل لكم من السماء رزقا . ومايتذكر الا من ينيب .

فادعوا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون ،رفيع الدرجات ذو العرش، يُلْقِي الروح من أمره على من يشاء من عباده، لينذر يوم التلاق :يومهم بارزون لايخفى على الله منهم شيء. لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ،لاظلم اليوم . ان الله سريع الحساب .وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع .يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . والله يقضي بالحق ، والذين يدعون من دونه لايقضون بشيء. ان الله هو السميع البصير) (١١:١-٤ الر. كتاب أحكمت آياته . ثم فُصِّلت من لَدُنْ حكيم خبير :أن لاتعبدوا الا الله، إنني لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ، ويؤتِ كل ذى فضل فضله . وإن تولَّوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم . وهو على كل شيء قدير) .

آمنت بالله ربي ورب العالمين ، الذي يربيني ويربي جميع العالمين بنعمه وآلائه وفضله واحسانه .

وآمنت بملائكته – على ماوصفهم ربي في محكم كتابه وعلى لسان رسوله– فإنهم من علم الغيب الذي لاينبغي لمؤمن ان يتكلم في شيء منه الا بما يصح الخبر به عن الصادق المصدوق ﷺ .

وآمنت بكتب الله التي انزلها على رسله هدى ونورا ورحمة للناس ،وعلاجا لهم من جميع أدواء أهوائهم وشهواتهم .

وآمنت برسل الله الذين اصطفاهم ربنا سبحانه، وبعثهم (٢ : ٢١٣ مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه – من بعد ماجاءتهم البينات – بغيا بينهم . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) .

وآمنت بعبدالله المصطفى ، ورسوله المجتبي ، وحبيبه المختار لهداية الناس كافة ، والمرسل من عند رب الناس رحمة للناس: محمـد خاتم المرسلين، وإمام المهتدين ، صلى الله عليه وآله وسلم . فقد جمع الله لهذا الرسول الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه الأنبياء وآلهم ـ صفوة ما كان عند إخوانه المرسلين قبله ، وزاده من الشرائع والاحكام والعبادات والآداب، والتربية الاجتماعية للفرد والأسرة ، والجماعة والحكومة ـ ما يكفل لمن صَدّق إيمانه به واتبعه على هدى وبصيرة : السلام والامن ، والعيشة الطيبة ، وفلاح الدنيا والآخرة الى يوم يرث الله الارض ومن عليها .

وآمنت بأن ربنا العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم قـد أرسل كل رسله من أولهم نوح الى خاتمهم محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ بدين واحد : هو الاسلام ، قوام هذا الدين كله : أن لا سعادة للانسان ، ولا فلاح الا بأن يعرف كل ما يقيم الشيطان له من طواغيت ـ يصده بها عن ربه ، ويوقعه بها في شِـراك الشرك والوثنية ليكون من الخاسرين فيكفر بها كلها ، ويتبرأ منهـا ومن كل مَنْ وما يَمُتّ اليها بأي صلة ، ويعاديها ويحاربها : ليتأهل قلبه لاخلاص العبادة ـ بأخلص الذل وأصدق الحب ـ لربه ، وفاطره وبارئه ورازقه ، ومدبره الحي القيوم ، الذي أسبغ ويسبغ عليه سوابغ نعمه، والذي سخر له ما في السموات وما في الارض وحـــده وأن يعرف كل ما يزين الشيطان للانسان ـ إذا غـَفـَل وجهل ـ من عقائد وأعمـال وعبادات هي كلها في مرضاة الشيطان، وإن زخرفها وروجها عند الطغام الغافلين الجاهلين بأنها بدع حسنة ، وأن الجمهور ارتضاها دينا ، فإذا عرفها كذلك مقتها من كل قلبه ، وطهر قلبه من خبائثها ، ليصح ويستقيم له أن يعبد ربه بما شرع وأحب واختار لعباده أن يتقربوا اليه به ، فأوحاه الى رسله ، وأمرهم أن يعلموه الناس بأقوالهم وأعمالهم ، وجعلهم القـدوة الحسنة ، والاسوة الطيبة المباركة .

وآمنت بأن ربنا سبحانه وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي : أن يؤمن بالرسول الذي يجيء من بعده مصدقا لما معه من هذا الاسلام الذي ارتضاه الله لعباده دينا ، وأن ينصره ويؤيده بكل ما اوتى من قوة . وأن يأخذ هو أيضاً العهد على من آمن به : أن يؤمنوا بمن سيجيء بعده من رسول مصدقا لرسالة إخوانه المرسلين من قبله ، وقد أخذ ربنا على كل رسول من رسله إصره على هذا الميثاق ، وقررهم عليه واشهدهم على انفسهم بلزوم القيام به ، وشهد هو سبحانه على ذلك . قال ربنا (٣ : ٨١ ، ٨٢ واذ اخذ اللهميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنهّ . قال : ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْري ؟ قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فألئك هم الفاسقون) وهذا من ربنا العليم الحكيم سبحانه توثيق لربط سلسلة رسالته الي عباده لهدايتهم الى صراطه المستقيم ، ولتبقى حجته قائمة على الناس بدون انقطاع . فإنها رسالة واحدة ، ودين واحد . لأنها للانسان الذي طبائعه واحدة ، وحياته الأولى والأخرى واحدة ، وربه الذي يربيه بنعمه ورسالاته واحد ، وعدوه الذى يغويه واحد ، وطريق الهوى واحد وطريق الضلال واحد ، وإن تعددت الأسماء والصفات . قال تعالى (٤ : ١٦٣ — ١٦٥ إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وآتينا داود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك . وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزا حكيما) :

ذلك أن ربنا سبحانه يعلم أن شقاء الناس وهلاكهم بتتايعهم في أنواع الشرك والوثنية والفساد : إنما يسوقهم اليه الشيطان بإبعادهم عن هدى رسالات ربهم الرحمن الرحيم، وتفريقهم عن صراطه المستقيم في شعاب الغي والجهل . فكلما بعدوا عن أنوار الرسالة ومصابيح هدايتها وأوغلوا بجهل

الرسالة والبعـد عنها في طريق الضلال وظلمات الجاهليـة ، وارتكسوا فيما يزين لهم الشيطان من عبادة الطاغوت : أقام لهم ربهم– رحمة بهم واحسانا اليهم – رسولا من انفسهم ، يعرفون صدقـه وأمانته ورشده وحكمته ، واجتماع كل خـلال الكمال الإنسانى في ارقى طبقاتها له ، فيوحي اليه من العلم والهدى ما يحيىبه ما أمات عبدة الطاغوت من رسالة المرسلين قبله ، حتي كان خا تمهم عبـدالله ورسوله محمد صلى الله عليه وآ له وسلم . قال تعالى (١٦ : ٣٦ولقد بعثنا في كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حَقّت عليـــه الضلالة . فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكـذبين) وقال(٣٥ : ٢٢ – ٢٤ ان أنت الا نذير . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وان من أمّة الا خلا فيها نذير)

وان من يتلو القرآن حق تلاوته ؛ ويُلـقِـي سمعه اليـه وهو شهيد ، يجد ان الله سبحانه قد شَخَّص فيه داء الانسانية العضال ، ومرضها القتال هو « التقليد الأعمي » الذي يحطم كل مزايا الانسانية ، ويقتل فيهـا ميزة العقل والتفكير التي هي اكرم ما ميز الله به الانسان عن الانعام ، وجعله مناط كل كرامة وفلاح له في الدنيا والآخرة . فقـد وصف الله المقلدين بما ينفر كل ناصح لنفسه أشد التنفير ، ويجعـله يمقت التقليد اشد المقت . مثل قوله (٢ : ١٦٥ – ١٧١ ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا اشد حباً لله ، ولو يري الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعاً ، وان الله شديد العذاب ، اذ تَبرّا الذين اتّبعوا من الذين اتّبعوا ، وراوا العـــذاب وتقطعت بهم الاسباب . وقال الذين اتّبعوا : لو ان لنا كَرّة فنتبرا منهم كما تبرؤا منا ؟ كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم . وما هم بخارجين من النار – الى قوله – واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ، قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم

لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمي . فهم لا يعقلون) ومثل قوله مذكرا لهم بأنه ربهم واحد، وهو الذي يربيهم جميعاً بنعمه وآياته ، وانهم يشهدون ربوبيته لهم جميعاً على سواء في جميـــع ادوار حياتهم ، ولكنهم يغفلون عن ذلك وينسونه فينسلخون من آياته ، وينقلبون اضل من الانعام سبيلا قال (٧ : ١٧٢ – ١٧٩ واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ، واشهدهم على انفسهم . الست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين ، او تقولوا . انما اشرك آباؤنا من قبل . وكنا ذرية من بعدهم – الى قوله – لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . اولئك كالأنعام ، بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون).

فانه حين غلب على الناس هذا التقليد الأعمى بالانسلاخ من آيات الله : اخلدوا الى الأرض ، واستكانوا للبهيمية ، فأتبعهم الشيطان يغـــذي تلك البهيمية بالشهوات والشبهات ، والظنون الـكاذبة ، والاهواء ، حتى انقلبوا وحوشا على انفسهم ، وعلى مجتمعهم ،وغرهم بالاماني الكاذبة ،وزين لهم ماهم فيه من السوء والفحشاء ،حتى اعتقدوه دينا ينجيهم من عذاب الله وغضبه ،وزين لهم – بدين الغي هذا – : ان يقدسوا الشيوخ والآباء ، وان يتخذوهم اربابا يشرعون لهم من الدين الباطل مايزيدهم غيا على غيهم ،وضلالا على ضلالهم ،حتي اتخذوا من الموتى وقبورهم وآثارهم آلهـــة واندادا من دون الله ، شرع لها الأحبار والرهبان شرائع وثنية من قباب وابنية ضخمة وفرش مزخرفة ، وستور ثمينة وانصاب من الخشب والحـديد مزينة ، وأعياد وموالد جعلوها فروضا لازمة ومناسك ومشاعر صارت أحب الى قلوبهم الغاوية من فروض ومناسك عبادة رب العالمـــين ، وما يزالون يجرون وراء وليهم الشيطان حتى يقيم لهم من احقر الأشياء آلهة : من رخيص اجساد البغايا والراقصات يقيمـون لهـــا هى كذلك انواعـــا من المعابـد والعبـادات بالليـــل

والنهار ، ويتخذ وليهم الشيطان من ذلك وغيره وقودا يوقد به عليهم نيران العداوات والبغضاء والشرور والفساد ،حتى يصبح مجتمعهم جحيما يضطرب بأنواع الظلم والبغي والفاحشة والمنكر– ونسأل اللهالعافية – وربنا سبحانه لايزال يوالي عليهم نعمه وآلاءه ، ويوالي عليهم العبر والمذكرات ،ويذيقهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون ، ولكن مادامت قلوبهم مغلولة بأغلال التقليد الاعمى ومادامو يعتقدون ، من صميم قلوبهم ان ماهم عليه من الشرك والفساد هوالدين الذي ينالون به من ربهم في الدنيا والآخرة مايتمنون ومادامو يكذبون بآيات الرب في انسانيتهم التي اعطاهم الله من السمع والبصر والفؤاد ، مثل ماعطى كل انسان ، ويكفرون بنعم الله عليهم في احسان خلقهم وتسويته ، وانــــه خلقهم في احسن تقويم ، ويكفرون بنعمته الكبرى عليهمفيانه شرفهم بمخاطبتهمفي كتابه ،ودعوتهم في مختلف آى هذا الكتاب : (ياايها الإنسان) (ياايها الناس) (يابني آدم) (يا ايها الذين آمنوا) وعلى لسان عبده الكريم ورسوله المصطفى ان يسمعوا لدعوة ربهم ويتدبروها ويفقهوها على ماأراد واحب لهم من الهدى والرحمة والشفاء لكل مافي صدورهم من ادواء الاهواء والشهوات .

اقول : مادامو بهذا كله عبيداً اذلة بالتقليد للتقليد ، وللسادة والرؤساء، وللتقاليد الجاهلية الموروثة عن الشيوخ والآباء ،– فمحال ان تفك القلوبمن اسار هذا التقليد ، ومحال ان يدخلالى القلوب بصيص من نور الهدىوالدين الحق . وهي مغلقة بهذه الاكنة والحجب من ظلمات الجاهليـــة والاهواء والشهوات . ومحال ان يرجعوا عن غيهم ، وان يثوبوا الى رشدهم، ويؤمنوا بآيات ربهم ،ويعتبروا وينتفعوا بتلكالنذر والقوارع.فإن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم . (١٤:٥٠، ٥١ ليجزي الله كل نفس ماكسبت . ان الله سريع الحساب. هــذا بلاغ للناس ولينذروا به،وليعلموا انما هو إلهواحد وليذكر اولو الالباب)(٤٧:٢٠– ٢٨ فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا

عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم . فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم؟ – إلى قوله – أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟ ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى، الشيطان سَوّلَ لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله : سنطيعكم في بعض الامر . والله يعلم إسرارهم . فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم؟ ذلك بأنهم اتبعوا مااسخط الله و كرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم).

أما بعد ، فهذا كتاب[1] (معارج الالبـــاب ، في مناهج الحق والصواب لإيقاظ من أجاب بحسن بنــــاء المشاهد والقباب ، ونسى ماتضمنته من المفاسد وهى عجب من الخطوب عجاب ، واحال أخذ الحكم من دليله في هذه الاعصار فَسَدَّ باب الحكمة وفصل الخطاب، وعطل الانتفاع في هـــذه الازمان بعلوم السنة والكتاب ، الى غير ذلك مما يأتيك بيانــه وتحقيقه ان شاء الله بأحسن تحرير وجواب .

جمع ذلك الفقير الى الله تعالى « حسين بن مهدى النعمى » غفر له مولاه ، وجمعنا في جنات الفردوس واياه ، وشكر سعيه وجزاه أحسن الجزاء .

يقول مؤلفه رحمه الله :

ان سبب إنشاء هذا المؤلف : وصول أجوبة من مكة المشرفة – في شهر ربيع الثاني من شهور سنة ١١٧٧ هجرية – ان هذا الهدم امر منكر ممنوع. أخطأ من أجازه او اوجبه في هذه الاعصار . تمسكا منه بالامر بتسوية القبور، والنهى عن اتخاذها مساجد ، واشباه ذلك من النصوص المشهورة في الصحيح وغيره . قالوا : لتعذر الإجتهاد في هذه الاعصار ،وامتناع أخذاي حكم من

---

1 – هذا نص ما كتب على طرة الاصل الخطي للكتاب »

دليله فيها ، ثم انسحب الكلام في تلك الاجوبة الى نكت سوى ماذكرنا عنها ، يستظرفها ناظرها مع مامر ، والكل في اقل من كراسة .

فاقتضى الحال : ان كتبنا هذا للإيقاظ ، ودفع اوهام وغفلة جاوزت الحد وبيان ان ذلك كله تأصيلا وتفصيلا :صدر لاعن نظر وتدبير ، كما ستقف عليه ان شاء الله .

ونحن سائلون اهل الفضل والنباهة ، ممن اطلع على ماذكرناه . العدلَ علينا ولنا ،والقول بما يوجبه الإنصاف وصدق الاعتبار،والتصفح والمراقبة، ولا نأبى النصح لنا او علينا بوجه صحيح .

وصلى الله وسلم على محمد النبي الكريم وعلى آله [1]).

ترجمة المؤلف رحمه الله [2]

قال السيد محمدبن محمدبن يحيى زبارةالحسنىالصنعاني في كتاب« نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الالف – الى سنة ١٣٥٧ هجرية » (ج ١ ص ٢١٧، ٢١٨ رقم ١٩٨) .

السيد العلامة النبيل التقى الفهامة : الحسين بن مهدي النعمي التهامي ، ثم الصنعاني .

وفد من مدينة صبيا بتهامة الى صنعاء لطلب العلم،فأخذ بها في العلوم العقلية والنقلية ، الفرعية منها والاصولية.

---

١ – انتهى ما كان مكتوبا علىطرة الكتاب .

٢ – تفضل الاخ الكريم الشيخسليمانبن عبد الرحمن الصنيع بنقل هذهالترجمة ن كتاب « نشر العرف » الذي بمكتبتهالعامرة بنوادر الكتب في كل فن ..نفعه الله بما فيها . وبعث بها من مكةالمكرمة ، فجزاه الله خير الجزاء واحسن مثوبته

وترجم القاضي احمد قاطن . فقال في «الدُّمية» .

وفد الى صنعاء ، وتزوج بها . ولما بنى الإمام المهدى العباسى مسجد القبة اسفل صنعاء جعله اماماً للصلاة فيه . فأقرأ بالقبــة في كتب السنة . وكثر الآخذون عنه من الخاصة والعامة . وعملوا بالسنن – من رفع اليدين عنـد الركوع والرفع ، وقبضهما على الصدر ، وتأمين الإمام والمأموم وغيرها من السنن في الصلاة فحسده بعض الفقهاء ، ودسوا الى قبائل حاشد وبَكيل ، وقاضيهم : حسن بن احمد البرطى . انـــه والسيد البدر محمد بن اسماعيل الامير الصنعاني خالفا المذهب .فوصلت رسالة منهم الى المهدى ، والى بعض الحكام ، وعُرضت على علماء صنعاء ، وعلماء مدينة ذِمار ، ومدينة حُوث . فأجاب العلماء في المدن المذكورة بجوابات مقنعة . واعظمها جواب السيـد العلامة امام العلوم . زيد بن يحيى بن امير الدين ، عالم حوث ، والمرجـع فيها . ثم وبخهم ودعاهم ان يصلحلوا انفسهم ويمتنعوا عن خروجهم من بلادهم لنهب الرعايا وانتهاك المحارم .

وحرر البدر الامير الصنعانى رسالة ذكر فيها من قال بالتأمين من اهل البيت . واجاب صاحب الترجمة عن المعترضين ، واطال الكلام. فقنعوا بالجواب مدة

ثم بدا للمهدي ان يرضي حسن بن احمد البرطى ، لكثرة الخوض منه بمنع التأمين . فأمر المهدىُّ متوليَ وقف صنعاء. الشيخ عبد الله محيى الدين العراس ان يأمر المؤذن بجامع صنعاء. ان يعلم الناس بذلك. ومنع عامة الناس بصنعاء، حتى الشافعية والحنفية . فقيل له في ذلك . فقال . من كان من مذهبه قولها فليقلها سراً . فتحزب الناس حزبين .

ثم استمر المترجم له على الإقراء في كتب السنة ، والعمل بها مجللا محترماً. ونزل الى ابى عريش للاصلاح بين شريفها والمهدى .وعاد الى صنعاء .واستمر على حاله الاول .

وكان المهدي قد أذن له في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وان كان المخالف من خاصة المهدي .

وقرأ على المترجم له اياماً في شرح العمدة لابن دقيق العيد .

ومات صاحب الترجمة في سنة ١١٨٧ سبع وثمانين ومائة والف .

وخلفه في وظيفته تلميذه • السيد التقي يحيى بن حسين الكبسى . وطريقته طريقة شيخه المذكور . رحمهم الله وايانا والمؤمنين آمين .

نقله سليمان بن عبد الرحمن بن محمد بن على بن عبدالله بن حمد الصنيع .

وقد طبع المجلد الاول من نبلاء اليمن في القرن الثانى عشر الى حرف الطاء . والثانى : وأوله حرف العين لم يطبع . وهذا المطبوع هو من القسم الثاني من نبلاء اليمن . والقسم الاول هم نبلاء القرن الحادى عشر .

مكة المكرمة في ٢٦ شوال سنة ١٣٦٩

وكان اصل هذا الكتاب عند أخى وحبيبي في الله، الشاب الصالح الناصح المتوقد ذكاء وفطنة، والمشتعل حماسة للحق وغيرة . الشيخ عمر بن حسن بن حسين بن على آل الشيخ . فنظرت فيه نظرة عابرة . فراقنى اسلوبه ، وأدهشنى قوة ما ساق مؤلفه من الحجج القاطعة والبراهين القوية الساطعة، على ابطال التقليد ، والحض القوي الشديد بغاية النصح الذي ما عليه من مزيد، لكل مسلم ان يرجع في كل دينه الي كتاب الله وسنة عبده ورسوله ومصطفاه، محمد امام الائمة ، والناصح الصادق الامين لكل الامة . صلى الله عليه وسلم . وانه بذلك يصدق ايمانه ، وتخلص عقيدته من شوائب الشرك والوثنية ، فينهض مجاهدا صادقا يحق الحق ويبطل الباطل ، ويهدم ما هدم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويبنى ما بنى .

فطلبت من الاخ الشيخ عمر — حفظه الله وادام توفيقى واياه لما يحبه ويرضاه — ان يتفضل على بهذا الكتاب . فأجاب مبادراً الى ذلك ، وهو الضنين الشحيح بكتب العلم النافعة ، وان كان الكريم السخيّ بماله ،

ولكنها شيمته الكريمة مع اخيه ، لما يعلم من اني سأنتفع منه واستفيد ، واني سأعمل جاهـدا على نشره ليكون النفع به اوسع لكل محب للحق والهدى مريد .

وها أنا أقـــدم اليوم لإخواني الموحدين هذه التحفة الثمينة ، تحملني الشفقة الخالصة عليهم،والرغبة الصادقة في هداهم والرجوع الى المحجة البيضاء ليصلوا منها الى ما ضمن الله لسالكيها على هدى وبصيرة من العزة والقوة والامن والعافية وتمكين الدين ، والفلاح والسعادة والفوز برضوان الله في جنات النعيم .

اسال الله سبحانه ان يرزقني واخواني الموحدين الصـدق والاخلاص في القول والعمل، وان يديم علي وعليهم سوابغ الهداية والتوفيق ، وان يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه، الذين قالوا.ربنا الله ثم استقاموا وان يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة .

وصلى الله وسلم وبارك على عبدالله ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وامينه على وحيه خاتم المرسلين ، وامام المتقين . محمد وعلي آله اجمعين .

وكتبه فقير عفو الله ومغفرته

القاهرة في رمضان سنة ١٣٦٩

محمد حامد الفقي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وَلاَ حَولَ وَلاَ قُوَّةَ الاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيم .

الحمد لله المختص بالحكم المطاع ، والقضاء اللازم تسليمه بلا توقُّف ولا نِزاع. الذي جعل ساعِدَ الحق أجلّ من ان يُناض، وعضدَه مؤيداً بكتائِبِ القوة والانتهاض . فأصبحت راياتُ سلطانه خافقة في الأفئدة والأبصار والأسماع ، وان رام الأكثرون مدافعته بالقيل والقال ، فهي أماني فارغة وأطماع ، ولو كانوا أكثر من رمال الدهناء وفجاج الاباطح في العد والاتساع. فآياتُ مجده على صفحات الازمان بادية ، وبينات الوضوح بِسَواطِعِ أنواره منادية ، وأهله هم الاعزة الاعلون في الدنيا والآخرة . المخصوصون بمنة الشرف والإكرام والمزايا الفاخرة ، ألقى الله تعالى عليه نوراً وتأييداً ، وأصحبه في الحكم على تعاقب الاحقاب والعصور عِزّاً وتَشْييداً ، فأمَّ سناءَهُ الموفَّقون من أعلام الورى ، وتشرفوا بنزول تلك الغُرفِ الشامخة الذُّرَى ، بَيْد انه عزيز عن الابتذال ، ممتنع على غير ذوي الفضل الامثال، يسيرٌ على من يَسَّرَه الله عليه من العباد ، وسهل له ممن تَطَهَّر عن رذيلة الغفلة والعناد . فأنَّى لاحدٍ مقاومته بخالص الآراء ، ومعارضته بمقال ؟ وهو الحكم الذي لايضاد ولايمارَى ، وَاعجَباً من ذي عَقْل لايرَى قوةَ سلطانه ، وقهره لَمَّا لم يكن له منه شهادة قائمة على صحته واتقانه ، ولو هدي لاقتفى محاسن آثاره ، واستصبح بمصابيح لوامع انواره ، ولكن اهل البطالة والحرمان فاتهم الرأى الحازم ، ومضى الامر بتنكبهم الجادَّة قبل ان تُلْقَى عليه الجوازم . ولله الامر من قبلُ ومن بعدُ في كل حادث وقادم.

أحمده سبحانه . وهو اهل الثناء والمحامد ، واثنى عليه : ان هداني سبيله

إذْ فـَآءَ عنها كل منتزِح عن نعمته متباعد ، افرغ علينا سبحانـه من سماء مواهبه سجالاً ، واسبغ لدينا من هَنِيِّ رغائبه سعة ومجالاً . حتى رَتَعنا في رياض المعارف على بصيرة ، وتمتعنا بلذيذ العوارف حين رضي المحروم بطالته وتقصيره ، ونادى بحماقة مجاوزة : ان لاحظ له في شمس النظر المنيرة ، ولا إيمان عنده بإمكان الوصول الى ساحتها الرحيبة الخطيرة .

نعم كان ذلك سبباً أن تحقق ذلك فيه . إذْ لم يرض ماأسـداه مولاه من فواضله الروية الغزيرة ، فقد روينا في كتاب الجامع الحفيل . للامام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى . الحافظ الجليل « أنّ النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم دخل على أعرابيّ وهو يُوعَك ، فقال : طَهور إن شاء الله ، فقال الأعرابي : كلا ، بل حُمَّى تفُور ، على شيخ كبير ، تزُيره القبور ، فقال ﷺ : فنعم إذاً » .

فانظر ماحُرمه المسكين . إذْ لم يتلقّ بالقبول ماأسداه عليـه مولاه من الفضل المكين ، وهل ترى : يرضى لنفسه حازمُ أن يكون شريكا للمذكور في الأعرابية والجفا ، فينفى امكان أخذ الحـكم من دليله في هذه الأعصار من الكتاب العزيز وسنة المصطفى ؟

فهذا داعي الهدى ينادي : هلم الى ماهو النور ، والشفاء لما في الصدور . والبيضاء التى لاح سناها على الأكوان ، وبرزت في حلل النباهـة والظهور في كل أوان .

فذاك كتاب الله المشحون بفنون الحكمة ، وهذه سنة نبيه المبعوث للعالمين هدى ورحمة . فمانِعوا أنفسِهم فضل ربهم يقولون : لانستطيـع ماهناك ، وما نحن والاستمداد من هذه الموائـد . ولسنا أهلاً لذاك ، فيالها من نعمة كفروها ، ورذيلة على المكارم آثروها .

وأشهد ان لاإله الا الله ، وحده لاشريك له . شهادةَ مَنْ يَدِين بالانقياد لأمره ، والإذعان لحكمه في سره وجهره ، فلا يؤثر عليه أحـداً من الأنام ،

ولا يستبدل بقضائه شيئاً من الاحكام ، وان شكر لمن بلغ اليه العلم بالنقل ، وأثنى على أهله حقـّا لما لهم من السابقة والفضل .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، المنعوت بجميل النعوت ، والمبعوث بمعالم المعالى . فالحائد عن هديه وسنته صغير ممقوت ، والمقدّم بين يديه حقير في الانام مألوت ، والمختار عليـــه غيره زائغٌ عن نهج الرشاد ، والقانع في أمر دينه بسواه في غيّه متماد .

وقد أحببنا : أن لا يكون دنس أعراضهم في شيء مما ذكرنا ، من مقلدة الاسلاف ، ولا وقفنا منهم على بعض ما شرحناه ، وزيادة الغلو فيه ، فما تلك إلا من فساد الخلائق والاوصاف .

ومن الآيات على ذلك : ما أتانا عن جماعةٍ من أهل الحرم – قدسه الله من مرقوماتٍ عاريةٍ عن أدب العلم والعدل والانصاف ، راموا – والله يرشدهم – نصرة شرعة ظلماء ، واهية الاركان متهافتة الاطراف ، أنكروا فيها هدم مشاهد الاموات وقبابهم ،ذاهلين عما تقدم الينا بالنهي عنه ، والامر بهدمه والإتلاف ، نبيّنا الكريمُ . ذو الخلق العظيم : محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، كما جاء عنه ﷺ وعلى آله .

وسيأتي مبيناً في صحاح الاخبار وحسانها ، بلا نزاع فيما علمنا وعلم غيرنا بين أهل العلم بالآثار وبلا خلاف ، وهو الحجة علينا وعليهم ، لا ما في نخبة الفتاوى وشرح المنهج ، وما فهمه ابن عبد الحق من عبارة الروضة ونحو هذا ، الذي إيثاره عليه ضرر بالدين واتلاف ، اذ لا يصلح أن تتخذه حجة لنفسك ، فكيف تتخذه برهانا على بطلان رأي خصمك المناف ، والا لما تَمَيَّزَ الحق من المبطل لعموم الدعوى ، ولا عائل من واف .

اللهم فصل وسلم على محمد وعلى آله : ما مرت الساعات والاحيان ، واعتصم المهديون بهديه القويم . حين تفرق عنه اهل النحل والاديان ،

وتـــدارك ياربنا برحمتك الشاملة من ضمنه مغنّى مظاهر مشاعر الاسلام والإيمان ، واعصمه من ان يكون ضحكة للأعادي . و هزءة في النادي . ولُعبــة للشيطان . حتى يكون من القوامين لك بالقسط والحاكمين بالعدل في نفسه وعلى كل قاصٍ ودانٍ . متلقياً لامرك بالانقياد الصادق والتسليم والإذعان . فذا هو الفوز بالنعيم المقيم ، والفضل الجسيم والروح والريحان . لا انْ يدين المرء بقول بشر يصيب ويخطيء ، ويعلم ويجهل ، ولم تجعله حجة على عبادك ، ولا سفيراً إليهم ايّ هذا من شان ، وما كفى هذا اقواماً خفي عليهم حسن الراي حتي ناضَلوا وجادلوا ودافعوا بذلك صحيح السنة والقرآن، والا فلو حققوا لعلموا انّ المقال على الدليل معروض فإن شهد له فمقبول ، والا فالإطراح له مفروض ، وهم لا يخالفون في هـذا التأصيل ، ولكنهم حادوا عن جادة العمل والتحصيل .

وبعد . فـلَمَّا كان في شهر ربيع الآخر من شهور سنة سبع وسبعين ومائة والف من الهجرة النبوية . وقفت على صورة سؤال ، وغير ما جواب في شأن ما يسر الله هــدمه وافتقاده من المشاهد والقباب ، وإزالة ما أزيل منها بالتدمير والخراب لما تفاحشت خطوب مفاسدها في هذا الزمان، وضاهت رسوم الجاهلية الجهلاء النافية للتوحيد والإيمان . مع كون وضع القباب أمرا صادَمَ المأثور الصحيح من النهي الصريح . فهو بمجرده ممنوع شرعاً ، كما قــد شرحت ما جاء فيه ضمن رسالة مستقلة وجيزة ، أسفرت عن وجه الصبيح واسمها : « مدارج العبور . على مفاسد القبور » .

وكان قبل هذا التاريخ بمدة يسيرة : ألـقى إليّ بعضُ أعيان الزمن بمدينة صنعاء اليمن – حاطها الله وسائر بلاد الإسلام ، من طوارق المحن والفتن – كتاباً ورد عليه من مكة المشرفة ، ذكر فيه ما حاصله :

أنه وصل إلى هنالك سؤال في هذه المسألة، وأنه أجاب فيه مفتوا الأربعة

المذاهب . بما يتضمن : التشنيع على من دل على هـدم القباب والمشاهد ، وأشار بتخريب تلك المعاقل والمعاهد .

فظننت – لعدم درايتي بحال الكاتب – أنَّ تحت هـذا البارق رَذاذاً ، ووراء تلك الطلعة راحة واستلذاذاً ، بناء على ماعرفناه في سنة المتشرعين ، وجارى العادة : أن السائل والمجيب يتوخيان مسلك الإفادة والاستفادة .

ولم ندر أن القوم قصروا عن ذلك السنن المقبول. والسبيل الذي عول عليه أهل الشرائع والاحلام والعقول ، بل كنا نأمل أن لايخلو الحـال من نكتة شريفة ، أو غريبة من الملح الطريفة ، لابالنظر إلى خصوص هـذه المسألة . فهى لدينا بحمد الله مبينة مفصلة ، وليست بخفية بعد الاطلاع على مداركها ولا مجملة ، وانما المراجعة في أبواب العلم لمن سلك سنة أهل الفضل والنظر ، ففيها أنفس مرغوب ، وأشرف بغية ووطر .

فخِلنا المجيبين للسؤال : سيسلكون طريقة أهل العـلم من تحرير الادلة ، وايضاح شموسها والاهلة ، ويكشفون عن قريحـة وقادة وسجية لآداب الافاضل منقادة ، اذْ هم بصدد الإجابة لداع جاء من شقة بعيدة ، ومسافة مديدة ، وَجَّهَ رِكابَ آماله الى قـُطـَّان بيت الله الحرام ، وسكان ذلك المخيم الذي تَصْبُو اليه أرواح الكرام ، يستنهض دفع ماسارت به الركبان ، وتُليتْ أَحاديثـُه في طريف النثر وبديع النظام ، وأُمليَتْ في تشييد بنيانه الاخبار الصحيحة عن خاتم الرسل في دواوين الإسلام ، حتى أَضحى عـلى طرف الثمام ، وأَجلى من الشمس المضيئة على الانام .

نعم ، فلم أشعر في التاريخ المذكور سابقاً الاّ وقد دفع الى بعض اخواننا الطلبة – بلغه الله أوطاره وأربه – لذلك السؤال بجواباته المشار اليها .فوقفت عليها وقوف صَبٍّ مستهام ، أَو شحيح ضاع في التراب خاتمه ، وقلت : هذه جوابات مفتى المذاهب ، وهم المعدودون لحل المعضلات وكشف الغياهب ، فاجتررت

تلك الكراسة ، جاهلا لما وراء بياض القرطاس : من سواد اهمال النظر ، وما تلك الا حرفة أهل العُدْم والإفلاس ، فتصفّحت الجميع وقلبتها ظهراً لبطن ، واذا بأحموقات حريّة بالاطراح ، وأغاليط خليقة انْ يُتَسَلّى عنها ويستراح وان لايرفع لبيب اليها رأساً ، ولا يتسنّم للرد عليها قرطاساً . لما انها لم تُرَحْ رائحة التحقيق ، ولاتمسكت من تحرى السداد بحبله الوثيق .

وناهيك بأنّ تصديق ماذكرنا من هذا حاصل بتنصيصهم على امتناع اخذ اي حكم من دليله ، في هذه الاعصار في كل دقيقة او جليلة ، فما تضمنته جواباتهم من الاحكام : عار عن دليل وبرهان أقاموه عليها لحكم ذلك الاصل وصريحه .

وماهذا حاله فلا يخفى على كل ذى لُبٍّ فضلاً عن فقيه ، أنه سعي عاطل عن المقصود خال من الفائدة . لانّ ماقُصارى مالم يؤخذ بالدليل إلا السقوط بتّة بالضرورة فقد كَفَوْنَا بتأصيلهم هذا المؤْنَةَ في جميع ماسطروه من ذلك ، فما التشاغل به ؟

ولولا وجوب النصح والإرشاد ، ورفع اللبس : لاتجّهَ في السكوت عن فتاويهم إلحاق اليوم بالامس .

وقد كان خطر في البال — بعد الاطلاع على تلك المرقومات — أن المناقشة في مثل ذلك أمرٌ ثقيلٌ على الطاقة ، والحقائق معروفة لايمحوها غبار الجهل والحماقة .

ولو كانوا — أصلح الله شأنهم — حفظوا في أبحاثهم عهود العلم والهدى لكان اللازم لهم علينا : رعايةُ حقها لزوما مؤكدا . فأمامن اضاع واهمل ، فليس سبيله إلاّ التنبيه ، وازاحة الضرر عمن لم يعلم مافي مقاله من التمويه ، لانه لم يسلك معك مسلك المحاورات بين أهل التحصيل ، بل سد عليك طريق أخذ الحكم من دليله ، فما الذي تبتغيه عنده بعدُ؟ وأيُّ سفاهةٍ علمت أقبح مما صنع هؤلاء الجماعة ؟:

ان طفقنا نقول لهم : هذا حرام . لدلالة هذه الاحاديث الصحيحة على ذلك

أجابوا : بأنه صرح به في المنهاج وشرحه ، وهو الذى فهمه ابن عبد الحق من عبارة الروضة بالجواز .

قلنا : فما هى الحجة على الآخر ؟ .

قالوا : لا يحل لنا ولا لك : أن نقول . يحل كذا ، يحرم كذا ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، ومحال في زمننا هذا شيء من ذلك ، فلم يبق حجة إلا ما ذكر سنان افندي في كتـــاب تبيين المحارم ، والشيخ زكريا في شرح المنهج، وحواشيه لنور الدين الزبادى، وما ذكرتَه مُطـَّرَح وأنت عاص بهذا الصنيع .

قلنا : هذه الأخبار التي استدللنا بها : هي من هذه الكتب المشهورة ، وأسانيدها معروفة ، ودلالتها غير خفية ، والتوصل إلى اخـذ الحكم منها في غاية من التيسر والإمكان وسيلة ومقصداً ، وقد استدل بعض المتكلمين بها ، وكلهم استدل بنظائرها ، والرد مصادرة .

ومتى علمتم في سنة ذوى الألباب أن تقولوا بمثل هـذه المقالة ؟ وفي أي موطن يسوغ في الفطرة السليمــة : أن يكون الاحتجاج على زيد بأن عمراً خالفه ؟ إذاً لا تقوم حجة قط .

فهل علمتم : بأن ما في المنهـاج هو الصحيح بِحُجّةٍ واضحة ؟ فهلموا ، وهو عين أخذ الحـكم من دليله ، أوْ لا : فمشكل، لأنه رد وتصميم لا بوجه معلوم ، ولا يجوز في الشرع الرد لحجتكم بقول زيد وعمرو ، ولا الرد عليكم بأن الإمام المخالف لـكم : قد علم هذا ، فآثر ما هو الأقدم .

ثم من العجائب : عودكم على هذا الاصل الذى حررتموه — وهو امتناع أخذ الحكم من دليله ، وتعذره في هـذه الاعصار — بالنقض ، لما أن البديهة والطبع والوضع التمييزى : قاض ببطلانه، وسقوطه بمرة، وذلك شيء كثير من نفس كلامكم ، كقولكم : قال رسول الله ﷺ « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » وقولـكم « لا تجتمع أمتي على ضلالة » .

وقولكم : تواردت النقول الصحيحة : بأن الخير والهدى : في اتباع وسلوك سبيل من سلف ومضى .

وقولكم : أجمع الناس على حسن وضع القباب ، وكفى به حجة .

وقولكم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للصديقة التي أمر بأخذ شطر الدين عنها : « لو لا أن قومك حديثو عهد بجاهلية . لامرت بالبيت يهدم — إلى آخر الحديث » .

وقولكم : فعلم « ان سد الذريعة من جملة اركان الشريعة » .

وقولكم : وقد تقرر في قواعد المذهب المعتبر الواضح : ان درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » .

وقولكم : وهذا القسم لا شك في جوازه ، على سبيل كراهة التنزيه ، لورود النهي عن ذلك ، فقد روى مسلم والترمذى قال جابر « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجصص القبر ، وان يبنى عليه » .

وقولكم : فيحرم على ذلك دعوى الاجتهاد ، واخذ الحكم بالدليل ، وان طابق الواقع ، لقصور نظرنا . اخذاً من قوله تعالى خطاباً لمن لم يبلغ رتبة الاجتهاد (٢١ : ٧ فاسألوا اهل الذكر) .

الى آخر ما ذكرتم في هذا الموضع ، وهو من عجيب ما يستظرفه العقلاء ، ويحل عندهم في الاعتبار دهرهم على الولاء .

وقولكم : إن هدم القباب أذية لاولياء الله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آذي لى وليا ، فقد آذنته بالحرب » .

وقولكم : وقد دل على زيارة القبور قوله صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها » .

الي آخر ما ذكرتم من هذا القيل ، على تخليطكم فيه : تارة رواية ، وآونة دراية . كما سنشير اليه — ان شاء الله فيما يأتي .

فالظاهر : أنكم لم تسلكوا هذا النمط من الاستدلال الا لحكم الضرورة والوضع بتيسره وامكانه في هذا الاعصار ، ولوجوب التلبس به عقلا ودينا وطبعا لمن رام مرامكم .

وهذا بعينه معنى الاجتهاد ، وأخذ الاحكام من دلائلها . والا فليت شعرى من أين علمتم : ان جميع ذلك صالح للاحتجاج ، وانه ذو دلالة على ما تقصدون ؟ .

وما قُصارى أخذ الحكم من دليله،وغاية القائل عن الله ورسوله الا ذلك.
فلا ندري الآن : هل الصحيح عندكم ذلك الاصل ، وان عملكم هذا ضياع وتفويت ، او تصحيح هذا العمل ، وتضليل ذلك الاصل ؟
فما هذه المناقضة الغريبة ؟ وليس العجب منكم فقط ، بل وممن اخذها عنكم مسلمّة من دون تيقظ ، فالله المستعان .

ثم أنكرُ من ذلك : تصميمكم على ان ما ذكرتموه ليس الصحيح الا هو ، وجُلُّ سندكم ما تعلمتوه من تفاريع مذاهبكم ، ثم الجزم منكم بأن ذلك هو الوجه لا سواه،ابرهان ؟ فهو معنى اخذ الحكم من دليله، وهو في شريعتكم من قسم الحرام، وما هذه سجية المتقين الكرام، ام بدونه؟ فعجب لاينقضي

ثم يقال لكم : هل عقلتم صحة هذه النقول من فروع مذاهبكم ، ونسبتها الى قائليها ودلالتها على مرامكم ؟

فنحن لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعقل ، وكلامه عليه الصلاة والسلام عندنا في ميزان الحقائق اثقل ، وعبارته لدينا اظهر واوفى ، واشهر واشفى ، والمعتنون بسنته أكثر عدداً ، واعز مدداً منكم بفروع مذاهبكم والمتكلمون في وجوه تصحيحها عنه صلى الله عليه وسلم : مَتْنًا ودلالة وتقريراً وتحريراً : أمَم يتعسر حصرهم. لا نسبة لكم في معرفة ما في المنهاج واخواته اليهم فيعلمهم المسمى ، ولا الى من عُني بهذا الشأن قديما وحديثا

ومن أين صح في العقول السليمة هذا المذهب عن زيدٍ متناً ودلالةً ؟ ولا يجوزمثله فيما هو أظهر شأناً،واشهروضوحاً وبيانا .وأصح تحريراً وتبياناً ؟

فبالطريق التي تزعمون صحة انتسابكم إلى الشافعى في المسألة الفلانية . نقول بمثلها وخير منها ، وأصح وأتم وأوضح في الإنتماء إلى الله ورسوله، في أي حكم من الاحكام نقول به هذا .

ولابد – إن شاء الله تعالى– من إيعاب في هذا البحث فيما سيأتى ، لزيادة الإيضاح والتقرير ، وإلا فهذا شافٍ كافٍ .

وجملة الأمر : أن حكمكم بتعذر أخذ الحكم من دليله منذ أزمان، ثم لهجكم بالاستدلال ، وذكر أعيان مأخـذ الأحكام ، وأفراد الأدلة ، ثم الاستنباط منها على ما في كل ذلك من عـدم الإتقان والإحسان ، ثم منعكم غيركم ودافعتموه ان يتبلل بشىء من ذلك–: آية بينة على تعارض منكم وتناقض وشدة تعنت وظلم إن كنتم تعقلون ، وماذا عسى يرتجى فيكم من تَعَرُّف الحقائق ، واستيضاح أسنى الطرائق ، وقد ضيقتم على أنفسكم عافاكم الله بأصل ، هو للصواب غير مطابق .

ومما حصل في بالي أيضاً من بواعث الإلغاء عن التكلم مع القوم في هـذا الباب : ركوني إلى ما كنت حررته فيتلك الرسالة (مدارج العبور) فإنها قد اشتملت على لباب التحقيق في هذه المسألة ، اذ هى مؤلفة لها خاصة .
والمراد إبانة حكم عـلام الغيوب ، دون احصاء الأغاليط على أهلها . والعيوب فما لنا في هذا من أرب .

فقلت : وهذا ايضاً مقتضٍ ثانٍ لأن أكون عن التكلم في هذه المادة ثانياً للعنان ، لكنه قابلَ الكل ما هو – ان شاءَ الله – أقرب للتقوى ، وأمتن فيورودهواقوى:هاتفمنطورسينا التوفيق،ومُنَادٍ منسواءالطريق،يترجم بأن سنة الكتابالعزيز، الذي هو اسوة الصادقين، وقدوة المحقين : التشاغل

برد تلك الاباطيل ، وبيـان أغلاط من علمت من أهل الإفك والتعطيل ، فهو قاض ، من حيث الجملة : ان تتأسى بـه في تلك السنة ، وتطوق عنقك قلادة تلك المنّة ، وان كان البون من الشمس أشهر ، ففي الامثال المأثورة « الشيء بالشيء يذكر » .

فأجبت نداءه . اذ صدع بالبيان ، وسطع سنا تبيانه على كل تبيان ، فحررت ماأودعته هذه الاوراق ، مستمداً للهدايـة والتحقيق من الكريم الخلاق ، لما أنني ناصر لما شرع وسَنّ ، ومُجْتَدٍ ممن له لدي سوابغ الافضال والمنّ ، وان قل اطلاعي ، وقصر عن الاتساع باعي ، فظهور وجه الصواب كاف في ولوج هذا الباب .

ويحتمل احتمالا مرجوحاً ، والا فالظاهر الجهل.

أن راقمي صحف الاجوبة خيل اليهم — إن كان وقع لهم ذلك — أن اكثر الناس لايميزون الخصوم ، ولا يفرقون مضغ الشيح من القيصوم ، بل الصورة عندهم كافية في الاعتبار ، ومغنية عن ادراك المعنى بالاختبار ، ولا يعرفون الا قد قال مشايخنا ومفتونا : بكذا وكذا ، هذا مبلغهم من العلم ، وغايتهم التشبث بمظهر الاسم .

ان قيل لهم : هذا حق أو باطل .

قالوا : نعم ، ولايدرون الحجة التي هي الامر الاهم . وذلك وجه التشبيه للاقوام بسائمة النعم ، كما شاهدنا في هـــذه الديار التي نحن بها غرائب ، وأبدى لنا الدهر من بعض سكانها عجائب ، حتى كأنهم عنـد التدبر من طور الفترة ، ومع ذلك فهم من ابعد الناس عن هدي اهل البيت والعترة ، وان تشبعوا بزخارف الانتماء والانتساب ، واظهروا تشيعاً لذلك الجناب ، فإنهم في ميزان الصدق والتحقيق :من تصحيح تلك الاماني بمكان سحيق ، وقد كشفنا القضية في رسالة مفردة .

نعم ، فكأنهم لما تخيلوا ذلك — ان كان — قالوا وأودعوا الاوراق ماخطر : ومَنِ الذي سينتقد؟ والجل أشباه في هذا الخطر . وماهناك مراقبة لله تحمل على

الكف عما لاوجه له ، او البحث على هدى وبصيرة في كل مسألة ،وصدقوا، ان ذلك شأن الاكثرين .

لكن عياذاً بالله : ان يكون سمة لجميع العالمين .

وليت المفتين هؤلاء — والله يرشدهم — اذْ لم يأتوا بحق مستيقن ، أدْلَوْا بأسلوبٍ من المقال متقن ، لان مَنْ احسن المقال ، كان لك معه بعض المجال ، لفهمه مايلقى إليه ، ولا حِيلةَ لك في عديم الذوق بحال .

وأما صنيع جماعة المفتين هؤلاء — فتح الله آذانهم ، واطلق عن قيد الجهل والجمود أذهانهم — فرأيناه: بَادِيَ الصفحةِ ،بَيِّنَ الاختلالِ بأول لَمْحة .

وقد انحصر لنا الكلام فيما نحن بصدده في ثلاثة أبواب .

الباب الاول

في أبحاث متفرقة ، تتعلق بتلك الاجوبة

فمن ذلك : انهم ذكروا فيها : اخباراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخَلُّوا بشرط الاحتجاج بها رواية ودراية .

أما دراية : فلأنه لادلالة فيها على ماقصدوه ،وذلك كذكرهم « مَنْ آذى لي وليًّا » على لفظ السؤال« او عادى »على لفظ الجواب « فقد آذنته بالحرب» وذكرهم «مارآه المسلمون حسناً. فهو عند الله حسن » وهذا لم يصح مرفوعا، كما يأتي بيانه ، ان شاء الله .

فأما حديث «من آذى لي وليا — الخ» فالاستدلال به مترتب على جواز اخذ الحكم من دليله ، وامكان الاجتهاد في هذه الاعصار ، وقد ابوا كلا الطرفين، ومترتب ايضاً على التلازم بين إيذاء الولى وتخريب مابني من القباب عليه مما امر الشارع بهدمه ، وعلى ان إيذاء الولى بامْتثال امر الله ورسوله لايسوغ، وكلاهما في حيز المنع والبطلان ، ولايظن صحتهما ذو تمييز ،فَضْلاً عن العارف فإنه غني

عن بيان مثل هذا ، وانما المستدل به صغير الفكر فيمعرفة مثل هذه الأمور الظاهرة، وهذا بعد الجزم بكون المدفون وليا لله ، بطريق معتبرة شرعاً في الحكم بذلك، لا علىما استرسل المقلدون فيه منجهل السنن والآثار، وتابع فيه العامة خصوصا بعض الجهات ، كالحرمين ، ونَـوَاحٍ سواهما : مِن تسمية من ابدى خلاعة او جنونا كمشي مع كشف عورة ، او انتهاب في الاسواق على نحو مخصوص ، او دعاوي الكشف وعلم الغيب ، مـع خلاف لما شرعه صلى الله عليه وسلم قـدوة الامناء – وليا لله ، وهذا الاخير رايناه غالباً او كثيراً ، سمة من سلك هـذا الفجّ عند نفسه ، ومن قبل منه ذلك من ابناء جنسه ، وربما يذهب مذهب المكر والتلبيس ،مع معرفته بقبح عملهالخسيس فتروج سلعته عند العوام ، وتنفق لدى طغام الاقوام .ومتى ابديت نـكارة تلبيسه ، وطغيان مكر ابليسه ، بادر الى السخرية ، لانه يحامى عن بضاعته المزجاة ، وتحيله لاقتناص المال والجاه ، وهيهات ، ليست الولاية الا الاتباع لرسل الله . واقتفاء آثارهم ، والوقوف عنـد حدود شرعهم ، الذي منه الاذعان لحرمة اتخاذ القبور مساجد ، والانتهاء عن بناء القباب والمشاهـد ، والكف عما هو من هذا القبيل ، مما حذر منه سفير الامناء ، على مايأتيك شرحه مفصلا . وان اباه العتاة الزّمْنَى . فذاك ميزان الفرقان بيناولياء الرحمن واولياء الشيطان .

واما شَطْحٌ وتخريف : كمن يفسر (٢:٦ ان الذين كفروا) ستروا محبتهم (سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم) فهم غنيون عن ذلك ، فكم لها من نظائر .

فذاك وما اشبهه ، كيف يصغر عندك خَطْبُهُ ،ان كنت عارفاً بالدين، وصادق النصح لرب العالمين؟ كمن سلف كذلك من علماء السنةوائمةالمسلمين.

ومعاذ الله ، ان تتقاذف بنا عواصف الضلالة ، حتى نعد من اتى هـذه الضلالات والمخرفات وليا لله ونؤمن على دعاء الاثم والقطيعة .

ومن عرف كلام القوم في هذه الجهة ، فسوف يدري – ان كان قد عقل ديننا – ماهنالك من المباينة البينة ، والمقام لايتسع لبسط البحث في ذلك .

واما حديث «مارآه المسلمون حسناً» فالاحتجاج به على مازعمه المستدل به. على حسن بناء القباب . مترتب على تيسر الاجتهاد في هذه الاعصار وامكانه ، وارتفاع الممانعة لاخذ الحكم من دليله فيها ، وايضاح نقل صحيح مفصح عن اتفاق كلمتهم على حسن المستدل عليه ، ودونه تلك المفاوز ، ودعوى صحته من الغلط المجاوز .

ولسنا ولا مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر في شيء مما سَنّه الملوك والسلاطين ، او غيرهم من العباد ، والسنة الصحيحة ، والنقول الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : تنادي بردّه وابطاله ، كما يأتي مبسوطا في الباب الثاني ان شاء الله تعالى .

هذا مالايجوز في الاديان والعقول الصحيحة ، والفطر السليمة .

على انا نقول : هلم النقل الصحيح عن كل فردٍ من المعتبرين في الاجماع انه قائل بما ذكرتم ، او ساكت سكوت رضا وتقرير ، فإن اوضحتموه كان لنا معكم بحث آخر ، ومن ادّعى دعواكم نازعنــاه كما نازعناكم ، حتى يقوم البرهان الشافي .

ثم في شرائط الاجماع ومقدارها ، والمقدمات التي لابد منها في تقريره : خلاف ، كما ان كونه حجة بعد استجماع شرائطه : مختلف فيه ايضاً ، اذْ جميع مباحث الاجماع المذكورة في بابه من فن اصول الفقه وسائل ومقاصدَ : إنما هي جارية على اختيار بعض النظار .

واما غيرهم فيقول :الباب من اصله مفروض ، وان صح وجوده جاءآخرون يقولون بممانعة الاحتجاج به ، ومن اذعن للاحتجاج ايضا لايقول بأن اتفاق اهل كل عصر حجة على انفراده ، بل يخصه ببعض الاعصار ، كعصر الصحابة والقرون الاُوَل .

وبعض يقول : ليس الحجة الا اجماع كل الامة والمسلمين سلفٍ وخلفٍ .

وهذا يؤول مذهبه الى عدّ ذلك خصيصة .

وهذا كله امر معلوم مستغن عن الكشف ، فما الاحتجاج الذي اجمع على انه حجة ، فإن المانع في اي وسيلة او مقصد : دائر في كل مدرك.

والإجماع المتعاور في ايدي اهل المقالات وكتب الاستدلال : إنما هو على رأي من لايعتبر مايعتبره المانع ، فهو مذهب من جملة المذاهب ، ومسألة من المسائل الخلافية .

كأن يقول المانع : وان وافقت غيري في القول بقول هذا الشخص ، فأنا لأرى اتفاقي معه دليلا ، فكلما جعلتم وفاقي جزء العلة : كان خلافي المذكور وارداً .

وان قلتم : غير معتبر عندنا .قلت : وماذكرتم غير معتبر عندي ،فلابد من حجة خارجية ، مبينة للصواب ، غير الاستناد الى شيء لم يستقر امره .

فإن قلتم : دلت الادلة على حجية الإجماع ، فلا يفتقر الى الاجماع عليها ، لأنا لم نشترط الموافقة على الحجية ،بل الشرط موافقةهذا الفردعلى الحكم الشخصي لاموافقته على كون الاتفاق حجة ، فهيمسألة منفصلة ، فمتى وقع الإجماع عملنا به ، استناداً الى تلك الأدلة ؟

قلنا : كحملكم اياها على مالا يوافق عليه الخصم ، ولاهي بينة الدلالة عليه . حتى يعد المخالف ذلك لغواً ، وذلك كحمل الامّة على اهل عصر منهم ، والمؤمنين كذلك ، وهذا كله انما يحتاج اليه بعدتقرير وقوع الاجماع في غير الضرورة الدينية . والحجة حينئذ الضرورة : وظهور الاجماع : هو الموجود كما نرى ، لامحققة كما لايخفى .

وكذلك تقرير صحة نقله ، وتسليم حجيته ، وتنقيح المعتبر من شرائطه ، وان ماعداه لغو لايلتفت اليه لظهور بطلانه .

فالوقوع وصحة النقل : في مقام المنع ،والحجية : في مقام النظر ، ولئن سلمتم فغير ضارة للمانع ، لفقد المقدمات .

ولنا في (مدارج العبور) مايغني في تحقيق المقام ، وهذا زُبدته ان شاء الله تعالى ، فهذا من حيث الدراية .

وأَما من حيث الرواية ، فنقول :

حكمهم بأن جملة « مارآه المسلمون حسناً . فهو عند الله حسن » من قول النبي صلى الله عليه وسلم : من غرائب معارف هؤلاء المفتين ، الذين قصدوا التكلم في امر الدين ، وهم لايحسنون .

اما علموا : ان شأن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محتاج الى تحقيق ، وانه اجل من ان يهمل النظر فيه ، خصوصا الى هذه الغاية؟

فإن هذه الجملة اثر لاخبر ، وموقوفة غير مرفوعة ، وقد نقح الكلام عليها أئمة النقل وعلماء الاثر ، واوعب في ذلك محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، حافظ المصريين ، في كتابه (المقاصد الحسنة) واشار الى بعض منه ابن الدَّيْبَع في (مختصر المقاصد) والهيثمي في (مجمع الزوائد) ولكن من اطـَّرَح صناعة العلم وحاله في دفاتر الفروع ، فخليق بمثل هذا الاغراب ، وهو جدير بالغفلة والاضطراب .

واما حديث « من آذى لى ولياً » فهو حديث قدسي ثابت مشهور . وما كان لهم ان يقولوا : لقوله صلى الله عليه وسلم : « من آذى لى ولياً » لأنه كذب بحت ، بل يحكون الشيء بصفته ، وان كان الاوَّلُ الى حاصل واحد. فغير مسوغ لترك البيان ، ولكن هذا سيف وضع في غير غمده ، كما قد مر تحقيقه ، فلا نكرره ، وسيأتي ذكر اخبار سطروها في جواباتهم جازمين بنسبتها ، بلفظ « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » بلا علم ولا دراية بطريق صحة النقل والجزم بالنسبة ، كحديث « اختلاف أمتي رحمة » وحديث « خذوا شطر دينكم عن الحميراء » مما سنتكلم عليه في محله ان شاء الله تعالى . وهما من الواهيات في فن الصناعة .

ولو قدروا هذه القضية حق قدرها ، ورعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وآله حرمته ، ورفعة شأنه ، وشأن كلامه ، والقول عنه : ماعاملوه هذه المعاملة ،

ولا زهدوا في امر النقل عنه ، ومعرفة سنته الى هذه الغاية ، ولكنهاتنزلت عندهم منزلة الفَضْلة او الفضيلة فقط ، دون الغرض الـــلازم ، والضرورة المقتضية ، فمـا بالوا على اي جنب سقطوا ، لكون الامر عندهم ماهو بتلك المثابة والخطر ،وصارت العناية منهم مصروفة الى ماهو الشأن لديهم من الكتب المذهبية ،التي هي مجال مذاهب أئمتهم ، وكلٌّ مشغولٌ بتحرير مذهب امامه ، وتقرير غرائب كلامه ، وامـا غيره : فعلى سبيل العرض ، والرسول ﷺ عندهم قد انسحب عليه حكم غيره .

وكان الانسب لسلامتهم ، وبراءة ذمتهم ، وحصول سعادتهم : ان يشارفوا على الصناعة الحديثية ، التي هي محط رحال الفوز والنجاة ،ويصرفوا العناية التامة اليها لذلك ، لأن يجعلوها كَقَدح الراكب ، ومَسْح المناكب ، اذا تكلموا فيها فكلام مغرب ذاهل ، ولمقدار الخطب جاهل ، لايدري كيف مصدر البحث ومورده ؟فالله يهديهم ويصلح بالهم .حتى يعرفوا ماعليهم ومالهم .

واما على هذه الصفة : التي لايدرون بها الصحيح من السقيم ، ولا المرفوع من الموقوف : فتعطيل وبطالة ، وقد يكون السبب في هذا مرور شيء في أسماعهم ممن لايدري وجوه الكلام ،ونسبة القول الى قائله من الانام ،وشأن رسول الله ﷺ وعلى آله وكرم : ارفع من ان يعامَل معاملة المجون ،او يجرى مجرى احاديث لاهي السُّمارِ بسفح الحجون ، مع امكان الوقوف على لُبِّ المقصود ، وليس هذا — بحمد الله — امر متعذر ولا مستحيل .

وانا اضرب لك مثلا بهذه الاحاديث التي اشرنا اليها ، فإن الكلام عليها شهير واضح ، قريب عند من التفت ، والقوم انما صاروا بهذه الحال لسابقة لايرضاها عاقل لنفسه ، هي : سدهم على انفسهم باب معرفة الحجج الشرعية ، وحكمهم بامتناع اخذ حكم من دليله ، واغتباطهم بفروع مذاهبهم ، وجعلها في الاعتبار اقرب مَنالاً ، واقوم قيلا من صحاح الاخبار .

فصل

ومن ذلك : أنهم سوّدوا القراطيس بما حصلوا عليه في فروع مذاهبهم ، وما لخصه بعض المنتسبين الى أتباع الائمة الاربعة رضي الله عنهم ، في كتاب ألفه في المذهب . وما هذه حرفة من تكلم مع الباحثين في المسائل على طريق الاحتجاج وتقرير القول بدليله، فهذا سعي باطل، وعمل لاغ عاطل ، مايغني الخصم شيئاً ، إلا ان يكونوا قاسوا ماغاب عنهم على مالديهم ، وقالوا: لاسبيل الى معرفة هذه المسألة ، الا مراجعة المنهاج مثلا، فما هذا ببدعٍ ممن ذهب مذهبهم في حظر اخذ الحكم من دليله ، ولزوم عتبة ماسطره المفرعون .

والحاصل :انهم ان قصدوا بإيراد تلك النقول : تعريف من ينتمى اليهم، واعلامه بما تضمنته : فهذا لغو ، لانه حاصل عليه اجمالاً وتفصيلا، ولافائدة في اعلام من هذا حاله على هذا الوجه .

وان قصدوا البرهان على ان ماذكروه قضية وفاقية ، لان تلك النقول اتفقت على حاصل واحد : فأبعد في السقوط ، لان المنقول عنهم هم بعض الامة ، مع أن الناقل قد بَتّ الحكم على هذا البعض بأنه مقلد ،وهم إنماتقوم الحجة عندهم بإجماع المجتهدين ، فاعجبْ لها من غريبة .

وإن اقتحموا البعيدة التي لايقبلها إلا مجرد الغافلين ، فقالوا . مافي تلك المختصرات من الاقوال التي نقلناها : هي مذاهب الأئمة الاربعة .

فنقول لهم: سلمنا لكم تسليما جدلياً إقناعياً صناعياً—وإلا فمفازة تصحيحه تكلُّ عنها المطايا — فكان ماذا إجماع وحجة ؟فلئن سلم الثاني ، وقام مقدمة وحاصلا ، والفطن لايفوته مافيه مما يغني تصفحه عن فضل تبينه ، فما شأن الاول ؟ أيقال : كل الامة أربعة نفر ؟

هذا خلاف الضرورة ، وموافقة ذلك الجَمّ من اتباعهم لهم ، قدذكرتم:

أنها صادرة عن تقليدهم اياهم . بنصوص جماعتكم ، والموافقة المعتد بها في الإجماع عندكم : هي مايكون عن اجتهاد ، فإذن عاد الامر الى أنّ الشافعي ومالكاً وأحمد وأبا حنيفة قالوا بكذا ، والقائل : بأنه متى اتفق هؤلاء الاربعة . حصل الإجماع المحتج به ، أو فاتفاقهم حجة : فاسد المزاج ، فضلا عن أن يعامل بإعراض أو التفات .

وان أكذبتم أنفسكم ، فقلتم : بل وافقوهم عن اجتهاد .

قلنا: كذلك أيضاً،ماهم كل الامة ضرورةً ،وماينفع مناظراً قـُطالتـّشـَبـُّثُ بسلعة لاتَنـْفـُق في سوق المميزين ، فضلا عن النقاد ، وأين نظر الأئمة الاربعة من علماء تلك العصور فما بعدها ؟ كسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، واسحاق بن راهويه ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وغيرهم من أعلام التابعين فمن بعدهم ، ومذاهبهم محررة مسطورة في شروح الحديث البسيطة ، وكتب الخلافيات .

واعتبر بما في شرح المهذب للنووي ،وشرحه لمسلم، وفتح الباري لابن حجر والسنن الكبير للبيهقي ، وكتب العلامة أبي عمر بن عبد البر ، كالتمهيد والاستذكار وغيرها مما نقل مذاهب المشاهير من علماء المسلمين ، حتى تعرف أن الاربعة – بل وأتباعهم ، على القول باجتهادهم أيضاً – : بعض من كثير ، وقطعة من جَمٍّ غفير ، فأرُونَا قولاً لاحد ممن ذكرنا ، أو نقلا صحيحاً : أنه سكت سكوت رضا في هذه المسألة،ولوصح لكم ذلك–ولاتستطيعونه– فالإجماع طور وراء هذا ، لان الامصار في تلك الاعصار كانت بحمد الله مشحونة بالمجتهدين ، وأئمة العلم والدين كالحجاز والشام واليمن والعراق وغيرها ، فمن يُحصى مذاهب أولئك ؟ تلك أمانيكم فهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

على أنالا نسلم أيضاً :أنّ احداً من الاربعة رضىالله عنهم ، ذهب الى ماضمه نقل هذه المختصرات في هذه المسألة ، فهاتوا نصوصهم فيذلك ، فإنالم نرهم نقلوا

في جواباتهم هذه حرفاً واحداً عن احد من الاربعة في جواز البناء على القبور، بل نقل المالكي عن امامه مالك – رضي الله عنه – : انـه كره البناء على القبر، وقال : لاخير فيه، فاعجب لهـــا من طريقة طريفة، حيث يعمل اتباعه على خلاف مذهبه، ويفصلون المسألة بما يباين اطلاق الإمام، ويكون قولهم فيها في شق، وقول الإمام في الشق الآخر، واجعلها لك عبرة في غيره من المفتين الثلاثة، ولاتثق بأن ماحصلوه في كتب المذاهب راي للأئمة.

فانا لم نسمع عن الإمام الشافعي – رحمه الله – الا انـه قال : « ادركت الأئمة بمكة يهدمون البناء عـلى القبور » ولا يحضرني الآن محله، فأعينه لك، ومثله لايخفى.

فنحن الآن نطالبهم بنقل صحيح : أنّ كل واحد من الائمة الاربعة قائل بما نقلوه عن فروع مذاهبهم، حتى يصححوا دعواهم عليهم فقط، ان كانت ايضاً، لا ان يكون ذلك حجة لهم في الباب، فذلك معلوم الانتفاء بلاشك ولا ارتياب.

فإن يأتوا به – ولا نخالهم يجدون له اثراً – والا فليعلموا انهم بعدُ يقولون مالا يعلمون، حتى في مذاهب أئمتهم الذين هم من جلة اعلام أئمة المسلمين. وبعد تصحيحه عنهم : فهو اجتهاد في مقابلة نص، ورأي صـــادَم أثراً، فسقوطه معلوم لايخفى إلا على أغفال المقلدين.

وليت شعري، هل يتجاسرون على القول عن الائمة الاربعة : ان اتفاقهم حجة، كما نرى بعض ذوي الجهل من أتباعهم، كأنه يعتقد هذا.

ولانعلم ولا نظن أحداً من الاربعة، أَو غيرهم من المعتبرين يزعم: أَن اتفاقهم هو الإجماع، ولا ماقاله بشرٌ غير الرسول المصطفى. فزاعم ذلك قد نادى على نفسه بغفلة مجاوزة، سيما إذا قال : لاعبرة بالمخالف، فيما يعجز خصمه عن مقابلته بمثل مقالته.

فإن رجعوا الى الاحتجاج الصحيح، عـــاد الامر الى تحكيم أَهله، وهو

الصواب ، ولازال خلاف غير الاربعة اياهم مشهوراً مأثوراً ، في المقالات والخلافيات ، من دون أن يقال : هذه المسألة اتفاقية ، لاتفاق الاربعة عليها ، فخلافها بدعة ، وهذا شيء واضح مكشوف ، لايحتاج الى تجشم تصحيح ، ولايقول أحد من العقلاء قط فيما نعلم : أن مخالفة الاربعة خرق للإجماع .

وتَكَثُّر أتباعهم وتشعبهم عائدٌ اليهم ، ان قلنا : انهم مقلِّدون لهم ، والا فالكل لايجاوز بعضيَّة الامة ، فإن ذلك معلوم . وقد عرفت أن الاربعة بعض الامة .

ولايَظُنُّ ظان أن اتفاق أهل المذاهب الاربعة تابعاً ومتبوعاً . اجماع رافع لحكم خلاف من عداهم ، الا جاهلٌ أو غافل ، ولو مع تسليم : أن الاتباع مجتهدون أيضاً ، وان أباه هؤلاء المفتون أهلُ الجوابات وغيرهم ، الا ان هاهنا نكتة ينبغي ان يتنبه لها .

وهي : انا وغيرنا ، لانزال نرى لجِلَّةٍ من وُسِمَ باتباع الائمة الاربعة - رضي الله عنهم - مذاهبَ وترجيحات ، وأقوالاً كثيرة ، يتعسر احصاؤها اما لانه أُثر عن الإمام فيها أصل ، او لانه اثر عنه خلاف ذلك صريحاً ، فإنا رأيناهم يختارون لأنفسهم مالايكاد ينحصر في أبواب المسائل ، وهذا مما يدلك على ان الباب مفتوح عند أولئك ، بخلاف مايزعمه سواهم من وقوفهم والتقليد فقط ، فهذا شيء باطل ، خلاف المعلوم الذي لاريب فيه ، والشاك في شيء من هذ غافلٌ ، فليراجع مثل كتب القاضي عياض ، والسهيلي ، وابن عبد البر ، والخطابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي ، والسبكي ، وابن حجر ، وابن دقيق العيد ، والزين العراقي ، ونور الدين الموزعي ، وابن الملقن ، والبلقيني ، وخصوصاً المنقطعين للأثر منهم - ان سلم صحة انتسابهم - كالأئمة الستة ، أهل الكتب المشهورة ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وأهل المسانيد كالبزارِ ، وأبي يعلى وغيرهما ، ومن لااحصيه ، ومصنفاتهم ،

ومذاهبهم المشهورة معروفة ، إنما الذين عددتهم على سبيل التمثيل فقط، والا فأنّى لى بالاطلاع على الجملة ، واقل من هذا يكفي .

فانظر تصرفهم في المباحث ، وتنقيحهم للمسائل ، وتوضيحهم للدلائل، تجد التقليد والتمذهب في جانب ، وعملهم في جانب، فإن الوقوف على رسم الإمام، فالمحاماة عن مذهبه – كما ذلك معنى التقليد – فالعصبية : هما بمعزل عن ذلك المسلك الذي سلكه أولئك النفر ، في مواضع لااظن حصرها يستطاع ، على أنهم بين مقل ومكثر ، والمجموع واسع جداً ، كما عرفناك ، بحيث يحصل القطع ، لامجرد مطلق العلم بصحة ماذكرناه في هذه النكتة ، والمانع جاهل فليطلع ، أو مباهت ، فلا يلتفت إليه .

وانما ذكرنا هذه النكتة ، لتعلم ان جمود هؤلاء المفتين ومن ضاهاهم من اضرابهم من غرائب الطرائف .

ويأتى لنا – ان شاء الله تعالى – نقل ماذكره الشيخان : أبو محمد بن عبد السلام في قواعده الكبرى؛ والجلال السيوطي في حاشيته على البيضاوي وغيرهما مما يشهد شهادة صدقٍ على ذلك .

اللهم الا ان نسهو عن إيراده – فَجَلَّ من لايسهو – وهو معروف.

وانما أقول : لعل ذكره فيما يأتي أنسب لذكر مايقابله في كلام هؤلاء الجماعة ، والله اعلم .

وان قصدوا بايراد تلك النقول من فروع مذاهبهم : الإفصاح عن المخالف، والاستظهار على ضعف مقالته ، كما هو ظاهر تشاغلهم بتعيين تلك الكتب المنقول منها ، وانها شاهدة عليه بجواز مامنعه – فهذا لايليق الا بصاحب القصور المتناهي والنظر الركيك الواهي .

وأما مخالفهم فيقول: من مثل هذا فِراري، وليس الا الى حكم الله ورسوله سكوني وقراري، ولست من تحشيد هذه الأقوال في شيء. والامر عندي من الله

على خلافها ، وقاضٍ عليها بالفساد،فلو آثرتُها عليه لنأيتُ عن مناهج العقلاء، فضلا عن مدارج الفضلاء .

وليس سبيل من تصدى لمثل ماتصديتم: ان يتشاغل بنقل تفريعات المذهب، لأن من فعل هذا فقد أبان عن فساد لبه وأغرب ،وما كان هذا منكم حسناً، وكتبُ النظر وأسفار الباحثين المُعَرِّفَة بما ينبغي في ذلك بين أظهركم ،وربما تقرؤونها بكرةً وعشية ،ولا يحملكم ضعف الرأى وفاسد التخيل ان تحكموا على أنفسكم او غيركم بعدم التأهل ، فهذا بعينه هو الإفلاس ، لانه اتخذ ذريعة الى الإلباس ،ومنع ماهو من رحمة الله متيسر لكثير من الناس،ولو كان اسلافكم -رضي الله عنهم - قُصارَى مساعيهم هذه الطريقة التي سلكتم، وهي التكثير بنقل نصوص فروع المذاهب ، والقول بأنهم لايستطيعون أخذ حكم من دليله : لما اهتدوا الى تلك المعارف ، ولا أحسنوا اقامة حجة لهم او على خصومهم في دين او معاملة .

ولقد كان لكم عن امتطاء ثَبَجِ[1] هذا مندوحة ،وشيمة عند ذوي النهى سنية ممدوحة ، اذْ هذا التحصيل غايته تعطيل، وكأنه بقى لديكم من محض الفطرة أثارة ، ألقت في البال اشارة طيف: ان في نقل المذهب مايغنى عنكم، لكنه خيال ماث ، فقال : لابد من غير هذا ، فطفقتم تقولون : قال رسول الله ، لقول رسول الله ﷺ ، من غير اتقان ، اعطاءً لذلك الطيف حقه ، وجعلتم ذلك من كلام المذهب المحصل كالدخيل والتابع ، وماقادكم اليه الا احتراس عِرْق الفطرة ، والا فالاصل - الذي هو امتناع اخذ الحكم من دليله - قاض بعدم التعرض لهذه الجهة بالاصالة ، فلعلكم - والله يلهمكم - نسيتم عهود الحمى .

«١» ثبج الشيء : معظمه

فصل

ومن ذلك : أنا تصفحنا أوراقهم هذه . فوجدنا لباب تحقيقها : دعاوى تُعاقِبُ أخواتُها ، وبراهينها عيون دعاويها ، ثم ترتبون المقاصد على هذا الخطأ المتباعد ، حتى جعلتم هدم القباب والمشاهد ، أذيةً لأولياء المليك الواحد ، وهل يقال لمن أطاع الله ورسوله فيما أمرا بـه : آذيت وليَّ الله ؟ وكيف تكون الولاية – وذلك الولى يؤذيه – حكم الـمَوْلِيِّ ؟ .

وليت شعري ، كيف يكون أمرهم اذا لم يَرُعْهم إلا نزول الإمام الأطهر وصاحب السبق الاشهر : علي – رضى الله عنه ونَضَّرَ – بساحتهم يقول : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله ، ان لاأدَعَ قبراً مُشْرِفاً إلاسَوَّيته ، ولا تمثالاً إلاَّ طَمَسْتُه » ؟

فعلى الذي يُشاهَد من حالهم : كأنا بهم وقد ثاروا ذلك المثار ، وأخذوا لتلك المعاقل بالثأر ، وارجعوا علياً القهقرى ، وتركوه زاحفاً على الوراء ، وقالوا : أذية لأولياء الله ، ورأى من درى ، فالامر الآن هو ذاك بعينه ، ماالذي ترك الناس سُدًى ، او نسخ معالم الهدى ؟

ثم كيف الخطب لديهم فى هذه الابنية على الاموات المعدَّة للتلاوة والصلوات ، المشتملة على المحاريب والفُرش والسُرُج ، وسائر الآلات ، إذا أتاهم في شأنها رسول صاحب الوحي المنزل ، والهدي السويّ الأعدل ، يقول : بعثني لإزالة ماقد تقدم إليكم بالنهي عنه من اتخاذ القبور مساجد ، ورواه لـكم عدد من صحابته الجِلة الأماجد ، وقد أكد الله عليكم في الإجابة له ولرسوله ، فماذا أنتم صانعون ؟

وهذا كله بالنظر الى نفس البناء على القبر ، لاالى ماترتب عليه من الوثنية والشرك ، وعلى احياء هذه المشاهد من كَـلْمِ الإسلام ، وفَقْءِ عين شريعة المختار

عليه الصلاة السلام ، ومايقع في الزيارات من انواع الشرك بدعاء المقبورين ، والطواف بتلك الانصاب ، والعكوف عندها ، والنذر والتقرب لها بأنواع القربات ، وماترتب على ذلك من المفاسد والمنكرات ، كترك الصلاة المكتوبة ومايقولون من أقاويلهم المفتراة المكذوبة ، قد حملوا الولي ، او حملها عنهم ، واختلاط الرجال بالنساء ، وارباب الملاهي ، واتخاذ الزينات ، والمجاهرات بالبدع والمعاصي ، والمخالفات لله ، التي لاطمع في حصرها في الرقاع ، وكيف وقد امتدت في أقطار البسيطة ، على مافيها من الاتساع ؟ فما اكثر ماترى هنالك من نسيان الله ونبذ لعهوده ، ومحادة له ولكتابه وتعدي لحدوده .

ولعمر الله ، من رضي بقاء هذه الرسوم . شارك في هذا الخطب المشؤوم ، الا متبرىء لله من هذه الاحداث ، وغائر لله مما حل بدينه من خطوب الابنية ، وزوار الاجداث ، الذين أعطوها حق ربنا الذي هو احق ان يدعى ويستغاث وانهمكوا في صنوف من انكر الاعمال ، وجسائم الاخباث .

وانتم معشر المفتين ، اترضون لأنفسكم : ان تلقوا الله بشيء من اشادة هذا البنيان ؟ فاستعدوا للسؤال . فللأعمال ديان .

اللهم ، فهذه براءة اليك مما تكاد السموات يتفطرن منه . وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ، اتتنا المناهي عن رسولك في هذا الباب ، كما نهى ، راي عين في سد ذرائعه ، وهدم شرائعه ، وطمس رسومه وشنائعه ، ثم عمد قوم اضاعوا عهد التحقيق ولم يراعوا مشاعر تأديبك وتعليمك ، التي تهدي الى سواء الطريق . فانتصبوا لرفع رايات سوء ، كان ينبغي ان تكون مخفوضة معزولة بحكمك الوثيق ، والا فكل من آمن بك ، وعقل عنك ، وتحقق بمعرفة دينك ، لايجهل مافي طيها من عظيم المشاقة لك ولرسولك .

اللهم ، فمن زعم عليك : انك رفعت شأن القباب والمشاهد ، والزيارات المعروفة من هذه الطوائف ، ومواطن الأموات ، وجعلتها ترياقاً لقضاء الحوائج ،

ومثابة للناس ، وأعياداً لهم ، وزعم على سلفنا الصالح منامة نبيك الاكرم: أنهم دانوا بذلك ، أو بذرة منه . اتباعاً لامرك ، ورضاءً بحكمك ، وصار من غاية سعيه . زيادة ازدراع هذه المفاسد ، وايقاد نيرانها . فاحكم بيننا وبينه بالحق ، وأنت خير الحاكمين .

فإن القوم قد أبدلوا –وانت اعلم– رسوم شرعك بسواها، واستولى اللعين على فطرهم ، فثناها عن الهدى ولواها ، وسولّ لهم ان يبدلوا الزيارة التي شرعتها للإدّكار ، والاستغفار والاعتبار ، بضدها : من التضرع عند القبر ، والرقص واللهو ، وابداء الفاقة والافتقار ، وأنواع الفجور ، والهتف ، والتملق ، والتأدب مع الرمم ، والحكم لها بنفع واضرار .

وكيف لا ؟ وقد أصّلوا: ان لها التصرف والتصريف في البادين والحُضّار ، وصاروا يستمدون من نفحاتهم جسائم الآمال ، ويضربون قباب الطلبات بفناء اعتاب قباب الاموات ، يابئس الأعمال .

فمن الذي بوّأكم هذه المشارع ، وسنّ لكم هذه الآداب والشرائع ؟ ووضع لكم هذه الرسوم التي تبعتم آثارها ؟ فائتونا بسلطان مبين . نتبعه ونشكر لكم ان كنتم صادقين ، أو فامْحُوا عنكم – عافاكم الله – عارها ، وحاشا بعد ان نقول لكم – ان أتيتم بحجة بينة– «دعونا» فقد صرح الشيخ بخلافها ، لان ذا من الَحيف بمكان .

ثم اللهم ، ان القوم أبدلوا مناهي رسولك ، الذي جعلته العصمة من الضلال ، عن البناء على القبور ، وتشريفها ، وتجصيصها ، والكتابة عليها ، وجعلها مساجد ، وماجاء عنه من النهي عن اتخاذ قبره عيداً بأضدادها ، فبنوا وشرفوا وجصصوا ، وكتبوا ، وجعلوها أعيادا ومساجد ، كأنه ﷺ أغراهم بذلك الامر الأسوأ ، بل لو كانوا مأمورين بذلك لما حفظوه ورعوه ، كما هم الآن ، بشهادة المناهي في هذه المسألة ، إذ أضيعت ، وشهادة غيرها في غير هذا الباب ، مما لايحتاج الى شرح .

وليتهم اقتصروا على هـذه المخالفات ، بل جاوزوا مما ينسيها الى اضعاف مضاعفات ، واقتدت العامة بمن تخيلوا عنده علماً ،وهو في الواقع منهم لايملك رأياً ولا عقلا للحقائق ولا فهما ، فهو معهم غارق في باطل لغوهم ، حريص على شهود مجالس إفكهم ، وإثمهم ولهوهم ، لايهدي ولايهتدي ،ولا تراه في طلب العلم صدقا يروح ولا يغتدي .

حتى انا وجدنا في أفعالهم لدى هذه المشاهد ما كان صنيع الجاهلية عند بيوت الأوثان ، وزيادة غلو على من ضـاد الله ورسوله باتخاذ إله ثان . فإنـّا سمعنا الله يقول في كتابه ، إذ سجل على اولئك الأقوام : (١٧ : ٦٧ واذا مَسَّكم الضر في البحر ضـل من تدعون إلا اياه) أي : هو تعالى ذو الجلال والإكرام .

وطالما شاهدنا عُبَّاد أرباب هذه القباب . اذا التطمت عليهم أمواج البحر العباب . سمعت ذكر الزيلعي والحداد ،وكل يدعو شيخه عند ذلك الاضطراب ، اذ لكلّ طريقةٍ لاينتحى سواها في الهتف والانتساب ، ولكل من الجيلاني ، وابن علوان ، والعيدروس ، والحداد ،وغيرهم من آلهة هذه الطوائف :طائفة من العباد ، ويذكرون الله في جملة من ذكرنا ، كما سمعناهم أيضاً ، كأنه واحدٌ من تلك الاعداد وحاشا كل من يؤمن بالله واليوم الآخر — خصوصاً صلحاء الأمجاد — ان يرضى شيئاً من هذا ،والا كان شريكا لمن حادّ الله ورسوله وضادّ.
أفلا يعجب اهل العقول والأديان من الانسلاخ عن مشاعر شرعة الإسلام الى هذه الغايات النواد ؟

فكيف ساغ لأهل تلك الاجوبة —عافاهم الله— ان يأتوا بما يترتب عليه شَدّ عضد هذه المنكرات ، كقول قائلهم — وهو ثالث من تصدر للافتاء في هذه المسألة : نقل العارف بالله قطب الدائرة . مولانا الشيخ عبـد الوهاب الشعراني : ان بعض مشايخه ذكر له : أن الله يُوَكّل بقبر كل ولي ملكا يقضي حوائج الناس . انتهى .

فأي سبيل أوصل الى القول على الله بمثل هذا ؟ والفقيه عن الله ، المتحقق بالصدق فيه لايرضى دونه .

وأغرب منه : تلقيه بالتسليم والرضى ،والجزم بصحته ، والتهالك على ذلك كله ، ممن لايحصى كثرة ممن يلبس ثياب العلماء .

ومثل هذه النكتة : أختها التالية لهـا ، اذ قال الناقل للأولى مالفظه : وذكر – يعني الشعراني – عند الكلام على ترجمة سيدي شمس الدين الحنفي : انه قال في مرض موته : من كان له حاجة . فليأت قبري ويطلبها ، أقضها له فإنما بيني وبينه ذراع من تراب ، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ، فليس برجل . انتهى .

فهل ترى ياذا الطبع السليم لمؤمن قط ، تحب له ماتحب لنفسك : أن يدين بشيء من هذه الشعوب المخوفة ، ويزعم : أنّ دين الله الأقدس يرضاها ولا يأباها ؟ وأنها مسلك من مسالكه المكرمة ، ثم يرسلها الى أقاصي البلدان؟

وعجب لاينقضي ممن يقبل أمثال هذه الطرائف ، وماقبلَ أنوار الكلام النبوي ، ومابه أشار المقال العادل السويّ ، فكيف يظن بقائلها أو ناقلها: إصدارها عن علم إو معرفة ؟

ومثل ذلك : مانقله من أنّ الخضر عليه السلام كان يحضر مجلس فقه أبي حنيفة في كل يوم بعد صلاة الصبح ، يتعلم منه علم الشريعة ، فلما مات سأل ربه عز وجل ان يرد روحه في قبره . حتى يتم له علم الشريعة . فكان يأتي إليه كل يوم على عادته يسمع منه علم الشريعة ،من داخل القبر ،واقام على ذلك خمس عشرة سنة ، حتى أكمل علم الشريعة على ابي حنيفة بعد موته . اهـ

ومثله : ماذكر : ان الشافعي سئل عن مسألة . فأجاب السائل من القبر ، وان السيدة نفيسة وقع لهـا مثل ذلك ، من تلك الاكاذيب التي يروجها سدنة هذه القباب ليخدعوا العامة .

فهنا ياذوي الالباب ، تسكب العبرات: إنْ كان القوم قد رضوا لانفسهم سنة من فقد التمييز ، وسُلب الذوق ،فلا كرم الله أمثالهم، وكيف يستطاع ان تقام حجة على أقل من هذا ؟

وغايتهم : الدعوى ابتداءً وانتهاءً ، فإن قُصارى مقالهم : حدّث بهذا من هو عندنا ثقة . فعلى التنزل : تنتقل منهم إليه .

ولعمر الله ماهــذا وامثاله الا فرص انتهزها العدو المبين ، ماأظنه كان يتوقعها بهذه الصفة ، وان كان قـــد تألىّ بإغوائهم أجمعين ، الا عبــاد الله المخلصين .

وحسبك من يستنـد في المباحث الدينية : الى ان الشعراني ذكر له بعض مشايخه .فهذا الخضر الذي قصّ الله نبأه في سورة الكهف وقال (١٨ : ٦٥ آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً) وقال له موسى (١٨:٦٦هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشداً ؟) فصار موسى تلميذاً له ، وهو الذي أنزل الله عليه الكتاب المسطور ، وناداه من جانب الطور .

وليت شعري حيث كان الخضر في هذه الترجمة:هو المستفيد منابي حنيفة . ما كان علمُ الخضر قبل معرفته علم الشريعة ، حتى تعلمها من ابي حنيفة ؟ ان كان خليقاً : ان يصفه اللهبذلك الوصف ، ويأمر صفوته منخلقه ، انيؤمه حتى يعلم منه ، وكيف استحق ان يكون موسى متعلماً منه ؟ وأي علمعند من جهل علم الشريعة ؟

او ماعلمتم:ان الشريعةذاتُ توحيدٍ واحكامٍ ومعالمحلال وحراموأمهات أديان الانبياء عليهم الصلاة والسلام ؟وماذاك التنويه السابق بعبد لم يعرفعلم الشريعة إلا من ابي حنيفة ؟ ان كان هذا قدعدّمن مجاز الاول .

فاعتبر هذا ياموفق ، أفما كان لعبد الله الخضر في مشاهد ختام الانبياء ، وتمام الرسل الاصفياء ؟ثم أمَا كان لهفيعليّ صاحب منزلة هارون،وصِدّيق الامة وفاروق النور والظلمة ، أعلام خير القرون ؟ ثم اما كان له فيعلماءتلك

العصور من نظراء الإمام ابي حنيفة : مايغنيه هذا عن التربص وطول الانتظار؟ انها لطريفة يعز نظيرها .

فصل

ومن ذلك — وان كنا قد أشرنا اليه فيا سلف، فهذا استكمال للبحث فيه — حكمهم وتواطؤ كلماتهم : على ان الاجتهاد في هذه الاعصار متعذر ، وقد صدع بعضهم بدليل على ذلك ، ماترك لخصمه بزعمه مجالا للجواب .

فقال : وقد نص الحافظ ابن حجر : بأن الاجتهاد بأنواعه انقطع من القرن الرابع ، و كفى بذلك حجة ، لدفع هذا الـمُغْتَرِّ المنازع . انتهى.

فلقد ظن — أرشده الله — انه ابدى بهـذا الهُراء دليلاً ظاهراً ، وبرهانا عند الانام باهراً ، قطع خصمه عن الإتيان بمثله ، وَبَتَّ حبال المسافـة واستراح ، وحَطَّ رحل الرحـال عن ركابه وأراح ، ولْيَتَنَبَّه لقوله « الحافظ ابن حجر » فمـا إخال وصف « الحافظ » الا وَهْماً منه — او إيهاما — فيا ذكر ، فكتبه ، ومباحثه لاتقبل هـذا عليه بل تومىء ، او تصرح ببطلانه عنه جزماً .

فليوجدنا هذا القائل حرفاً منه في ذلك ليصدق ، لاليحتج ، ولعله ابن حجر الهيتمي ، ولايعرف بالحافظ ، ولا يضرنا صدور مثل ذلك منه ، ان صح أيضاً.

ثم انهم اضطربوا في تعيين زمن تعذر الاجتهاد : هل هو في القرن الثالث ، او الرابع ، او الخامس ؟ على ماشهدت به جواباتهم ، وَكُلٌّ رَجَّحَ نظرُه الثاقب منقبةً من تلك المناقب . وماذاك الاضطراب : الا انه لقوة أصل الباب.

ثم تناقضوا ، او من تناقض منهم ، حيث يقول :

السبب المانع من تحصيل الاجتهاد . فَقْدُ آلاته وشرائطه منذ أزمان . انتهى.

وهذا أخذاً مما نقل هذا الناقل عن ابن حجر ، من ان الاجتهاد بجميـع انواعه : انقطع من القرن الرابع ، كما مرت حكايته . فما هي إلا ظلمات بعضها فوق بعض .

ومع هذا كله ،فيقول قائلهم :هل ادعى الاجتهاد احد من اصحاب الشافعي الذين طَبَّقُوا الارض علماً ، وملؤوهـا حذقاً وفهماً ، وجمعوا الى المعقول مشروعاً ، وحازوا من علوم شتى اصولا وفروعاً: مثل الربيع ، والبُوَيْطي والمزني ، والقفال ، والاسفرائينين ، والغزالي ، وامام الحرمين ؟ ام كانوا في حضيض التقليد للامام الشافعي ؟ وهكذا اتباع كل مجتهد ، مع انهم كانوا مهرة في العلوم العقلية والنقلية ، ولايدعى الاجتهاد في زماننا هذا : الا من جهل شروط الاجتهاد ، وعرى عن علم أصول الفقه . انتهى .

فهذه عبرة من العبر ، وانها لإحدى الكُبَر .

والا فكيف يقال : تعذر الاجتهاد لفقد آلاته وشرائطه – مع كون من ذكروا طبقوا الارض علماً – الى آخر كلامه ؟ فاعتبر .

وكم من طريقة قد بنوها على هذا الاصل الضئيل ، والمقال الساقط العليل، لكنهم بحمد الله قد تسارعوا الى نقضه ،بديهة من غير رويَّة ، وهم لايشعرون وما ذاك الا لأن الضرورة البديهية الفطرية والنظرية منادية ببطلانه ،وشاهد صدق على انه من فاسد الكلام ، وهذيانه والحس قاطع لمن زعمه بلا حاجة الى اعمال الجوارح في بيان ضلاله .

فلما كان بهذه المثابة لم يجد القوم بُدّاً من مناقضته بغير شعور . فطفقوا يقولون : قال الله ،قال رسوله ، ونسوا ماسودوا به صحفهم من مثل قول بعضهم : فيحرم على ذلك دعوى الاجتهاد ، واخذ الحكم بالدليل ، وان طابق الواقع لقصور نظره . أخذاً من قوله تعالى – خطاباً لمن لم يبلغ رتبة الاجتهاد – (٢١ : ٧ فاسألوا أهل الذكر) اي المجتهدين – الى آخر تلعبه بكتاب الله مناقضة ومعارضة .

أمَا درى –وَيْحَهُ – أنَّ اخذَ الحكم من دليله،وتيسر الاجتهادوحصوله في هذه الاعصار: مامثاله الا ان يقول : يحرم كذا ، ويحل كذا ،لقول الله

تعالى كذا ، وقول رسوله كذا ، على حسب مبلغ علمه ، ومنتهى فهمه ، كما صنع من حكينا كلامه من التكلم بلا بصيرة ؟

على ان جِلـّة من اصحاب الشافعي ، وغيره من الائمة ، مكذبون لهـذا الخابط في دعواه عليهم : بأن احداً منهم لم يدع الاجتهاد . فإنهم بين مشهود له بذلك ، ومُدَّعٍ هو له ، كأبي بكر بن المنذر ، ومحمد بن جرير الطبري والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد قاضي الديار المصرية وعالمها ، والجلال بن الكمال السيوطي ، وأوسع من مانعه ذلك تجهيلاً وتضليلاً ، كما هو معروف في كتبه . ومنها « الرد على من أخلد الى الارض ، وانكر ان الاجتهاد في كل وقت فرض » وقبله الشيخ الإمام ابو محمد بن عبـد السلام المصري ، كما يأتيك نص كلامه في كتابه « قواعد الإسلام » ومن لا احصيه الآن ، وكمن ذكرناهم لك فيما تقدم . فان تصرفهم في فنون العـلم ، وأبواب المعارف ، وامهات المسائل ، وتنقيح الدلائل ، وتوضيح المطالب والوسـائل ، صرح عنهم عملا ودلالة : بأنهم مستندون الى خالص المباشرة ، ومحض السعي والعمل وغير ملتفتين في تقرير بحث ، او تحرير باب الى غير سَبْرهم بفهمهم وفحصهم وتنقيبهم ، وامعانهم ، واعمال فكرهم واذهانهم ، في تلخيصه وتصحيحـه وتهذيبه ، بحيث ما الى امام ولا متبوع — اسما لا معنى — التفات ولا تعريج بل تراه معهم كأحد نظرائهم ، جزماً لا شكّ فيه .

وأولئك مثلاً : كالقاضي عياض بن موسى السبتي ، صاحب الالماع والشفاء وشرح صحيح مسلم ، والحافظ ابي يوسف بن عبـد البر النَّمري ، مصنف التمهيد والاستيعاب وغيرهما ، وابي القاسم السهيلي صاحب الروض الانُف وابي سليمان الخطابي صاحب معالم السنن شرح سنن ابي داود ، واعـلام السنن شرح صحيح البخاري ، وغيرهما . والحافظ شهاب الدين احمد بن حجر العسقلاني ، مصنف فتح الباري ، وشيخه ابي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي وغيرهم . ممن اشرنا الى تعداد طائفة منهم قريباً . وحصرهم في حيز المتنع عادة . خصوصاً الاثريين . فهم من ابعد الناس عن التمذهب .

فكيف يُدّعىَ على جميع من ذكرنا : أنهم او واحداً منهم : لم يــدع الاجتهاد ، ولا شهد له به ، ولانادى به عملا وتصرفا ؟

لقد أعظم الفرية عليهم من قال بشيء من هذا .

وحاصله : ان هذه دعوى كاذبة باطلة ، معلوم بطلانها وكذبها يقيناً ، بلا أدنى ريبة . والسلام .

فياعجباً لقوم ٍبَيننا ُهمْ قد سَدّوا طريق الاجتهاد : لفقد آلاته بزعمهم ، وانسداد ابوابها ، والعلة باطلة ، فكذا المعلول ، ومتى يستقيم الظل والعود اعوج ؟ ثم اذا هم – مع ذلك – قد عادوا الى ذلك الاصل فنقضوه ، ومعهده الخاوي فرفضوه ، اذ حكم فاضلـُهم لمن سمى من اصحاب الشافعى بأنهم طبقوا الارض علماً ، وملؤوها حذقاً وفهماً ، ثم شفع ذلك بقوله: وهكذا اتباع كل إمام مجتهد ، مع انهم كانوا مهرةً في العلوم العقلية والنقلية . انتهى .

فلا ادرى – بعد تطبيقهم الارض علماً ، وَمَلـْئِهِمْ إياها حذقـاً وفهماً ، وكونهم مهرة في العلوم عقليها ونقليها – ماذا الذي فقد عنـدهم من آلات الاجتهاد وانواعه وعلومه ، حتى يتعذر هو؟اذْ تعذره ان كان لتعذر مقدماته ، فقد احيط بها، واستولى عليها ، وسميت صنوف التحقيق والتدقيق ؟ وهل هي الا شُطُورُهُ وابعاضه ؟

واَحَّر عيناه ، فبالضرورة حصبوله بحصولها ، وماذا الذي امتاز به الائمة الـْمَتـْبُوعُونَ من طورٍ وراء هذا ؟

فالله المستعان على هفوة مكشوفة السوأة، لم ينزجر عن التعامي عنها جماعة المفتين ، ومن رضي من المقلدين صنيعهم ، وهم الاكثرون ، فإنّ بديهة الفطرة السليمة تقول : وهل من بغية فـُقدت ، او مأرب استعصى على من طبق الارض علماً – الى آخر ماذكرتم ؟

وماذا أعجزه : بعد اقتعاد غار بها ،أو شانَـهُ: بعد الإحاطـة بالوسائل ومقاصدها ، اذ تلك هي مجموع العلوم عقلياً ونقلياً ؟

وكيف بمن ملك آلات الاجتهاد وشرائطه،ومارس طرق النظر وضوابطه وماغاية الشافعي ومالك واحمد وابي حنيفة رضي اللهعنهم ، الا ّ هذهالغاية — ان سلمت ايضاً لهم — وكذلك كل مجتهد في الآفاق ، وامـام نحرير ، لايشق غباره بالاتفاق ، وان تفاوتت مواطىء أقدامهم على حسب معارفهم — ان سلم أيضاً—انهم بهذا الوصف المجعول لاتباعهم.والا فالسَّبْر والاختبار والنظر الصحيح والاعتبار : كاشف عن ان هذا اختلاقٌ بَحْت ، وعن فساد هذا الغلو الذي وَلـَّده امتلاءالصدور بتقديس الاسلاف ،حتى أدى الامرالى اسـاءة ليست بالهينة ، تَبْدُو يوم ينكشف الغطاء ، وتتقاصر عن المتعنتين فسيحات الخُطَى ،وَنَزَّهَ الله الائمة الاربعة ، ومن عقل الحقائق ، ان يَدَّعوا لهم ماليس لهم ، ويرفعوهم عن قدرهم ، ويغلو فيهم بغير الحق ، فهم خصماء هؤلاء الغالين يوم الحساب ، يقولون لهم : ما كان لـكم هذا الغلو فينا، حتى تركتم منقولنا ماهوالحجة عليكم،وقَصَرتم فضلالله الواسع ،ومائدته المبسوطة علينا ، وقابلتم من نازعكم في شيء واتاكم به : بأنا لم نقل بـه ، او قلنا بخلافه ،وهجرتم الرد الى الله ورسوله صلىالله عليـه وسلم ؟ ومابهذا أمرناكم ، ولا عليه دللناكم ، ان كنتم أيضاً صدقتم علينا فيما قلتم عنا ، ونسبتم الينا من الخلاف في تلك المسألة . ولئن فعلنا لكنا ظلمنـا أنفسنا ، وجاذبنا الحق أهله ، ومعاذ الله من ذلك كله ، فانا منه برآء . وماضركم ان تكونوا كمن سلف قبلنا ؟ درجوا على معالم هادية ، بلا تحرير مذاهب ، ولا تقرير طرائق مخصوصـــة . ومرتـاد الحق لايُحرم ، والمبطل مكشوف القناع أبْـكم .

فكيف يَخْفَى حَقٌ ، او يروج باطل ،مع المضي على سنن تلك الطرائق المثلى.

ولقد قضت التجارب ، وتصفّح احوال العالم ، وشهد الحس القاطع:ان كل

فرقة وأهل كل نِحْـلة، يقولون في سلفهم نحواً مما قاله هؤلاء في الاربعة وزيادة عليه، ويزعمون : ان مخالفيهم لم يبلغوا ذلك الشأن، ولا انتهوا الى تلك الغاية، وأنه لايصلح ان يكون مخالفهم هو الذي فاز بالصواب، على النحو الذي يزعمه جماعة المفتين وإخوانهم فيمن نازعهم، او نحا خلاف قول من تبعوه .

فلا جرم اتسع الخرق على الراقع، وتشعبت طرق الإدلال بمطابقة الواقع .

وسبب كل ذلك : ماعرفناك : من غلو التابع في متبوعه، كأن معنى دين الله : هو الهوى والمحاباة، فلا بحث عما قال الإمام، ولا مجال للطاعنين في شيء مما فاه به من الكلام . برئنا الى الله من ذلك .

وحاصل الكلام فيما نحن بصدده : ان الحكم بتعذر الاجتهاد، منذ زمن كذا –على الاضطراب فيه– لتعذر آلاته وشرائطه، مع القول بأن المذكورين طبقوا الأرض علماً – : ظاهر التناقض، واضح التهافت، مايخرج من رأس ذي عقل . عَقَل المعاني، وأدرك مدلولات المباني قط .

ومن تناقضهم البَيِّن – بعد ان ارسلوا مقالتهم بتعذر الاجتهاد، وأخذ الحكم من دليله – : انهم اخـذوا في الاستدلال والتصحيح، والإبطال في خصوص مسألتنا هذه، التي استدعت هذا البحث برمته .

فنقول لهم :أعرفتم بطريق البرهان الذي دققتم برهانيته: حسن ماذهبتم إليه، وأنه حق، وخلافه باطل، كما بـه جزمتم ؟ أم قلدتم : إما في نفس الحكم، أو البرهان عليه ؟ والجواب عن هذا لابد منه .

فإن قلتم بالاول : ظهر لكم إمكان إقامة الحجة، على أي مطلب في أي عصر كان، وان البرهنة على المقاصد أبداً متيسرة ممكنة، لامتعذرة ولا متعسرة، ونحن لانعنى بالاجتهاد الا هذا القدر . فإن غاية المجتهد تمييز الصحيح من مقابله .

والآن : فقد اتضح لكم – وضوحا بينا بلا شك ولا التباس – فساد تلك المقالة منكم – ان وعيتم ماذكرنا– لاتحاد عملكم وتصرفكم مع عمل المجتهدين وتصرفهم ، لافرق بينكم وبينهم ، الا بأنكم سميتم أنفسكم مقلدين ، وقصرتم اسم الاجتهاد عليهم ، وعرّفتم ماصدر عنكم بأنه تقليد ، وماصدر عنهم بأنه اجتهاد ، ولايضر اختلاف الاسماء ، اذ كلامنا على المعنى يدور ، حيث كان الحاصل هو الحاصل . لان الوقوف مع الصور شأن الاغبياء الذين لاتميز لهم. فسموا أنفسكم مقلدين ،واصنعوا صنع المجتهدين. فليس ذلك بضائر ولاعاكر عند ذى الذوق السليم ، والامر في هذا واضح بَيِّنٌ ، غَنِيٌّ عن الإيعاب .

اذْ لو وفيتم بذمة ذلك الاصل المنهار – وهو القول بتعذر الاجتهاد ، وانغلاق بابه ، وامتناع أخذ الحكم من دليله – لكففتم عن سَرْدِ ماحسبتموه حجة لكم من كتاب الله وسنة رسوله وغيرهما ،ولكن كانت الشجرة طَلْحا والثمرة جوحاً ، فما أحْرَاكُمْ بقول من قال :

وَقائلَةٍ :يافارِسَ الْخَيْلِ ،هل تَرَى   أبَا ولَدِي عَنْهُ الْمَنيَّةُ ولَّتِ ؟
فقلتُ لها : لا عِلْمَ لى ، غَيْرَ أنني   رأيتُ عليهِ الْمشْرَفيَّةَ سُلَّتِ
ودَارَتْ عليه الخيل دَوْرَيْنِ بالْقنَا   وحامَتْ عليه الطَّيْرُ ،ثم تَوَلَّتِ

نفى العلم ، ثم أخذ يجتنى ثماره .

فإن قال القوم بهذا الشق من الترديد –وهو انهم عرفوا بالمباشرة والبرهان الذي ذاقوه : حسن ماأنتجوا ، كما هو مقتضى عملهم – بانت مناقضتهم الصريحة ، وتفاحش فساد مقالتهم ، وأنهم قد نقضوا بناءهم بأيديهم جَهْرًا.

وان قالوا بالشِّق الثاني – كما هو مقتضى أصلهم ذاك – وأنهم قلدوا في حسن مانصروا ،او في كون ماذكروا من الحجج عند أنفسهم :دليلامفصحا عن حسنه ، مبطلا للمعارض،لامتناع اخذ الحكم من دليله في هذه الاعصار. فهذا من أبلغ الاستظهار على تعطيلهم ، وقلة تحصيلهم .

اذ المعلوم في محاسن العقول ، وسليم الفطر : ان احداً — ان كان يجهل امراً من الامور — لايتهالك على نصرته ، ولايقطع بصحته ، ويَكثُر على مخالفه بالإبطال (٥٠ : ١١ قُتِلَ الخرَّاصون ، الذين هم في غَمْرَةٍ ساهون) والله سبحانه قد نهى ان يقال عليه الا الحق .

والبحث معكم — والحالة هذه — بالنسبة اليكم ضياع ، وعسى ان يهدي الله به من شاء من عباده ، وليس ماجئتم به من الجزم والقطع بشيءٍ بلا برهانٍ عليه ، وأخذٍ له من دليله : سَجِيّة المتشرعين ،الذين سنتهم العلم والعدل ، دون الظلم والجهل ، فمعاذ الله من جهل وطيش .

وإنا أيضاً نُورِدُ عليكم هذا السؤال بعينه . في شأنالتقليد الذي أنتمعليه . وقد رضيتم به ، كأنه تَوخّياً منكم للتأسي . والله قد حَذّر من ذلك بقوله (١٧ : ٣٦ وَلاَ تَقْفُ ماليس لك به عِلْمٌ) وبقوله (٧ : ٣٣ قل : إنما حرَّم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن — الى قوله — وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

أشعرتم أنَّ هذا في كتاب الله ، ثم تجاوزتم عن الرضا به ، الى ان قصرتم الطريق الى الله ورسوله في أمر الدين : من الإفتاء والقضاء بين العباد ، بل وأبواب ماتنتحلونه من الاعتقاد ، وحاصل جملة ماتدينون به من أحكام المعاش والمعاد عليه ؟ اذْ لانعرف أحداً منكم يرفعرأسه بسبب ذلك الأصل، الى البحث والتنقيب عما قاله أئمته ، وأهل نحلته ، او يقول : يحتمل أن يكونوا في هذا الباب لا على صحة وصواب . فما عليَّ من بأسٍ في الفحص عن أصله ، ومن رام ذلك ما كان حظه منكم إلاّ قولكم : ما أنت وتقليب الجبال الرواسى .

فإن زعم ذلك . لم يكن لكم حينئذ حرفة سوى التكذيب والجدال ؟

فنقول لكم في السؤال المشار اليه : هل عملكم على التقليد والتدين به ، خصوصاً على هذه الصفة الغريبة التي صرتم بها صادرين عن برهان صحيح ، وحجة منيرة ،وأنه طريق نجاة وسلامة؟هذا القدر الذي سألناكم عنهالآن،

لإنـكاركم على من حاد عنه ، أو جوز النظر وامكان المعرفة ، وفتح الباب للوافد فلا يحسن أن يقوله مميز يعقل معاني الكلام ، فلا نتشاغل به أصلا ، أم قيل لكم : التقليد طريق نجاة ، ومنهج هدى . فاسلكوه ، فسلكتم بلا بينة ؟ .

فإن قلتم بالأول : فما الذي يُسَوِّغ لكم اقامة البرهان ، وايضاح الحجة ، وأخذ هذا الحكم من مستنده ودليله ، وقد انسد الباب في ذلك بقاعدةهذا جزء منها ، وما الذي حَلَّ تلك العقدة في هذا الأصـــل الاصيل ، وحجر ماسواه من جملة أو تفصيل ؟.

وعلى هذا : فقد نفضتم غبـار التقليد من أيديكم ، وصرتم على بينة من أمركم ، وهذا حاصل الاجتهادالـكامل ، وأخذ الاحكام الشرعية من دلائلها ، لاسواه البتة .

ووقوع الخطأ في فردٍ أو احتماله لايمنع من المضي على الاصل المستقر ، ولا المخالفة في الجملة ، وهو جارٍ حينئذ مجرى غلط الشاهد والراوي ، أوتزويره أو وضعه ، فإنه لايُطرح مطلقاً ، ولكن في ذلك الفرد مع بقاء أصل الباب على حاله ، لايخدش فيه ذلك الخدش .

فشهادة الثقة وروايته مثلا : قامت الحجة على العمل بها ، ولايضرنا الجهل بمطابقة الواقع واحتمال عدمها ، أو ظهور خلافها حيناً .

فالآن مناط ما كلفنا به قد حصلناه ، وطريقة ماخوطبنا به قد سلكناها على علم ، وصار عملنا على بصيرة ، وهذا طور الخطاب التكليفي ، وأمااصابة مافي نفس الامر فطور وراءه ، لايعلق بنا شيء منها . « فإنما أقطع له قطعة من نارٍ » « ألا شققت عن قلبه ؟ » « وحسابهم على الله » .

فـالجَهْلُ بهذه الجهة ليس هو مما يقابل العلم عن الله ، ومعرفة أحكامه . بل أمرٌ أجنبيٌّ على نحو مااختص به من الغيوب خارج عن المطلوب من العباد ، وعما نبحث عنه في هذا السؤال ، الذي نحن في سياق ايراده .

فما هو التقليد والحالة هذه ؟.

إذْ قول من يقول : اني أصدق وان لم أعمل عملا على التقليد ،حتى استبنت انى في ذلك راشد ، حسنُ السعى ،صالح العمل ،اعمل بحجة من الله باشرتها، وطعمت مذاقها بالنظر والاعتبار، الذي استندت فيه الى خاصة بحثي بنفسي: فهذا هو معنى المجتهد وحاصله ، بل وزيادة عليه عند إشباع التدبر .

فعلى هذا : ليس بأقل من المقلد بالقبح علماً بما هو عليه .

والجهل بمستند المقلَّد – اسم مفعول – في قضية شخصية كالجهل بسبب الشهادة والرواية ، لايعتبر علمه ، ولا الاطلاع عليه بعد تقرير المناط الديني التكليفي .

وغير َخافٍ عليك: ان هذا التمايُزَ بين المقلَّد والمقلِّد لايصلح فارقاً، لا في الاسم ، ولا في الحكم ، ولا في الحاصل ، اذ تصحيح أصل الشيء ومايحصل عنه ، وهو مُبْتَنٍ عليه ، وَمُسْتَمَدٌّ منه: تصحيح له ضرورة ، اذ العمل به فرع ذلك التأصيل الصحيح ، كجزء القاعدة بعد تصحيحها ، وتحقق كونه فرداً مما يدخل تحتها ، فلا تجد بشراً يطالبك بوجه الرفع في « قال زيدٌ » وأن تُبينَ له شاهداً في خصوص هذه المادة، أو نظير هذا التركيب أو خصوصه ، بعد اذعانه لأصله .

وليس اطلاع الإمام على خصوص حجة باب دون تابعه: الا كحاكمين حكما في قضية بشهادة ، علم أحدهما صدق تلك الشهادة بأي الطرق ، بعد الحكم أو قبله ، حيث لايحكم بعلمه ، والآخر جهله .

فهذا امتياز لامدخل له في العلم الديني ، وفرق من وراء الجمع ملغى عن الاعتبار فيما نحن بصدده .

وان قلتم بالثاني – وهو ان لاعلم عندكم بحسن منتحاكم في أمر التقليد ولا برهان لديكم في ذلك باشرتموه ، على وجه مذاق الناظر لنفسه ، والمنقب عن أساس مايقول أبناء جنسه: فلاأغرب من الإصرار على شيء لايُستبان رُشْدُه وخطة لايلوح هداها. والغُلُوّ فيما شأنه هذا، حتى صار المدار عليه، والمعول دائماً مستمراً بين يديه، وكان به الاعتصام والمعاذ عند الخصام ، والتألُّه للمليك

العلام ، والوقوف على رسمه في الإقدام والإحجام ، أفيرتضى هذا من عقل ، وحل ساحة التمييز ونزل ؟ كيف من نصح لله وعدل : أن يكون في دينه الذي هو أنفس مايقتنى ، وأولى مابه يعتنى ،أن لايكون على بصيرة يعقلها، وأثارة ينقلها ؟.

هذا من أعجب العجاب ، وأطرف ماطرق الأسماع المماطة الحجاب ، لأن صنوف الأمم لاتجد فرداً منهم – حتى من نحن نخوض معهم الآن ، وان كانوا قد أرسلوا من ألسنتهم مايوجبه صريحاً – يقول على نفسه أو فريقه : بحاصل هذه النكتة ، وحتى أن المبطلين منهم ،لايعترف احد منهم على نفسه : انه ليس على بصيرة من أمره وتثبت فيما هو عليه .

واعلم أنَّ ماذكرنا من الإيراد والترديد ، والامور اللازمة عليه : أوضح من شمس الضحى ، لايماري في ذلك – او يتمارى – إلا جامد الفكر ، غير متأهل للهداية ، ولا مترشح للاقلاع عن الغواية .

فلا يخلو حال هؤلاء المقلدة من ان يقولوا : نحن على بصيرة وهدى في الذرة والجمل ، والتفاصيل والجمل ، أي : لأنا على بصيرة بأصلها ، التي هي منه ، ومتحصلة عنه ، وعائدة اليه ،ومتفرعة عليه ،وتابعة له. فما هي غاية الاجتهاد إذن ، وما حاصله وقصارى ثمرته ، والمقصود منه ، بل روح مساعيه ؟

أو يقولوا : لاندري . فإبعاد عن قضايا العقول ، وسفسطة بلا مرية .

أو يفصلوا فيدور الخوض معهم أينما وصلوا .

والحمد لله الذي قد جعل هذه الأفهام والعقول،والاسماع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون ، وتعرفون وتنكرون ، وتميزون ماتأتون وتذرون ، وإلا لكنتم كهذه السوائم التي ترتع في البيداء . فأي فضل لكم عليها الا بزيادة هذه المزايا ؟

وليست ايضاً مقصودة لذواتها ، بل لما نَبَّهَ الله عليه في غير ماموضع ، وشهدت به الفطر ، وضرورات الاديان ، والله المستعان .

وهل يكلف الله سبحانه من لايفهم ولايدري بالجهة التي سألها منا ؟ .

وفي جماهير هذه المقلدة من اهل الذكاء والفطنة ،والسبق في مجال الادراك لأمور الدنيا – وان تفاوتوا – من لايحصى ، بحيث كانوا للمعالي أهـــلا، لو استعملوا هذه القوى فيما هيئت له، وضربوا بتلك السيوف القاطعة ،ولم تتسلط عليهم جنود الاوهام ، وفساد الفطر ، والخواطر الضائعة ، التي أصبحت في الحقيقة جنداً للعدو المبين ، سَوَّلت لهم بأنــكم قوم زَمْنَى لاحراك بــكم ، ولاتصلحون لأخذ الحكم من دليله .

وماعلموا ان ذلك من العدو المبين ،من جملة مايحشد عليهم من جيشه المكين وينفث فيهم من دائه الدفين ، حتى حرم القوم فضلَ رب العالمين ، وضرهم في دينهم . فلينظروا ان كانوا للظـّنّ بالناصح محسنين .

ولـَسْنَا نعني بهذا: أبْلَهَ لايدري شيئاً ،بل نعني من يرى ويسمع ممن عانا حرفةً من الحرف ، او صنعة من الصنائع، او َتبَرَّزاً في َفـَنٍ من الفنون ، حتى المعتنين بمذاهب أسلافهم ، والمتدربين في تخليص مسالكها ، والتنقيب عن دقائقها ، وكذا كل ساع فيما يهمه ، ويتعلق به من أمر دنيا أو دين ، على حسب ماعنده ، وكل الناس ساعون ، إلاّ من هو لقلته كالعدم . فتجده قد أدرك ماهو فيه ، وأتقن ماعاناه . وصرف همته الى تحصيله ، ومهر في جملته وتفصيله،وأدرك زواياه وخباياه. فمابال أمر الدين عندهم لايكون بهذه المثابة؟

فإذا كان كلُّ ساعياً، بصيراً بآداب إدراكِ مطلوبه . ومقدمات حصوله، مدركا لما توجه له ، حسبما قدر له،وهَيَّأ له ربه القادر ،.مالا يدخل في وسعه ابتداءً ، بل بعد السعي . فلشأن الدين ممكن الحصول ، متأتّى الوصول .

ولماذا أدرك الناس فنون مساعيهم ومطالبهم ، ومقاصدهم التي قد وطنوا نفوسهم على العناية بشأنها ، والاحتيال لإدراكها ،وجرت سنتهم في أنه لايجوز إهمالها ، وترك الإحاطة بكنهها،دون مايقتضى الوضع الحكمى العلمي ضرورة بتيسره وادراكه ،لتقدمه في الحاجيات ؟ بل الضروريات اللازمة ، وهو علم

الكتاب والسنة والفهم عنها . فصار عندهم خطبا متعسراً ، بل على مازعم هؤلاء متعذراً . وما الامر بهذه الصفة ،بل انمـــا هو والله الغفلة والإهمال ، وعدم العناية والاشتغال . وتسلط العدو على الخاطر والبال ، وقد نال بغيته منهم بلا ريب ولا إشكال ، صَيَّره عندهم من قسم الممتنع المحال .

ونحن وكل ناصح لنفسه لانعلم معنى لقولنا : مجتهد عالم بأحكام الله: زائدا على كونه بحيث يتميز أمرَ دينه الذي تعبده الله به .وماهو مبلغ علمه بخطاب الله الذى وجهه الله إليه والى كل انسان .

وسِرُّ المسألة وحاصلها : أنه لاواسطة بين العلم والجهل.فالكون على بصيرة هو العلم ، وضدُّهُ : ضدُّهُ .

فما اختاره القائلون بتعذر الاجتهاد ، فقد صرحوا بما ملخصه : إن قالوا: نحن على علم وبصيرة .فليأتوا بمعنى يحصله الاجتهاد،بل الضرورات ،والنبوة سوى ذلك ، وان تفاوتت المراتب .

والمراد تصحيح كون المرء في سعيه على هدًى ورشْدٍ .

وان قالوا : لا . فمن يرضى لنفسه ببطالة وفقــد وعُدْم ؟ خصوصاً من اعتزى الى شرعة الإسلام، وانتمى الى أوضاع الرسل الكرام ، والملة التي هي النور اللامع ، والبرهان القاطع ، ليلها كنهارها ، وتعطارها كمدارها .

كيف جاز في سلامة الطبع وصحة الذوق ، ان يعمد إليها أحد ، فيقول: لايمتطى صهوة الاستناد الى حججها البينــة ، ومصابيح براهينها المنيرة ، إلا مثل الشافعي وأبي حنيفة ، وأما سائر الأمة : فهي عليهم حرام ؟ أنسيتم قوله تعالى (هذا بيانٌ للناس) وتركتم قوله صلى الله عليه وسلم « تركتكم على مثل البيضا » لايعدوها خفاء ولاالتباس ؟.

أما تغتبطون بما لله ورسوله عليكم من منة ، حيث ترك لـكم ماتهتدون به في حنادس الظلم ،وتقطعون به من رام نزاعكم من الأمم ؟ و«رب مبلّغ أوعى

من سامع ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه » وماقصر الله الامر بتدبر كتابه والفهم عنه على سلفك دونك . ولارخص لك وعزم عليهم ، ولافصلك عنهم في أي بابٍ يُدانُ به تعالى ، ويأتي الأمر منه على عباده فيه ، وتعبدهم به علمياً أو عملياً ، بل أنت ممن تعلق به الامر والنهي والنداء والحث ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، ونيل الدرجات ، واقتناء المزايا المحمودة ، والخطط الرشيدة ، التي سبيلها العقل عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ الحكم من برهانه ودليله . فربك ماحط عنك ذلك ، ولا جعل الخطاب بالمهمات الدينية منه ومن رسوله ﷺ مخصوصا ببعض الأزمان ضرورة ، أوجعل العقل لكلامه ومعرفة حجته وهدايته في جليل أو دقيق محجوراً عمن هم في هذه الازمنة وقبلها ضرورة أيضاً .

إذاً يؤول الامر الى اضاعةٍ محضةٍ ، لفقد مالابد منه ، بل أهمه وأقومه ، إذْ لاسبيل الى جواز مالا يعرف قط ، لاشرعاً ولا عقلاً .

فأمرك الآن في هذا المقام والاعتبار : كمن درج في غابر الأزمان في أصل الوضع الشرعي ، الذي لبُّهُ : الشرائع الفرقانية ، وحصول الاهتداء بتلك الاوضاع السنية . ولماذا زُفَّ إليك « فأداها كما سمعها » « تستمعون ويسمع منكم » و « ليبلغ الشاهد الغائب » بعد قوله جل ذكره (٥٩ : ٢ فاعتبروا) (٣٨ : ٢٩ ليدبروا آياته) (٥٤ :١٥ فهل من مدكر؟) وضروبه المتكثرة.

أشيء من هذا قد جرى فيه النسخ ، أو تغير الحكم ؟

على أن القائل بالتقليد ، والمدافع عنه ؛ تجد منه التصميم على أنه في كل ذلك مستند الى الكتاب والسنة ، فلا يخلو : إما ان يقيم برهانا على هذا فهو أخذ الحكم من دليله ، وتلك خاصية الاجتهاد وروحه ، أو لا ، فمجاوزة للحدود عقلا ونقلا ، وسلوك لمحال ، إما لايفارق التناقض ، او يؤول الى البطلان الذي لايستكن .

وبالجملة : فوضع الدين ومقاصده ، ومحال تعلقه بمحالها الذي كان : فأنت ومن

مضى ومن بقى : جهة واحدة .أتراك معذورا عن الصلاة والصيام والحج إلى بيت الله الحرام ، وسائر الاعتقادات الدينية والأحكام ؟ فلماذا قلت : أخذ الحكم من دليله يختص به الامام ، وهو له دون سائر الانام ؟

قابلت نعمة الله بضد الشكر عليها .

وضابط الباب : أن أمر الله بتدبر كتابه ومعرفة أحكامه وفقه شرائعه :لم يخص الله تعالى به أحداً دون احد ، ولا من تقدم دون من تأخر وابتعد ، والكل يوافقنا في مثل الصلاة والصيام وغيرهما من الاحـــكام التي تعبـد الله بها الانام .

فلماذا خرج هذا الفرد الذي هو أرسخهن في التكليف قَدَما ، وأمسُّهُنَّ به ذمة ورَحِما ؟ لانه قاعدة بنيانه الرفيع من الجملة ، فكيف امتنع على عباد الله في هذه الازمان أخذ الحكم من دليله ؟ وهـذا شيء من أبين البينات ، لايتأتى القول بالتعذر إلا مع الجزم القاطع بأن الله لم يكلف بأخذ الاحـكام من الكتاب والسنة أصلا او بأن التكليف الآن جملة مرتفع ، وإلا فالتفريق بين المؤتلف قول رديء مختلف ، إلا بمخصص او مقيد ،يأتي من الله ورسوله .

وأما تحكم الاهواء : فلا يصغى إليه من يعقل قط ، بل الوجـه — لو قلنا بارتفاع التكليف — : ان يكون العلمي منه مستثنى ، غير جار مجرى ماعداه لمكانه من الرسوخ في لزوم استدامته وبقائه ، وان له في الحكمة مايقضى له بذلك اكبر مما عداه من رفقائه ، كما لايخفى .

والقصد : ان الله جعل الكتاب والسنة أمراً خالداً على مرّ الازمان ، ليتعلم الجاهل ويسترشد الضال ، ويأمن الخائف ، ويتذكر المتذكر ، ويعتبر المعتبر ، ويستمد المؤمن ، ويهتدى الحيران ، وليقضى بين الناس بما هنالك ، وليكون ملاذا عند الاختلاف ، وبيانا عند اللبس ، ورسما متبعا في الاعتقاد والتعبد والإفتاء ، والحكم والتحكيم ،والتحليل والتحريم ،والابحاث وغيره من احكام العليم الحكيم .ومستنداً يرجع إليه الامر كله في التأخير والتقديم.

فتعطيله عن هذه الثمرة ، او منع المجتنى لها ، وهو المقصود بها : مناقضة ظاهرة وعناد أوفى ، ومضادة جلية .

والمحروم الذي اضاف المنع ايضاً لمن سواه يقول : مالي في هذه الحياض من مشرب ، هي للامام يروى منها ، ويخبر عما وجد ، ولا سبيل لغيره اليها ، بل يكون في ايدينا الاوصاف بأن في ذلك الحوض كذا ، وصفته كذا ، وفائدته كذا .

فإذا جاءهم من يقول : بعض هذه الحياض لم يبلغه الإمام، ولا ادعى لنفسه الإحاطة ، او بلغه ، ولكنني وجدت نعته او فائدته غير ماذكر لكم ، بعد ان باشرت بنفسي مذاقه . فما تقولون ؟ وليس لكم على دفعي حجة ، ولا الى مصادرتي سبيل ، الا دعوى مالها مستند . اللهم الا اذا باشرتم ، كما باشرت فاضطررتم الى اكذابي . فذاك ماأمرتم به . ويصح منكم – والحال هذه – المدافعة والممانعة ، واما مكاذبة في شيء قد أعربتم عن أنفسكم أنكم ماتبوأتم له منزلا ، ولا جسستم له عرقاً ولامفصلا : فغريب منكم التوثب على حماه ، والسّاقى يقول : هلموا ، فليس الخبر كالعيان ، ولم يحط الإمام بما لدينا خُبرا وربما يخطىء الخبر ويخالف إذ مبناه على مبلغ صاحبه علما وفهما .
ومن علم حال البشر اضطر الى الحكم بعدم براءتهم من قصور الفهم ونقصان العلم في حالات كثيرة . كما يأتي بيانه ان شاء الله تعالى .

إذ ليس في وسعهم إفراد الاتيان على نهاية مابه التكليف من الشرعيات قضية ضرورية . ومابه قوام الأوَد وصلاح الخاصة : هو كالغذاء الذي لاتكتفي فيه بغيرك .

فكما ان العمل لابد ان تأخذ منهماينوبك ويتعلق بذمتك . كذلك التعلم لتبنيه عليه ، لانه شرطه وعلته ، ومابه يتحصل ويقوم اعتدادا واعتباراً ، فانه لابد من تأدية العمل على الوضع المعتبر تعلقا و كيفية ، حتى يمتاز عماسواه إذ ليس بمجرد وجود معنى الاسم كافيا ، ولان التكليف علم وعمل . فكيف يلزم

المباشرة لاحد جهتيه دون الاخرى ؟ كالإلزام ببناء على الهواء : يكون لامحالة ساقطا . كذلك بناء المقلد عبادته على التقليد يكون فيها كَلاً.
وأما رفع هذا : فيؤدى الى الكون لاعلى شيء ، أو على شيء غير معروف الإسناد ، وهو ضلال ، وهل ضلّ من ضل إلا بعدم العلم والوقوف في حدود دلالته واشارته ؟

ومن راعى سبيل النجاة كيف تحقق سعيه (٢٩ : ٦٩ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .
أم كيف يقول — ان كان صادقا — قد علمها غيري ؟

وهذه الصنائع والحرف التي بها صلاح المعاش ، ويسرى النفع بها إلي النفع في المعاد ، مع شرطه — لايستغنى فيها زيد بحذق عمرو واتقانه ، بل لابد لكل احد ان لايرى الاجتزاء بالغير ، بل يأخذ في السعي بنفسه ، حتى يكون الإدراك ، ولهذا قامت هذه الابواب كما يريدون ، وجدوا في طلبها وتملكها وتذليلها للأفعال حتى أطاعت واقتادوها بنواصيها ، وأنزلوا مستعصيها من صياصيها ، مع ان فيها مايحير الأذكياء ، ويعيى الفطناء ، بحيث لوصرفوا بعض تلك العناية الى أمر الدين وتحصيل الركن العلمي منه بالنظر والاستدلال لقام كذلك ، واستنارت معالمه ولمعت قبابه وشخص بناؤه ، كما استقامت أبنية تلك الصنائع ، كشعائر المذاهب بالمعاناة والسعي ، وتوطين النفوس على امكانها وتيسيرها ، وان لابد من تحصيلها وقيامها لعدم الاستغناء عندهم عنها ، ولمسيس الحاجة اليها .

فما بال هذا الباب الديني الذي يقوم بأقل من ذلك الكدح أو بمثله ، او بأشد من بعضه ، ان سلمناه لاختلاف مراتب الناس فيه : صار في حيز الممتنع المتعذر ، وهو في الدرجات الاولى من الضرورات ؟ والامر الموصل الى رضا الله ، والفوز بعقبى الدار ونعيم الآخرة ، وهو العلة الغائية للايجاد ، شأنه معروف ناله بحمد الله القاصر والماهر .

وقد فتح الله الباب ، وبسط مائدته للقاصدين والطلاب ، لعموم الحاجة وعموم النفع،وعدم الاستغناء من متقدم ومتأخرعن مباشرة مذاقه علىالوجه المأمور ليتحقق الانتفاع والسلامة في ذلك الاستمتاع ،بل في أخرياتالزمان الحاجة أمس ، والاضطرار ألزم ، وقد وقعت فيه زيادة السهولة واقتراب المرام بحسب ذلك فضلا من الله ورحمة ، كما سنبرهن عليه ان شاء الله تعالى.

وحكمة العليم الحكيم في خلقه وأمره ودينه وشرعه: قاضية بإمكانالوقوع وحصوله ، ومنادية بطلب الإيقاع على الوجه الذي شرحناه .

فهل يحسن أو يسوغ في ميزان الحق ومشارع العلم:احالة ماناط بهالصلاحَ وحصول كل مرام ، ذو العزة والجلال والإكرام ، والحكمة البالغة والرحمة الواسعة ، المنعوت باللطيف الخبير القريب السميع المجيب الرؤوف الرحيم ، وبكل اسم جليل ونعت جميل ؟ وربط به الفوز والسعادة والسلامة والنجاة لكل الناس في جميع الأزمان ، وهو من الضروريات وضعا وعادة ، وقد أمر به وحث عليه حثاً عاما للأولين والآخرين في جميع الأزمان ، حتى منقطع دار هذا التكليف ، وربط به تحصيل الاجور ، والفوز بمعالي الامور، واتقاء كل محذور .

أفيجوز ان يعاند ذا الملك في مراده ، او يمنع عبده فضله هذا المرتبط بإيجاده ولقد عرّف تعالى عباده مافي الاقبال عليه ، والاعتصام به منأنواع المسرات . واستدفاع المضار دائما أبدا يقينا ضرورة .

فتخصيصه ببعض الازمان استدراك ، وتحريف لقاعدة الشريعة المستمرة، وهو أمر ضروري البطلان . فقد يسره ربنا وأدناه (ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدّكر ؟) ومنه مادل عليه تركيب « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة » .

ولله في تيسير أمره وتقريبه سر بديع : هو انه لما كان الكل مضطراًاليه. وقد حث تعالى جميع بني آدم عليه ودعا كلالناس الى الاهتداء به.فكانمن تمام ذلك عدم الامتناع والتوعير ، وانتفاء الحرج والتعسير ، حتى نسخ تلك

المشارع الفاضل والمفضول، كما في سائر الاعمال التي هي سبيل مرضاته : من جهاد وصيام وقيام ، وانفاق وغيرها ،وباب العلم وطلبه وتحصيله شعبة منها فما باله امتنع دونها . والكل — مع كونه أخصها واولاهـــا — من وادي القرب ، والتطوع له تعالى ، والتوصل الى أعلى جناته . ونيل جزيل ثوابه ، والسلامة من أليم عقابه ، وكلها مشتركة في الدعاء والحث والترغيب والوعد بجزيل الثواب ، من دون تخصيص ولا تعسير ولا تنفير ولا تثريب ؟.

بل النظر الصحيح ،والوضع الحِكَمْي قاض قضاء حقاً لامرد له :ان يكون باب العلم أسهلها حجابا ، وأقربها منالاً ، لمكان الضرورة اليه ، وتقدمه على ماسواه ، واشتراك أهل التكليف وذوي الخطاب في التعلق بـه ، لزوما في الذمم والاعناق بلا ريب .

فالمخصص المعسر المنفر : مضادٌ للوضع الإلهي ، وناقض بناء الشريعة .وكم من قائل مقالاً في حكم لله لشبه صوري، دون تحقيق الباعث على الحكم الملحق به . ففتح على غيره ، ومابلغ شأوه في غير تلك الحادثة لغفلة عنها لاعن قلة فطنة ، وأصبحت نفسه بنيله مطمئنة .وقد جُرب هذا وتكرر و كثروقوعه حتى شهدت كثرة وقوعه بأنه لايمتنع على المفضول في كثير طيب غاية ٌ خير من غاية مَنْ فَضَلَه في محال متعددة .

واما انتم معشر المغرمين بالمذاهب الراضين بقيود التقليد في اعناقكم وقلوبكم: فقد جعلتم تلك المتون والمختصرات اظهر عبارة ، واوضح معنى وإشــارة ، واصح مسلكا وابين مدركا ، لما انها — بزعمكم — خلاصة تلك المحاسن .

وكيف يكون ذلك كذلك؟وفيها من التباين والتدافع والاختلاف ،وخفاء السند والدليل او ضعفه ،او مصادمة المأثور الصحيح: مالايخفى على ذي بصيرة ، صالح السريرة قدمارس الحقائق وسبرَ الطرائق ،ورضي بالله رباومشرعاحكيما

عن جميع الخلائق ، وحظى بالتمييز بين الخطأ والصواب ، وبالانتفاع بماوهبه الله من عقل وفهم حاذق .

وماشتبه على الناظر من الأدلة نفسها ، أو ظهر عنده تعارض : فالقطع عنده بأن مفيضها هو محل القدس والبراءة من كل نقص . فإن علم كيفية العمل في ذلك بتعليم المفيض سبحانه ، وإلا وقف لقصوره في نفسه ،لالتطرق أمر في المصدر المذكور ، بخلاف غيره ، فأمره ماذكرنا .

والغافل يقول بجمود خاطره: كل ذلك المختلف فيه بين المختلفين ،أوبعضه: رشد ، لابل الرشد منه ماسلكه سلفي ، واتبعتهم فيه .

وقد يكون أيضاً كاذباً عليهم ، أومفتريا عليهم بذلك مالايرضونه له ،لجهله ماصدر عنهم ، كاجهل الادلة،وقد صح لناكلُّ ماذكرنا وتواتر وروده علينا حتى استيقناه ضرورة ، ودان به كل من على وجه الارض ،إلاالقلةالنادرة.

ومتى جعل الله في دينه : شرعة أن يقف عباده على رسوم جماعة منهم ؟ خصوصاً إذا قصرت الطريق إليه في تلك الرسوم،وخصوصاً أيضاً : إذابولغ في التصميم على مكاذبة من لم يقْفُ ماليس له به علم ؟!.

ظلمات بعضها فوق بعض ، لان الراسم يجهل ويخطىء ، ولابينة على كونه مَفاض الديانات ، حتى لانبالى بعروض مايقال فيه هذا كـ « أن قطع له قطعة من نار » فهو حربى ملغّى ، لانه – كما مر – فرق من وراء الجمع بل نجزم قطعا بأنه لايصح من الله ذلك أبداً ، لانه يتضمن من العنت وتفويت مطالب العقلاء والمكلفين مالاينتهى قدره ، إذ المحل غيرصالح لذلك ،لعجزه عن القيام بتلك الاعباء ، بسبب سِمَةِ النقص والقصور اللازمة ، المانعة لربط هذا الامر العظيم بمحلها ، كما شهد بذلك الاطلاع والعلم بحقيقة الحال ،وبيان مظاهرها مما لايطاق إحصاؤه . والحِسُّ كاف .

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الاذْهَانِ شَيْءٌ ... إذَا احْتَاجَ النَّهَارُ الى دَلِيلِ

وبابَ الدعوى المجردة عن شهادة الحِسّ وَالوُجْدَانِ ، أو الحجة والبرهان قد أغلقناه ، وَمَن لم يُحِسّ أو لم يجد. فَمَيِّتٌ ، أو ابْلَهُ او مُتفارط الغفلة ، والقدر المستطاع له : هو التيقظ والتفكر . والكلام معه — ان شاء الله تعالى — بعد ذلك .

وشرح تحقيق هذا الموضع : ان كل امامٍ مجتهد يعلم ويجهل ، ويصيب ويخطىء ، ويوجد في كلامه الاختلال ، والقصور والضعف ، والوهم الظاهر ، والفهم الفاسد ، يُوقِنُ بذلك مَنْ تَصَفَّحَ وَتَلَمَّحَ ، واشرف على كتب المقالات والخلافيات ، والمذاهب المتفرقة ، والمسائل النظرية ، واطَّلَعَ على مآخذ أربابها ، وحجج مُنْتَحِلِيهَا ، ولا يَرتابُ في شيءٍ مما ذكرنا بَتَّةً . لأنه في غاية الظهور ، يعرض مظهره في عامة المباحث ويدور ، بحيث يجد الواقف على ذلك من نفسه ضرورةً تدفعه الى الحكم بضعف بعض ، وأرجحية آخر وبطلان ثالث ، وغلط قائله .

ولعلك تقول أيها السامع : مقتضى ماعليه مقلدة الاسلاف : الدفع لما ذكرت في شرح وتحقيق هذا الموضع .

فأنا أقول : كلهم يوافقني على حاصله في حق مخالفه. إذْ مِنَ المعلوم : أنّ أعيان الفِرَق لاأقَلّ من انْ يرَوْا لأنفسهم رجحاناً ، إذا لم يتناولوا غيرهم.

وبيان ذلك : أنّ الجميع ليسوا على نِحْلَةٍ واحدةٍ ، ومذهبٍ فردٍ ، ومع الاختلاف — سِيَّمَا إذا كان في شيء من العقائد والاصول — تَرَى كُلَّ فريق جازماً بإصابة رأيه وحسن طريقته ، ومخالفه معه على أحوال كالرمى بانحطاطٍ عنه ، ان فرض الواقف عليه من المختلفين ، وهو أعدلهم — ان وجد — او ببدعة او ضلال او كفر . نسأل الله العافية من القول المحال .

وتراهم يتجاذبون « كلها هالكة إلا فرقة » ويزعم كل انه المستثنَى .

فعرفت الآن بلا ريبة : ان هؤلاء الاتباع الغلاة قائلون : بأن العالم يخطىء ويجهل ويَزِلّ ؛ وان كانوا لايقولونه الا في حق من خالفهم خاصة ، لا على

النحو الذي نقوله نحن،ولكنهم ماسقط عندهم مخالفهم عن الاعتبار، إلا بسبب زَلَـقهِ عن الثبوت ، وانحداره عن معقل التماسك ، ولايكون هذا الا وهو جائز عليه ، والا فهو كان قبل وقوع ذلك منظوراً لابهذه الحدَقة .

فتَدَبَّرْ . حتى تعرف اتفاق الجملة على الجملة،وإنك قَلَّ انْ تجد مَرضِيّاً عند قوم إلاّ وقد أباه آخرون ، وهذا منهم لَسْنَا نُسَاعد أيَّهُمْ فيه ،على الوجه الذي عندهم ،اذ الكل عندنا قد أفرط وفرط ، وَماقتصد ولاتوسط وهو الآن في مقام النظر (وَكُلُّ صَغِيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ)

وانما المراد : تعريفك : أنّ القول ببراءة الاسلاف من وَصْمَةِ النَّقْصِ والاختلاف : أمرٌ قد نفاه جميع العاملين بمقتضاه ، لكن على وجهٍ غير مرضى عند الله ، اذْ علماء الامة ، وسُبَّاق الأئمة ، الواقفون على اشَارَةِ التَّدَبُّرِ ، والوازع الاستقامي حسب الإمكان:هم عندنا لابمنزلة مَنْ غلافيهم حتى جاوز القدر الذي أمر الله ، ورضوا به ، وحرَّمُوا تعديه ، ولا بمنزلة من جفاهم . حتى أهمل ماوجب عليه في حقهم، فخذ منهم واعطهم،واقبل منهم ورد عليهم ، واعرف وانكر ، وارض وامتنع ، ولِنْ وشَدِّدْ ، واستحسن وحَذِّرْ .

وعلى الجملة : عامل الجهة الخيرية بحقها ، والمنتقدة بمقتضاها ، فإنّ الميل الى الاولى فقط : غُلُوٌّ مذموم ، والى الثانية حسبُ:جفاءمَلُوم .

ولايمكن الحكم على احد من أهل العلم ، ولا على آحادٍ منهم اتفقوا بالبراءة في كل مذهبٍ ، وقولٍ جليلٍ ودقيقٍ : من الخطأ والوهم ، وفساد الفهم ، وقصور العلم وسائر ماقدمناه ، ويجريه على سنن الاستقامة والصحة ،ولايأبى هذا الا مكابر في المحسوسات ، والتجارب والمشاهدات . فلا نناظره ، مع أنه — وانْ بَرَّأ امامه — فقد حَمَّل غيره ضدها ، وتَابِعُ الآخر يقابله ، كما سلف ذكره ، وكله قبيح ، كما عرفت ، اذْ ليس صادراً الا عن محض تحكم وهوى بلاانصاف ولاعلم وانما أردنابذكره الكشف للمسترشد، وإفحام المتعنت .

واذا اتقنت مامَرَّ : أفدناك ذيلا من ذيوله ، وهو :ان كل مابأيدي الناس من أقوال آحاد العلماء ، ومذاهب أفراد الفقهاء : ففيه حق وباطل ، وخطأ وصواب ، لما قررناه عندك ، من قبول المحل لذلك . وما هذا شأنه : كيف يتأهَّل للنجاة متبعه ؟فضلا عن ان يدافع به ويجادل،ويماري دونه ويناضل، ويكاذب به من خالفه ؟

وعامة مابأيدي الناس من الاقوال والمذاهب في علمي وعملي ، ماعــدا الضروريات الدينية ، التي ابتنى الالتفات الى هذه الملة الغراء على ادراكها، عند العام والخاص ، الا من لايصلح ان يعــد . فكلامنا ليس فيها . وانما هو فيما عداها . فهو مما لايصح دعوى الاتفاق عليه من كل علماء الامة في عصر، أو مطلقاً وفي شخص منــــه ، وان اختَص الباحثون عن شيء مثلا بالجزم بصحته . حتى يكون في معنى : أن من بحث فلابد أن ترتبط غايته بغايتهم ان سُلِّم على مافيه . فذاك شيء غير الإجماع .

وتصحيح الإجماع على الوجه الذي يلزم عنده العمل به ، وتحرم المخالفة ، بحيث ينقطع المنازع عن إبداء أى خادشٍ معتبر أصــلا : في حيز الممتنع ، وأقرب خادش :مايجده الفطن من نفسه ، حيث لاتذعن للجزم بوقوع الإجماع وتأتى الجزم بصحة النقل عن كل فردٍ من أهله ، ولازال الخلاف فاشيــا في مسألة الإجماع قديماً وحديثاً في وقوعه ، فإمكان نقله عن كل فردٍ من أهله، فصحة ذلك النقل ، فحجيته .

وعليها : فمن المعتبر فيه ، وكون الحجية مقصورة على إجماع الصحابة فقط، أولا حجة إلا إجماع جميع الأمة حتى انقراضها،كما هو مقتضى لفظ«المؤمنين» و«الامة» اذ ارادة الجنس هنا منافية لقصد المحتج بالإجماع،وهذا الاخير يجعله خصيصة فقط لا دليلا .

وهل الإجماع حجة قطعية ، أم ظنية ؟ وكل فصل من هذه ففيه الخلاف، حتى بين معتبرى الإجماع في الجملة .

ومن أمعن في هذا الموضع من كتب أصول الفقه :تيقن وقطع :انالإجماع المتداول في الاحتجاج ، إنما هو بناء على اختيار المستدل به فقط . وما هذا حاله : فغايته كسائر آراء النظار ، واختياراتهم في أفراد المسائل : موقوف على النظر ، واختيار المتشوف للحقيقــة ، وتنقير الباحث . وحاصله : قولٌ من جملة أقوال ، ونظر هو عرضة للثبات والزوال ، لا كما يتوهمه القاصرون حين تدهمهم داهمة دعوى الإجماع،التي طال مروج عهودها،وتخلُّف وعودها ، خالوا ذلك جبلا راسياً ،ونـَازِلـَةً لاتدفع،وخَـطْباً لايقبل شفاعة الشافعين وحجة تسدُّ أفواه المانعين ، متى سمع أحدهم : هذا إجماع ، أولاخلاف فيه، أو ما سُمع عن احد من العلماء بخلاف هذا ، اولا يقول بـه قائل – ظن :ان كل من عليها قد دان بذلك ، لجهله بأصل الواقعة ومبناها ، وأنهـا كسائر المسائل المختلف فيها ، بل في بعض مايشرح فيه الخلاف : ماهو أصح معتمداً وأوضح مستنداً ، من كثير مما ادُّعى فيه الإجماع . فالأمر أيْسَرُ من ان يكون بهذا القدر، وأخَفُّ مما توهموه من هذا الخطر . فلا يكاد يحصلعندك شيءٌ من هذا لو عَقَلْتَ .

إن قيل : هذه مسألة خلافية . هانلديك الخطب دون:مجمع عليها ،فيعيل صبرك عند الضرب بهذه العصا ، مع قوة الحجة في الاولى ، ووضوح برهانها. وظهور ان لانسبة بينها .

وقد اودعت في « مدارج العبور » هذا البحث مشروحا مفصلا بما لايبقى به عند ناظره مبالاة بهذا الإرجاف .

وقد تقدم هنا أيضاً شيء منه . وأوجب التكرير :عروض ذكر شيءمن الجانب المقابل . فلا تبتئس ، او تعرج على ماحصل عند جمهور المتأخرين في مسألة الإجماع.حتى كثر توكُّؤهمعليه وتَورُّكهم على حكايته ،حيث ثقفوها

من دون اعتبار مالابد منه . حسبما يهدي إليه البحث والتنقيب .فقدوجدنا مالايتيسر حصره من اجماع يُدّعَى ، ويتعقب بذكر الخلاف ، كما تراه في غير ماموضع من شروح الحديث والكتب الحوافل .

فقد تحصّل لك ان الموجود بأيدي الامة –غير الضرورات الدينية،حقيقة لاتوهّماً – من الأقوال والمذاهب ، والعقائد والنحل في ابواب الديانات :انما هو مذاهب آحاد منهم . يجوز فيها ماأشرنا اليه سابقاً من شعوب الاختلال.

وطريقة البحث والانتقاد آمنة من جميع تلك المخاوف . فأين كونك على أقوال شأنُها ماشرحناه ، وحقيقة امرها ماأوضحناه ؟.

وأين هي من موائد الكتاب والسنة ؟التي مذاقها يبرىء العاهات،ويقدس من السفاهات ، ويعرفك قدر ماحُرمت منه هذه الجماعات ، وسوء ماوقعوا فيه من فساد الاحوال ، بسبب هجرانهم المباشرة لما هنالك ، وماضمن من الدلالات والإشارات ، وصنوف التأديب والتهذيب والتثقيف والإفادات.

فذاك – بعد استظهار الكون عليه ، وتصحيح الطريق اليه وتنقيحه دراية ورواية – هو الباب الذي ان ولجته للاعتصام به من المخاوف نجوت ، وان سلكته : كنت على هدى وبصيرة من أمرك،وان أردت ان تستمد منه حجة تأثرها، أوطريقة تَعْبُرها،او برهانا تقيمه ،او هدىً تلتمسه ،او تصحيحا لاعتقاد او عمل ، او دليلا قاهرا لخصمك ، هاديا لمسترشدك : وجدته صالحا لجميع ذلك . قائماً بأعباء هذه المدارك ، ولايعرف ذوو الألباب ، ومن رزق صلابة في دينه مايستأهل القيام بهذه الأثقال ، سوى ذلك الباب ، لاالرد الى شرح المنهج وماذكروه معه وأشباهها من كتب المقلدين .

ولو كان البناء دائماً على ماأشرنا من ذلك الاساس،لكانت ثمرات الكتاب والسنة يستمتع باقتطافها عامة الناس،ولما عَفَتْ رسوم الهدى،واندرست معالم الاهتداء ، ولكان أمرهما مشهوراً مذكوراً ،مأنوساً منشوراً ، متداولا بين

الناس ، حتى تـُزاحمُ الأصاغر الا كابر ، وينـال القاصِر حظه من مواهب الله ، وان لم يبلغ شأو الماهر .ولم يؤكد الحكم باستحالة التحلى بتلك الرغائب بؤسا لها من رزية .

ولايضر في هذا الموضع تفاوت معارف الناس في هذا الباب ، ومع ورود الجميع المنهل الروى متحد . والفاضل يحذو حذو المفضول من عين ذلك الماء المعين ، ويتعاورون ذلك فيما بينهم « تسمعون ، ويسمع منكم » « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

فالسماع والتبليغ : ليس الا لما سُمع وبُلـّغ عينه ، لاحكاية تبليغ المبلّغ من العلم فجعلها رسماً ثابتاً وحكما متبعاً ،ومثالاً يحتذى،وهو عرضة للنوائب فإنه ربما يقول بحل شيء ، عملا بالاصل ، ولم يبلغه الدليل الناقل . وغيره عرف الناقل فأخذ بـه ، وربما قال في مسألة بمقتضى عموم او اطلاق ، او ظهور غير مراد ، او مفهوم مُهْدَر ،او غير ذلك ، مما لايحصى تعداده ،ولا يشعر بمقابل ذلك كله ، وإنما تكليفه في نفسه بما علم.فأما ان تصير تلك المرتبة الحاصلة عنده حكما مقرراً ، ورسماً محرراً : فهذا فساد كبير بلا مراء .

وقد وافقنا فيما أشرنا إليه من هذا المشايخ الاعلام : كأبي محمد بن عبد السلام وغيره ، وسنوجدك ان شاء الله تعالى — في كتابنا هذا — نصوصهم في ذلك ، لا لأن قولهم هو الحجة دون برهانه البين ، بل لتعلم ان الزاعم على العلماء الجلة من مخالفينا مخطىء .

وبالجملة : فكاد التابعون للأسلاف ان يجعلوا متبوعيهم رسلا إليهم في الحكم لافي الاسم [1] ، والمدار على المعنى ، ذاهلين عما تقدموا إليهم به من

---

(1) بلى قد جعلوهم . فان الله يقول (٤ : ٦٤ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) والمقلدون قد قدموا طاعة شيوخهم على طاعة الله ورسوله ، بل قد جعلوهم اربابا من دون الله ، اذ قد شرعوا لهم من الحلال والحرام والواجب والمستحب ما =

التحذير عن ذلك ، بمثل « اذا صح الحديث فارموا مذهبي وراء الحائط » فقد بريء — الشافعي رحمه الله القائل لهذا — الى الله من الكون على مذهبه بعد صحة الحديث بخلافه .

فهذا بعينه الذي حذر منه : قد وقع فيه الاتباع ، وما أصغوا الى نصحه ولا الى نصح غيره ، لأنه رضى الله عنه يعلم أنه بعدُ يجهل ماغاب عنه ، وان ذلك جائز عليه لاممتنع ، كما يزعم الغلاة الموغلون في التعنت .

وأُثر عن الإمام أحمد رحمه الله « ماكنا نعرف العام من الخاص ، حتى علمّناه فلان » او عبارة قريب من هذه .

وعن الإمام مالك رحمه الله : أنه سئل — كما اشار اليه ابن الحاجب في مختصر المنتهى ، وبينه الإيجى عضد الدين في شرحه وغيرهما — عن أربعين مسألة . فقال في ست وثلاثين منها : «لاأدري» .

ومن هذا : مانقل أنه لما سألت الجدة أبا بكر الصديق رضي الله عنه عن ميراثها ؟ فلم يدر مايجيب ، حتى يسألَ الناس ، ولبث ابن عباس رضي الله عنهما برهة من دهره يفتي بجواز بيع الدرهم بالدرهمين يداً بيد ، ويقول : « إنما الربا في النسيئة — الحديث » فلما بلغه حديث « الفضة بالفضة مثلا بمثل يداً بيد » رجع وجعل يطوف في السوق ان لايعملوا على سالف فتواه .

وأخرج ابو داود « ان علياً رضي الله عنه : أحرق قوماارتدوا . فبلغ ذلك ابن عباس ، فقال : لو وليت ماولى لقتلتهم . لقوله صلى الله عليه وسلم: من بَدّل دينه فاقتلوه ،ولم أحرقهم ، لقوله صلى الله عليه وسلم: لايعذب بالنار إلا ربها . فبلغ ذلك علياً . فقال : ويح أم ابن عباس » .

قال الخطابي : في شرح السنن « ويح » هنا : كلمة إعجاب ورضا بقوله .

= لم يشرع الله ، فاتبعوهم في كل ذلك وجعلوه شرعا لازما ، معرضين بقلوبهم المريضة عما شرع الله . ولا حول ولا قوة الا بالله .

وكم أعد من هذا القبيل والقدر المستفاد من جميعه : الترجمة عنهم : أنهم علموا وجهلوا، كما وقع في قصة الطاعون اذ وقع بالشام ، وبها عمر رضي الله عنه، ومن معه من المسلمين . فاختلف رأيهم في القدوم عليه فلما حدثهم عبدالرحمن ابن عوف بحديث «اذا وقع الطاعون بأرض ولستم بها . فلا تدخلوها » أجمعوا على العمل به وترك النزاع .

أتراهم لو أصر احد منهم على رأيه : ماذا يناله من الإمام الذي تخشى بوادره؟ والسنن المأثورة عن كل مسلم سليم الفطرة عن مثل ما ابتلى بـه المقلدة هو ما أشرنا اليه في هذا القصص .

وماذاك شأنه : كيف يسوغ تأسيسه لبناء قائم حتى تقوم الساعة، واستمرار العمل عليه ، وهو لايصلح الا لسد عوز الحادثة ان علم وجهه ، ولم يعرف له مناف او اختلال ، والتعويل حينئذ على ماعلم من وجهه . وأما هو — قولا مجرداً — فلا حكم له .

فتيقظ : وأعط المقام حقه ، واعلم انك غدا مسؤل . فانظر ماذا تقول ؟ والسلام وماذكرناه انما هو مثال وتنبيه، والا فكتب الخلافيات : تحكى منه أضعافا، والحكَم : البحث والاختبار .

وأما المغرور فيقول : أئمتي قد نـَخَلوا هذه العلوم، وعرفوا ما بأيدي الناس، حتى يستبعد او يُحيل ان يشذ عنهم شيء .

لو قلت له : حفظت في المسألة الفلانية أثارة من علم عرفت بها صحتها على الوجه الفلاني ، ولم تجد احداً من الأئمة الذين اتبعتهم او غيرهم أيضاً قال به، ولعله قال به غيرهم ، وأجَوِّز أنا أنهم جهلوه ، او اخطؤا في تأويله ان كانوا علموه — لرآك : قد اتيت شيئاً نـُكـْرا .

فقل له : واي مانع مما ذكرتُ لك ، وان فرضت علمهم اياه : فما العذر في تركهم اياه؟ وعلى فرض ابداء عذر ، فهل هو معصوم عن ان ننتقده ؟ وأمام

فمحمول أمرهم على السلامة ، لكن مالم يكن لك ظاهر الصحة فليس مأذونا لك في اقتفائه.إذهو اتباعغير احسن القول،بحسب ماعلم الآن ،وأنت لاترضى من مخالفك بالأعذار الصحيحة ، فضلا عما ظهر لك ضعفه واختلاله وصحة الإيراد عليه . فما بال المؤلف لا يُنتقد عليه ولا يفتش عما قال ؟

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

ولم يدر القائل بتعذر الاجتهاد : أنه قد بدل نعمة الله كفرا ، ومعروف عوارفه نكرا . فإن فنون العلم وصنوف المعارف : من وسائل ومقاصد ، ومفصلات مهماتها والقواعد وافراد مسائلها والفوائد :قد أضحت اليوم دانية الجَنى مذللة بلاكبير مشقة ولاعناء ، وصار أمر الاجتهاد الآن أيسر مما كان عليه في سالف الأزمان .

الا ترى ماعني به السلف الصالح ، وتعبوا لك فيه ؟من جمع شتات العلوم، وتيسير المطالب ، وتأليف ما كان مبدداً في الامصار والنواحي المتباعدة والعصور الخالية على وجه التوزيع وتيسير كل منهم لما صرف همته إليه ، وانتدب لكل علم رجال أطالوا ، او من اطال منهم ، التطواف والترحال ، وساموا صعابه تذليلا وشوارده المتنذرة تنفيذا وتسهيلا، وقربوها أكمل تقريب ، ووضعوها احسن وضع ورتبوها احسن ترتيب ، ونوعوها على الأبواب والفصول ، وحروف المعجم لتكون أدنى الى الحصول ، وماشئت من اسباب الظفر بالمطلوب والوصول.واذا الكل منها ببابك منيخ ،ولدعائك مصيخ.وماذاك السعي كله إلا للتيسير لاللتعسير،وللسهولة والتمكين لاللتوعير، فضلا من الله ونعمة ، ولطفا بعباده ورحمة .

فالحكم بتعذر الاجتهاد الآن : كفر للنعمة ، ومضادة لما صنعه الله لك بمساعيهم الجمة .

فإنه ان أهمَّك حال ، او دهمك إشكال ، او افتقرت الى تحصيل فائدة ، او اقتناص شاردة ، او علم بمسألة ،او اي بغية تتشوف الى نيلها ،بل وفوق مايخطر في البال ، او يمر على خيال — وجدت كل ذلك : قد اخذ الصورة

المجموعة منهم بنواصيه ، ودُفع إليك طائعاً،لايخالف أميره ولايعصيه،سواء كان في إعراب كلمة ، او تصحيح حرف ، او مفاد تركيب ، او شرح لفظ غريب ، او مقدمـــة لتقرير أصل ، يعصم عن عقيدة مضلة ، أو يخبر عن كيفية العمل في ألفاظ الادلة ،أو كشف عن معنى آية قرآنية او خبر نبوي او تقرير امره سنداً ومتنا ، او تنقيح اي حكم شرعي ، حتى يكون بذلك متمكنا من الانقياد ، متيسراً لك يبين الصحيح من ذى الفساد . وهل سوى ذلك معنى يحصله الاجتهاد ؟.

بل هل السلف الصالح كان لهم العمل بهذه المثابة في الإسعاف والإسعاد ، وعدم ما كان فيه من تعزز وابتعاد ؟

أفـترَى أيها الناظر الموفق انه اكتسى العلم بهذا التقريب بعدا ، وبالتيسير ندّاً ، وبالإيضاح خفاء ، وبالتسهيل وعورا ، وبالتأليف شتاتا ، وبالتبيين إجمالاً ، وبالتذليل تعصيا ، وبالتليين شدة؟

وهل ترى بصنيعهم هذا — رضي الله عنهم — اعتاض طالب العلم بالإقامة سفرا ، وبالنوم سهرا ، وبالأوطان غربـة ، وبالمعارف مجاهيل ، وبالاهلين أجانب ، وبالأصحاب أباعد ، وبالنيل حرمانا . وبالإدراك فواتا ، وباليسر عسرا ، وبالمعرفة نكرا ، وبالعلم جهلا ، وبالتحصيل تعطيلا . ام كان الامر بفضل الله ورحمته بالعكس في جميع ذلك . وأنه ازداد العـلم الشريف قربا وسهولة ووضوحا ، وتبينا ولينا وطواعية ؟

فبؤسا لجاهل هذه النعمة،الذي قابل إحسانها بالكفران ، وربحها بالخسران ونيلها بالحرمان ، ووصلها بالقطيعة ، ويمنها ورفقها بجفوة شنيعة . فقـال : مالي وللعلوم ،وقد انسد بابها وانغلق، وللاجتهاد،وقد ذهب لحاجته وانطلق وتمنع على طلابه،وتجنـّى بتعذره واحتجابه،ولم يحظ به الاسلف الامة وسُبَّاقها.

ولاندري لماذا خص أُولئك بهـــذة الخصيصة ؟ أَلِكون أحدهم يسافر للحديث الواحد شهراً ، ويتبـع الاعراب سهلا ووعرا ، ويأتيها في نواديها،

وينتقل في بواديها ، وتقف أنت بعد دهر طويل على ماتدركه بتقريبه لك في زمن قليل . قد كفاك مؤنة اقتعاد غارب الاغتراب ،وأراحك من وعثاء السفر والذهاب والإياب ، حتى رَكَدَتْ بعقوتك الحقيقة والمجاز ، ونزل بفنائك التميميون وأهل الحجاز ، ومن حفاظ مصر والشام والعراق وعلماء المشرق والمغرب ، وسائر الآفاق ،وجمعهم مقامك ، على ما كان منهم من التنائى والافتراق . فعرفت ماعند الجماهير من الجماهير ،وأحطت بما لايحصى من معارف المشاهير ، وألْقَوْا مقاليد تحقيقاتهم إليك ، وجملة ماحصلوا عليه مفصلا لديك ،وما اختُصُّوا دوننا بالافهام ، ولاحرمنا –بفضل الله– حسن الخطاب ونقد الكلام . ولا غَرْوَ أنْ نعلم ماجَهل أو نجهل ماعلم أولئك الاعلام ، وقد جعل الله هممهم العوالى ، وعنايتهم في تلك القرون الخوالي ، في نفعنا ساعية ،ولمصالحنا راعية ، ولتكميلنا داعية .فازددنابذلك الى مالدينا ، ونمى الخير واستفاض علينا .

ولقد ذكر الإمام الشهير، والحافظ النحرير، ابو عبد الله البخاري –رحمه الله – في جامعه الصحيح ، مايناسب هذا المقام، وهو فيه بَيِّنٌ صريح .

فقال في كتاب العلم ، من أوائل جامعه :

أخبرنا محمد–هو ابن سَلام حدثنا المحاربي حدثنا صالح بن حيان قال :قال عامر الشعبي : حدثني ابو بردة بن أبي موسى الاشعري عن ابيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لهم أجران – فذكر الحديث » .

وفي آخره قال عامر : « أعطيناكها بغير شيء ، وقد كان يُركَب فيما دونها الى المدينة » انتهى .

فهذه العلوم التي تجشَّم أربابها المشاق قد زُفَّتْ اليك على متون دفاتر الاوراق فكيف يزعم بشر : ان سبيل الاجتهاد كان اذْ ذاك أَيْسَر ؟ وان مال احد في زماننا الى الدعة والرعونة : فمن نفسه أُتِي وَقصَّر ؟

على ان ذلك التقريب قد قَوَّى جانب الوهن وجبر . فاعتبر ياأخا العلم

فالحكيم من تدبر واعتبر ، ولاتتخيل أنهاجتمع عند كثيرمن مجتهدي السلف من العلوم ، ماعند كثير من المتأخرين بسبب ماذكرنا من وجود الامهات ، والمسانيد والمعاجم والاجزاء ، عند جل من المتأخرين ، مـــع حسن الفهم والمعرفة ، والإتقان ، وجودة الاستنباط ، والاطــلاع الباهر على مدارك الابواب ، ومنتشر الفوائد ، ومنثورات الحكم والاحكام ، بحيث أربوا على من تقدم ، وعثروا مما لهم وعليهم على مالم يبلغه علمهم ، ولا أحاطت بـه معارفهم . فأي معنى لعالم مجتهد نحرير زائد على هذا ؟ فالله المستعان على من لم يدر معاني الكلام .

ولما كان الامر مع علماء السلف كما ذكرنا – من عدم تأتي المطالب لهم على نحو ماللمتأخرين – غاب عن آحــادهم الكثير الطيب من أصول الابواب ، وأفراد الادلة ، وجزئيات البراهين .

وآية ذلك : انك لاتزال تجد الخلاف بينهم ،والتعارض في مذاهبهم ،وكذا تجد الراجح منها ممتازاً عما عداه ،بوضوح حجته ،وسطوع برهانه ،وضرورة الحسّ : ان صاحبه ظفر بالوجه البيّن ، والمذهب الأقوم ، دون غيره ،ولا يكون الغير محظوظاً ولا مغضوض القدر .فهذا شأن علماء الدين قديماًوحديثاً .

وكذلك تجد في كتب التاريخ الحافلة بيان قدر محفوظاتهم ، والتنبيه على مقادير معارفهم من لدن الصحابة ، فالتابعين فتابعيهم . وهــلم جَرّاً ، الى ماشاء الله ان يستقر .

وذاك الذي حفظوه وعرفوه – ان نزرا أو غزيراً – منه يستمدون ،وبه قيل لهم :مجتهدون ، ورويت لأجله مذاهبهم وأقوالهم ، في كتب المقــالات والخلافيات ،ولايعرف عن احد منهم في أثر او خبر:انه لم يَسِمْ أحداًبالعلم والحكمة : إلا مثل مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد ، او من بلغ في العلم مرتبة هي بحيث يتهيأ للعلم بجميـع الاحــكام ، او غير ذلك من الاعتبارات المنقودة صحة وحصولا ،بل انّ علم احدمنهم بشطر صالح ،وجملة معتبرة ،يصيره

عالماً عندهم ، معروفاً بهذا النعت بينهم ، وليس من لازمه : ان لايجهل ،ولو أكثر مما علم ، ومن قصر عن هذه المرتبة فعلمه بحسبه ، والناس في ذلك العهد بين مقل ومكثر ، وسائل ومسؤل ، ومُفْتٍ فيما علم ،وساكت عمالايعلم . هذا شأنهم . اذْ لاقوانين هنالك ولاعادات ولا رسوم تداولها السادات ،وعلم كل منهم بقدر ماسمع واطلع ، وما أثره عن غيره الى مفيض تلك الأيادي ، ثم يأخذون في النظر فيه ، والاستنباط منه ،والتفقه فيه على مقتضى أفهامهم ومواطىء أقدامهم ، ومرتبة مابلغهم جلاءً وخفاءً . وكما ان بالضرورة يعلم تفاوت أفهامهم . ومقادير فقههم واستنباطهم ، فكذلك ماعثروا عليه .

والزاعم على المتأخرين عجزاً عن ذلك : جاهل بحقيقة الحال .

وانظر تاريخ النبلاء ، وتذكرة الحفاظ ، وشبهها . تعرف سعة معارفهم وتبحرهم ، واعتبر بمثل مسند أبي الدنيا القاسم الطبراني ، وابن عساكر مؤرخ الشام ، وابي بكر البيهقي ، وابي بكر الخطيب البغدادي ، ومن في تقييد ابن نقطة من مشاهير المتأخرين ، وهلم جرّاً ، الى أعلام الدرر الكامنة والضوء اللامع من أقوام كثير ،بلغتنا أخبارهم ورأينا لهم تصانيف تدلت لهم ثمار العلوم والمعارف ، وحظوا بتليد من مفاخرها وطارف ،بحيث يضطر الناظر والمتصفح ، الى ان الحكم بتعذر الاجتهاد منذ زمن كذا : ذلة يعز نظيرها ، وغفلة جاوزت حدالإغراب ، كائنا قائلهامن كان ،فما هذا القائل الله ولا رسوله .

ومن سبر واعتبر . علم صحة كل ماذكرنا ، وناهيك بمن عرف في بعض المسائل من المتأخرين أربعين قولاً ، كساعة الجمعة ، وليلة القدر .

وهاهو شرح صحيح البخاري الذي جمعه الحافظ الشهاب ابن حجر العسقلاني

ورأينا بعض المتأخرين : يذكر في الحديث الواحد جمّاً كثيراً من الفوائد كما صنع العلاء في شرح حديث ذى اليدين ،وإفراده بالتأليف ،وكما صنع الشيخ تقي الدين في الإمام ، وهو امام مطلق ،لايُنَازَع في جُمُومِ علمه ،وسعة معرفته ،

يذكر في شرح الحديث الواحد عدداً من الفوائد، ينيف على ثلاثمائة فيما أشعر الآن بسواه ، حتى رأيت مجلدة من الإمام ، فيها شرح ثمانية احاديث ، وتبعه في ذلك ، او أجلّ منه ، صاحب طرح التثريب بشرح التقريب .

وهذا باب يطول تتبعه ، من اشرف عليه علم مقام المتأخرين، وسخف تلك المقالة ، بانقطاع الاجتهاد منذ زمن كذا ، أكذبٌ في الإسلام ، ام عدم مبالاةٍ فملام ؟

ولقد قضى لنا اطلاعنا بالجزم بأنّ كثيراً من المتقدمين : لم يحيطوا علما بما شرحناه عن اقوام من المتأخرين .

ولسنا نخاطب إلا شهما قوي الهمة ، ذكيّ القلب ، واما الغافل الجاثم : فلا يقضي لنفسه اربا معتبراً في هذا الباب ، واي فضيلة له على ربات الحجال او مزيد على صغار الحي والاطفال ؟.

ومن شك او ارتاب . فليسبر أيام الناس ، واخبار القدماء ، وسير الماضين.
والمقصود بهذا كله : ان القائل بتعذر الاجتهاد – سيما قوله : منذ الزمن الفلاني – فقد قال غلطا ، وركب شططا .

اللهم الا ان يعني بالاجتهاد : معنى غير ما علم في السابقين واللاحقين ، وانكشف من حالهم لكل من اقتص أخبارهم بنبأ يقينٍ . فليبيّنه ، ولا حاجة بنا اليه ، ولا يضر الجهل به ، لأنه نعت بلا محل ، وحلية ملقاة في هواء .

اللهم الا ان يأتي بشيءٍ يزعم : انه صفة لاحدٍ من البشر ، بمجرد دعوى جزاف ، فبابها يقبل الازدياد ، وانما الشأن : الحقيقة .

انظر من غلا في المسيح ، فقال : لايصلح الا ان يكون ابنا لله ، والغالي في الإمام : مايعدل في حقه . ولااله الا الله ، ماسر النهى عن الغلو في الدين؟ الا لخروجه بصاحبه الى متالفَ لاتدخل تحت وطء الإحصاء . والله الهادي .

ثم ههنا نكتة ، ينبغي ان يتنبه لها ، وهي : ان الاجتهاد بالمعنى المتعارف

عند الاصوليين المصطلح عليه بينهم : متى كان معروفاً في لسان الشرع بذلك المعنى ، الذي شرحوه به ؟ فإنا ماوجدنا لذلك أصلا ، بعد التصفح والبحث واما ليس معروفاً بذلك المعنى ، ك «اذ اجتهد فأصاب» فهذا شاهده .

ونحن الى الآن لم نزل في التعجب من اطلاق القول بتعذر الاجتهاد في هذه الازمان .

والزِمنُ العاجز او الضعيف المقعد ، والذليل المحروم ، اذا عبر عما يحس من نفسه : فليس له الحكم على غيره ، وهل هذا الا مثل البخيل ، اذا سمع بأخبار من جَنَّبَهُ الله الشح ، والذليل الذي يطرق سمعه مايصنع الشجعان الذين ثبتهم الله في الميدان عند التقاء الاقران ، وهكذا اذا سمعت عن أحد شيئاً ، وانت لست من أهله ، ولا طريق لك الى مكاذبته .

وهؤلاء القوم لم نجد لهم في الحكم بتعذر الاجتهاد ، وامتناع اخذ الحكم من دليله : شبهة ضعيفة ، فضلا عن قوية ، فضلا عن وجه ، ولا شائبة تثير خيالا ، وان زائلا ، بل ماعندهم الا مصادرة محضة ، أصابت فريتها من كان في هذه الازمان ، ومن قبلها الى تاريخهم الاحمق ، وغفلوا عمن قدمنا ذكرهم ومن لايحصى ، بل عما عملوه بأيديهم من الاستدلال ، على مافيه .

وقد علم : ان مرجع الاجتهاد بالمعنى المصطلح عليه أيضاً : الى الانس بالنصوص الشرعية ، وملابستها بحيث يكون ثَمَّ تَهَيُّوءٌ ، وأهلية للعلم بالاحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية .

وثبوت «لاأدري» وماهو في معناه عن كثير من المجتهدين : يمانع ارادة جميع الاحكام المذكورة في قولهم بالاحكام الشرعية .

فتعين بعضٌ مطلق ، كما قرر في محله ، وكما عرفناك حال المجتهدين فيماسلف ويكون المجتهد بحيث يحسن التصرف فيها وغاهمن الادلة ، وتنزيلها على الوجوه الممكنة اللائقة ، التي لاتمانع الصحة والقبول في الجملة ، او الاصل الغالب في كل

مقام بحسبه ، وكلٌ ناظرٌ بنظره ، ومقدار احسانه ،فإن هذا باب لاينضبط بمقــدار ولايقف على مرتبــة ، بل أبحاث الفضلاء فيها الغث والسّمين ، والمتلىء والهزيل .

وانما المراد : وجود هذه النعوت التي ذكرناها في الجملة ،حتى لاتعداتفاقية لاعن قصد ولا اعتبار .

وحاصله : أنه لايشترط الوفاء، والإحصاء للأدلة اطلاعاً وتنزيلا ،ومعرفة وتصرفاً ، ولاينفع المفرط في الجهتين ، ولا يعد هذا بحسب الاجتهاد –الذي هو المعنى الحاصل عند الائمة وعلماء الامة – والذي رام المعرفون للاجتهاد تصويره وحكايته ، على مافي تعاريفهم ايضاً .

ولايشك باحث قط: انهم قصدوا بتلك الحدود: كشف مابلغ اليه المجتهدون ووصف مقدار مقامهم في العلم ، وشرح حالهم فيه ، وبيان ماحصلوا عليــه منه ، اطلاعاً وانتفاعاً .

واولئك المجتهدون– رضى الله عنهم –في التفاوت والتفاضل بحيثية لايتأتى انضباطها ، والوقوف لها على حد ، وتأليف متنافرها ، وضــم افرادها الى جهة محصلة منضبطة ، متميزة حاضرة ، حتى يتهيأ تحديدها . ويشار اليها بعبارة جامعة مانعة .

ومن هذا تعرف وجه اضطراب المؤصلين ومنشأه في تعريف الفقيه ، وهو المجتهد ، او شرطه .

وذلك انهم قالوا : الفقه : هو العلم بالاحكام الشرعية الفرعية، من ادلتها التفصيلية ، بالاستدلال .

هذا هو نص بعضهم . وآخرون ذكروا قريباً منه .

واما بعضهم: فعرّف بمايقارب حاصل ماشرحنا اولاً. فتضاءل الإيراد عليه.

فلما عرفوه :بأنه العلم بالاحكام .اورد عليهم : هل المراد : الكل ؟ فقد ثبت «لاادري»عن عدد من المجتهدين في مسائل كثيرة، شرح منها البرماوي في اول شرح الالفية له، او البعض؟ فيَرِد: المقلّد اذا عرف بعض الاحكام كذلك.

ونحن نقول : الصواب : او البعض ؟ فهو الواقـع . والتزام الثاني سهل قريب مما بسطنا القول فيه ، وهو العدل الذي لاحَيْف فيه ، والتقصّى عن ذلك الإيراد يسير ، خصوصاً اذا قلنا : بتبعض الاجتهاد وتجزئه .

واقرب تعريف للفقه ،الذي هو شرط الاجتهاد او عينه ،او ملاقيه عندهم: الى مطابقة الواقع ، وصحة المعنى وصدق القول ، الذي يشهد به الوجدان والحس : ماذكره البرماوي في اول شرح الالفية له ، حيث قال : وأما في الاصطلاح : فهو علم حكم شرعي من دليل تفصيلي ، انتهى .فتأمله .

ومنه يؤخذ تعريف الفقيه – وهو المجتهد على الصحيح – فمن عرف الاجتهاد بما يحكى الامر الموجود ، والقضية المعلومة ،وحسب المعنى الصحيح الواقع ، فيمن وصف به . فليحرر عبارة تؤديه ،والا فقد تسنم الخبط والخلط ،وانّى له برتبة محررة ، واقفة على قدر يحكيه المعرف الجامع المانع ؟ هيهات ، ولو فنى التعريف على الجهة الفضلى ، كان غير جامع عند من يعتبر ماهو أدنى منها. ووجوب دخوله في المعرف أو الجهة الدنيا : كان غير صحيح عند من لايراها أحدَ أفراد المحدود .

وبالجملة : فهذا شيء كليل الرياح ، وجعل معيار لها تضبط بـه ، وتعرف بمعرفته ويحصى قدرها بإحصائه .

هذا كله على القول بمنع تبعض الاجتهاد وتجزئه .

والصحيح العدل الصادق : خلافه ، بحيث أن الواقـع المحسوس المعلوم بالوجدان : ليس إلا أبعاض . وأما الغاية : فعلمها عند علام الغيوب .

فكيف يمكن تحديد ماليس بذى حد يقف عليه ؟.

وإذا عرفت هذا عرفت ان ماأوسعنا القول فيـه ، وأطلنا في تقريره وإيضاحه ، من شرح حال أهل العلم قديمـاً وحديثاً ، والإشارة الى مقادير علومهم : لايفي بتخليص البحث فيه ، وإعطاء المقام حقه المستطاع :الاتلك

العبارة المبسوطة المفصلة فهي وجه التحقيق، وعين التدقيق، وبالله التوفيق.

وتعاريف أهل الاصطلاح: ان وافقت الواقع، وطابقت الصدق، وأصابت المعنى الصحيح المستقر الثابت الموجود، وإلا فالخلل فيما أخذ عن الحقيقة ناحية وحكى غير الموجود، وعَرّف أمرا مفقودا، ودار مع محض الوهم والهجوم بلا يقظة

ومن عرف الموجود المتحقق، وبسط القول وماحصر ولا ضيق: أصاب الرأي السديد الموفق، واعترف بالمقصود، وهو ان الاجتهاد غير ممتنع بحمد الله في عصر من الاعصار، ولا على أحد من الناس، ومن قَصَّر: فمن نفسه أُتي، لان مادة ذلك في وجدان الادلة والقوة العاقلة غير مفقودة.

فافهم هذا. فإنه وانْ قَلَّتْ عبارته. فقد جلت إشارته، وماأتعب السلف الصالح نفوسهم في جمع العلوم، وتأليف شتاتها، وتصنيف فنونها: إلا لاستكشاف الحقائق، وليدركها مرتادها بذوقه، لاللحكم بالامتناع والتعذر والاستحالة، ولاسدّاً وضياعاً وبطالة.

والإحاطة بالادلة لسنا — ولامن يؤمن بالله واليوم الآخر، ويعقل حقيقة الحال — يدعيها، ولا يصدقها لاحد، وماهي إلا أماني مَنْ خفي عليهم الامر فيمن غلوا فيه من أئمتهم.

وكيف يصح مع هذه الامنية: ان يكون للامام في مسألة قولان، وزيادة جديد وقديم، وروايات في المسألة الواحدة، كل رواية تباين الاخرى، واجابة: بلا أدرى، وهو في كل ذلك مجتهد، ملازم هذا الوصف؟ لانه حينئذ إما قاصر الاطلاع، أو عاجز عن الجمع والتفريق والترتيب، والثلاثة خاصة الاجتهاد المدَّعَى لهم، والتوقف لفك التعارض، أو استدعاء زمن للنظر في ذلك، كمن يجهل فيستعلم، سواء، أوْ بَل هو عينه.

وعلى التحقيق: فانما هو من قصور الاطلاع، أو عجزٌ ماعَمَّا ذكر.

والتوقف لايخرج المجتهد عن هذا الوصف على المعنى الصحيح ، الذي بسطناه، لاعلى تأصيلهم : فعاكر ، ولا يستطيون دفعه .

وشأن المرء : ان يعلم بعد ان يجهل ، ويذكر بعـد ان يذهل ، ولايصح ان يكون كل من يوفق من المجتهدين : هو بسبب التعارض .

وبجميع مامر يتبين لك : أن اجتهاد السلف :علم غير محيط ، على تفاوتهم بين سابق ولاحق ، ومستكثر ودونه ، وهذه طريقةلم تُعْنَى المتأخرين،بل هي لديهم زاكية نامية .

ولا يكاد ينتهي العجب ممن ادعى للسلف احاطة بالمدارك ، واستجماعاًللند والمشارك ، ووقوفا على خواص الشريعة وأسرارهـا ، حتى كأنها وأشخاص جزئياتها رَأيَ عَيْنٍ ، موصلا ذلك الوقوف الى دراية أفراد الاحكام ،بحيث يتصرف فيها تَصَرُّف الخبير ، ويسومهـا أنواع التقسيم والتدبير . فيكون كمن أحاط بقاعدة قضى له البرهان : ان كل ماصدقت فيه جرى حكمها بلا تخصيص ، ولا اختلاف ولا تأخر ، وانه ان جاء مايقتضى شيئاً من ذلك فذلك البرهان قاهره ، وغالب عليه ، بمنزلة قطعية عموم : (انّ الله بكل شيء عليم) و (على كل شيء قدير).

وحاصله : علم صحيح بعين حكم الشيء ، فجعله فيه ، بحيث لايصح لذلك الشيء أو فيه الا ذلك الحكم ، ولا يسوغ لغير هذا الحكم أن يحل محله ،وينزل في ذلك الشيء ، بل دراية محققة بالأحكام ومنازلها ، من غيران تنزل الحكم بغير منزله ، ولا المنزل بغير حكمه ، ولاينفك عن أيها صاحبه الذي لايليق به سواه ولايصلح ان ينفرد عنه ،اللهم الاما ماثله في اقتضائه ،وامتناع ماسواه.

وعلة ذلك كله : العثور على خاصة كل شيء ،المقتضية للحكم المتعين،الملازمة له ،حتى لو انفكت عنه الى غيره ، او صرفت عنه بسواه: كان غلطا ووهما، أو شططا خالصاً وظلماً ، يتعالى عنه الاعلام المتبوعون لكمالهم عملا وعلماً

فهذا ، ياذوي البصائر ، مازعمه مَنْ غلاَ من مقلدة الأئمة ، ووجدناه في كلام بعض متأخري الاتباع ، زاعما ان ذلك المحال : وجه لزوم تقليد من بعدهم إياهم،وأنّ مَنْ قبلَ مثلِ الشافعي ومالك مثلا من المجتهدين كانوا كذلك ، وإنما لم يكن لهم من الاتباع من يحرر مذاهبهم ، كما للأربعة رضي الله عنهم ، حتى قال : وتلك طريقة أعْيَتْ المتأخرين . فقلّدوهم ، واتجه عليهم ذلك لما ذكر .

فهذا لَعَمْرُ الله ، من أغرب ماوقفنا عليه ، وقد أحكم إبليس — دفع الله شره — مكيدته للمقلدة بذلك،حتى ينال منهم بغيته من تسديد آذانهم ، وتخميد أذهانهم ، وقد فعلوا ذلك جهراً ، واتخذوه محمدة لهم وفخراً.

ولو جوّزُوا في متبوعيهم ماهو الواقع المعلوم بالوجدان والحس لأغْنَوْنا عن مُدَافعتهم فيما أتَوْا من المحال، ولكان باب البحث والانتقاد والاختبار مفتوحاً غير مُنْغَلق بحال ، ولكان يظهر لهم مافي مذاهب متبوعيهم من الضعف في كثير من المحال ،وفساد جمهور من الاقوال في المذاهب والانتحال.

ولاضير في تنزيل هذه المقالة منزلة مايجاب عنه فنقول :

قد أعرب الأئمة والعلماء ، وجلة الاذكياء الفهماء عن أنفسهم : بـ«لاأدري» فيما يتعسر حصره من المسائل أو يتعذر ، واختلفت مذاهبهم في جماهير الابواب والاحكام ، ومفردات المسائل ، بحيث ان تحقق الاتفاق في غير الضروريات في مقام المنع جزماً ، وإمكانه لاحق به أولايغنى ، ان سُلّمَ .

وأنت خبير —ان شاءالله تعالى—:ان المواضع التي ادُّعِيَ فيها الإجماع—على مافي ذلك ، كما عرفناك—نادرة قليلة،في حكم العدم ،بالنسبة الى مااختلف فيه بل مذهب الفرد منهم: يختلف ويتغاير في المسألة الواحدة،ويضطرب في قضية فردة

فهل هذا شأن من وقف على تلك الاسرار ، ذلك الوقوف المسمى المشروح آنفا؟ وهذا الاختلاف في نفس الحكم ،دَعْ ماعنه الحكم من المقدمات المتشعبة الاختلاف ، الْجَمَّةِ الانتشار ، وكذلك لانزال نحن وغيرنا نسمع في الكتب

البسيطة ، والحوافل الجامعة ، وبعض مماسواها أيضا ، مامثاله :

ذهب قومٌ من السلف الى كذا ، ولعله لم يبلغهم الخبر فيه .

وكذلك اشتهر انكار كثير من السلف على من قال : بثبوت الفراش بين زوج مشرقي وزوجة مغربية لم يجتمعا قط ، ونفوذ حكم الحاكم ظاهراً وباطناً ، ولو عن شهادة يعلم المدعي والقاضي كذبها ، حتى قال بعض فقهاء الشافعية : في هذا الموضع : هذا قول يقشعر منه الجلد ، ولم يَرَ أنَّ انكاره هذا تشنيع على القائل . فافهم .

وأنا أقول : عفا الله عمن قاله . فلو كان ذلك العثور على تلك الخواص بذلك المعنى المذكور ، الذي ادعاه الغافلون حقاً ، لما كان لِلا أَدْري ، وللاختلاف وَلترَجِّي عدم بلوغ الخبر ، وللانكار على أحد من المجتهدين : وجه ولا وجود .

ولو تتبعنا مظاهر فساد هذه الزلة أفْضَى الى استغراق ، والإشارة كافية ، والسكران لايصغي الى موعظة ، ولايرتدع بزاجرة موقظة .

واعلم : أن القول بتعذر الاجتهاد ، وامتناع أخذ الحكم – أي القضية أو محمولها الثابت شرعا – من دليله ، كما يأتي بيانه ان شاء الله تعالى ، وكمالعله قد مرَّ : يقْتَضى اقتضاءً بيناً من خراب الاديان . مابعضُه مُغْنٍ عماسواه ، ويُولِّد من المفاسد مايفوت الحصر ، ويوهي قراءه .

ولو لم يكن في ذلك إلاَّ تعطيل علم الكتاب والسنة بمرة ، والانفلات من الاعتصام بذلك المنار لكان كافيا في البراءة منه ، لانك اذا أخذت في الاحتجاج على خصمك بقول : قال الله ، قال رسوله .قال لك – وقرع بابا مرتجاً – : هل معك قال الشافعي ، قال مالك ؟ أما علمت : انه حرام عليك ان تستند في شيء مما ذكرت الى نفسك ومباشرتك ؟

وهذا أمر استقر عليه امر هؤلاء المقلدة تصريحا وعملا .

وذهب بهذا الاعتبار جميع منافعِ هذين العلمين ، ككونهما بياناً وشفاء ونوراً

وهدى ، ومرجعا عند النزاع ،وحَكَماً عند الاختلاف ،وعصمة من الشرور والمحاذير للناس أجمعين ، حتى تأتي الساعة .

ولانعلم في الإسلام مايضاهي هذه الزلة ، إذ الناس الآن متروكون سدى ، إلا ماسَطَّرَه أوائلهم ، ولايوجد مايقضى لمُحِقِّهم على مبطلهم ، ولا من يفصل بينهم عند الاختلاف والتنازع .لان مادة التمييز والإبانة والايضاح : هو حكم الله الذى لاراد لما قضى ، وقد تعذر في اعتقادهم الوصول اليه .

ولما كان هذا الفصل قد طال ، مع كونه بقي منه زيادة واكمال ، أودعنا ذلك فصلاً آخَرَ فقلنا :

فصل

ومن ذلك — وهو متصل بالفصل الذي قبله — ماقاله بعض هؤلاء الذين نحن بصدد إظهار مافي كلامهم من الباطل ، لمن خفي عليه .

ولفظه : ولايدعى الاجتهاد في زماننا هذا الا من جهل شروط الاجتهاد ، وعري عن علم أصول الفقه .

اذا علمت هذا فيحرم على هذا دعوى الاجتهاد ، وأخذ الحكم بالدليل وان طابق الواقع لقصور نظره ، أخذاً من قوله تعالى ، خطاباً لمن لم يبلغ رتبة الاجتهاد :(٢١:٧فاسألوا أهل الذكر) وهم المجتهدون (ان كنتم لاتعلمون) اخذ الحكم من دليله ، لعدم تأهلكم لذلك ، كما يحرم على من بلغ رتبة الاجتهاد ، وقامت به شروطه : التقليد ، بل يجب عليه الاجتهاد ، وأخذ الحكم من دليله ، وان لم يطابق الواقع ، لكمال نظره ، عملا بقوله تعالى : (٥٩:٢فاعتبروا يأولي الابصار) والاعتبار :هو قياس الشيء على الشيء في حكمه ، لاشتراكهما في علة ذلك الحكم ، انتهى بلفظه .

وهو خُلْفٌ متعين ، وتناقض غريب بيِّن ، بينما المذكور بصدد منع أخذ

الحكم من دليله ، على جميع مَنْ في هذه العصور ، بل وقبلها ، وإذا هو قد استثنى نفسه من هذا العموم ، فقال « أخذاً من قوله تعالى ».

فلا ندري ماالذي أوصله الىاخذ هذهالاحكام من هذه الادلة ،التيأسمعنا بها دلالة من عنده ، ومعنى من لدنه أو مثله ؟ وتحكّم على الله وقال عليه بلا علم ولن يقدم على هذا بهذه الصفة ، الا مَنْ استحكمت حلقات الجاهلية على قلبه ، فلا يبالى بالرجوع على الاعقاب ، ولايؤمن بيوم الحساب ؟.

فيقال له : اولا : هل عرفت شروط الاجتهاد ، وعلم أصول الفقه ، مع معرفتك بالشرط وشرطيته ، حتى تمانع دعواه على بصيرة ، وتدافعه عنعلم بها ؟ وعلمْآخَر شهدلك :ان المدّعى ماله فيها سارحة ولا رائحة ، لقولك الغريب : «لقصور نظره» ؟ فلا بأس ، ولكن ماالذي خصك بدركها ؟ ومايمنعك أنت — والحالة هذه — من الاجتهاد ؟ وقد تَسَنّمْتَ ذِرْوَتَهُ بإدراك شروطه ؟

هذا ان كنت باشرت تفصيل تلك الشروط ومعرفتها بالذوق ، وان كان كذلك ، قيل لك : شروط الاجتهاد كذا . فحسبتها لاتنال من دون ان تعرفها ولاعرفتَ بالبرهان الصحيح شرطيتها ،فَبُعْداً لك عن الكلام فيها، والبحث مع منتحليها ، لانك جاهل خالص ، كذّبت بمالم تحط به علماً ،كمن سَمِعَ من ينشد شعراً ، أو يروى حديثاً ، أو يَتْلُو قرآناً، فبادَرَ الى التكذيب ، وهو لايدري الشعر ، ولا الحديث ، ولا القرآن، فمانع المنشد والراوي والتالي : وادعى أن ماأملاه ليس شيئاً من الثلاثة ، وكذّب وهو لايعلم شيئاً من ذلك .

فهذا لايختلف العُقلاء في ضلاله وغَيّه ، ومايعجز أحد من الناس عن تكذيب أحدٍ ، حيث لاتعويل على حجة ، ولا مستند .

هؤلاء الرافضة والخوارج وغيرهم يُكاذبون أهل السنة في هذه الإضافة ، اللهم الا على معنى غير مرادٍ لاهلها ، فما هو جوابهم عليهم ، فهو جوابناعلى هؤلاء المقلدين .

ثم يقال : مِنْ أين لك ماذكرت ، حجةٌ لك على ماتريد ؟.

فإن طمعت في البيان ، وحكمت بأنه داخل تحت الإمكان. فغلط ظاهر ، يعلمه مَنْ تصفح الآية ومعناها بصدق النظر ، وليس ذا محل ذكره ، ومجرد للتيقظ هنا ، ومراعاة تَدبُّر مَّا : كافٍ ، فبالحريّ مَنْ يقول بشيء محتمل فضلا عن ان يكون عــلى الوضوح يشتمل ، ونحن لانعنى بإمكان الاجتهاد إلاّ نَحْوَ هذا ، ومأخذ الحكم من دليله ، ومحط رحال المجتهدين: الاتقرير كون الشيء دليلاً على ماسواه ، ومؤدياً لحكمه .

فليس من الغريب ان تزعم ان إقامة البرهان على جميع ماسطرته في جوابك أنت واخوتك ممكنة ، بل متحصلة ، وتدافع خصمك عن مثل زعمك وأنت لاتشعر ، لعله أقوم منك قيلا ، وأهــدى مُنْتَحَــًى وسبيلا . إذْ مَشَى على الجادّة ، وجانب الشقاق والمحادّة .

وان قلت : لاأعرف أن ماذكرت حجة لي ، إنما كذلك قرروا فيــــه ، وفَــيت بذمة أصلك المضلل ، ولكن خفٌ عندك ميزان كتاب الله ، وحججه على عباده ، وشهدت على نفسك بسرف في التهور ، فأنت الآن متناقض مباهت لامحالة ، وهذا إرخاء عنان معك ، وتنزيل لك منزلة من يَعْرِف التناقض ، واقتحام المهالك ، والا فقد دللتنا على حقيقة أمرك . والسلام .

ولقد جَرَّ سوء هذه المقالة — وهي القول بتعذر الاجتهاد — الى ما شرنا اليه ، من سلب منافع الكتاب ، وكونه عدة للدفع والنفع ، ومحلا للاهتداء ، وميزانا يعرف به الرشاد والفساد . فقد حيل الآن بينه وبين طالب مافيــه من غيوث الرحمة ، وصَيِّب النعمة ، وكذا مايتصل به من حوافل تفسيره . والكلام على نكت فرائده ، وعجائب فوائده ، وبيان اشاراته ومقاصده . فكل ذلك عند المقلدين لَغْوٌ محضٌ ، اذمالا تَصِلُ اليه — وان زعمت ذلك — قضت عليك الحقيقة بأنك مكذبه بالكذب . فوجوده وعدمه عندك سيان.

وهكذا : المؤلفات المشتملة على الاخبار النبويـــة ، وعلومها ووسائلها ، ككتب الـجَـرْحِ والتعديل ،وطبقات الرواة،وشرح أحوالهم ، وعلم غريب الكتاب والسنة وأحـكامها ، وكذا المؤلفات في سائر الفنون . كالنّـحو والتصريف ، وأصول الفقه والمعاني ، التي يقول مؤلفوهـا : ان الحكمة من تأليفها هي التوصل الى تصحيح المطالب بالذات ،مع أن عقلاء الفضلاءلازالوا على مر الازمان تتجدد لهم التصانيف، أَعلىَ بصيرة ذلك، وللتبصير ماهنالك، أم دَأبٌ فيما لاسبيل الى الغاية المقصودة به ؟.

فنقول : أيها الملأ ، وان كان البشر قد علم ضعفه ، ونقصه وجهله ، فلقـد ساءنا أنْ بلغتم الى هذه الغاية ، ومازدتم على المضادة لله ولرسوله ، والتلعب بدينه وبشرائعه وإضاعة مساعي الباحثين والمؤلفين، وأهل التصانيف ،وذوي العلم والنظر . فما شأن ماصنعوا ؟ وهل لِلدّأبِ في ذلك الجمـع والتأليف ، وبيان الصحيح من الفاسد والراجح من الخفيف فائدة وغاية ؟ ومابقاء ذلك واستمراره على تعاقب الاحقاب ، بل هل لبقاء كتاب الله كثير حاصل ؟إذْ مَبْنَى جميع ذلك على فتح باب الاجتهاد،وان كثيراً من المطالب ، أوْ كلها، أوْ إلاّ النادر منها : لاطريق الى تحصيله الا البحث والنظر .

فإن قطعيات الجمل ، التي هي : كالصلاة ، والزكاة ، والحـج ، والصوم ، والطهارة ، والبيـع ، والحدود ، وغيرها : اجتهادية التفاصيل ،وكذلك باب الألفاظ وتنقيح دلالاتها ، وما أشـــبه ذلك ، والضرورات جملة وتفصيلا معروفة ممتازة .

ومقتضى ماذكرتم: أن ركنية الركوع،والسجود ،والـقِـرَاءَةِ ،وشرطية استمرار الطهارة ، ومقادير الاموال الزكوية نصابا ومخرجا ، وغير ذلك : لايعرف الآن شيء منه بدليله الخاص .

فأخبرونا . ماالذي دَأَبَ فيه الناس ،وتوجهت اليه مساعيهم ؟ وأعْمَلوا القوة لِلتّـبَـلّـل بفيضه،واستنشاق َنفّاح رَيّـاه،والتمتع بكريم سامي محياه؟

فإن أمضيتم ماقضى به أصلكم ، وقلتم: لاحاصل لكل ذلك ، ولا للاستدلال واقامة البراهين في مسائل الخلاف . فلا ندري ، أنتم ام اصلكم اعجب في عدم التمييز ، وفساد الموجب ، وضلال الرأي والمذهب ؟

ولانرى الوصف بالسفسطة أو الجنون والبطالة المفرطة : اكثر من هذا .

وقد شهدنا عملكم في الإفتـاء ، والتدريس والعبادات ، والمعاملات ، على مافي هذا الترديد من حكاية جوابكم. فلا تفزعون فيما رأيتم فيه خلافاً او اضطرابا من أقوال أئمتكم المتبوعين : الى تحرير الصواب من مظنته ، أو تكشفون عما ذهبوا اليه ، او تنقبون عنه ؛ بل تقتصرون في الكتاب العزيز ، والسنة النبوية على مجرد التلاوة والإملاء ، من دون تفقه في المعاني ، ونظر في الدلالات ؟

وان عرض مايخالف المقرر . قلتم : متأوَّل ، او محمول ، ان أذعنتم لصحة نقله . ولاترفعون به في العمل والاستدلال رأساً ، او تقولون : ننظر ذلك الحمل ، أو التأويل ، وتجوزون انه غير صحيح . ولاتستشعرون : ان هـذا خطاب الله ، وصل إليكم بلا حائل ولا حاجز ، وتخشون مناقشته في العدول عن الظاهر المتبادر . حتى تقرروا وجهه ، ولم يجعل الله فهم زيد ، ولا عمرو ، ولا مبلغ علمهما : حجة على كتابه وخطابه .

ومن رام التحقيق صُلْتُمْ عليـه بالبَهْت والتمزيق ، ورميتموه بخرق الطريق . مع ان أحداً من اهل العلم والدين لايرتضى منكم هذا ، إلا اذا زال عنه وصف العلم .

وان قلتم في جواب سؤالنا : لانقول انه لاحاصل لذلك . بل فيـه بغية الناشد ، وهداية السالك .

قلنا : هذا هو الصواب ، فما تلكم الهداية والبغية ؟.

فلا يخلو ، اما ان تفسروها بما لايهـدم أصلكم . فيعود السؤال الاول ، او مايدحضه . فهو المطلوب الذي عليه المعول . وأيُّ فائدة في تأهيب جواد مُسْرَج ملجم ، ودرع سابغٍ ، ومهند قاطع ، وذابلٍ محدد ، لمُقْعَدٍ زَمِنٍ ، قد تحطَّمت

قـُواه ، وَوَهَت أطرافه ، يخشى الريح والمطر ، ولايملك راس البعير إن نـَقَر ؟.

فهذا مثل ماعَنى به المؤلفون ، على ماقضى به أصلكم .

فالعاقل – فضلا عن الحكيم – يَـرَى كلّ ذلك سعياً منهم ضائعاً ، حيث الامر على ماوصفتم ، والامر في هذا لايحتاج الى بيان . لان سلامة الفطرة . وبديهة الالتفات : دالة فيه على الصواب.

وهذه المقالة التي تكلمنا عليها في هذين الفصلين ، وتصفحنا ماترتب عليها ، ونشأ عنها من المفاسد : ما كان يخطر في البال ان يقولها بشر ، مُنْتَحِلٌ اتّباعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهي لاتليق الايجهالات من لايستصبح بنور الملة المكرمة ، ولايرتضى احدٌ من المسلمين – فضلا عن اعلام العلماء الأكرمين – ان يكون داعياً الى تقليدٍ ، على هذه الصفة المشروحة فيما مضى مرات ، من دون ان ينظر الناس لأنفسهم اصلا ، بل يكون كلامه – مثلا – هو الحجة الممكنة الحصول ، المانعة مما سواها ، مما هو حقاً الحجةُ الممكنة الحصول ، المانعة مما سواها ، ويكون هو الدليل القائم ، إذاً لكان داعياً الى شرٍّ قائمٍ ، وغيٍّ متفاقم .

وان ادعى لنفسه : مايزعمه له اتباعه ، ويطرونه به ، ويؤهلونه له . فقد صار بهؤلاء أشبه ، وقد أعاذ الله من ذلك كل مؤمن حي أو هالك ، كحال أئمة الهدى : الشافعي واحمد ومالك .

وكيف يكون كذلك من يقول « اذا صح الحديث . فارمُوا مذهبي » ومن يقول « كل أحدٍ يؤخذ من قوله ويترك ، الا صاحب هذا القبر » وأشباه ذلك ، ومن يقول « لاأدري » في كثير من المسائل ؟

والاتباع حجروا فضل الله المبسوط ، وغيث رحمته الذي به فلاح العالمين منوط. وظلموا أئمة الدين وعلماء المسلمين . الذين مابرحوا على طول الازمان في خدمة هذه الشريعة المقدسة بلا تقصير ولاتَوَان . ولسان حال هؤلاء المقلدة ومقالهم يقول : مالكم والتأليف. وقد كُفِينَا المؤنة وترتيب عقائدنا واحكام

دينِنا . فعملكم تضييع وقت بلا فائدة . بل بلا سلامة . لأن انسداد الباب على ثمرة عملكم حق . والفتح ضلال . فمالكم كيف تحكمون ؟

ولاتعلم نفس – والحالةهذه – مَنْ يميز صَفواً من كَدَر ، وتحقيقاً من غَرَر . ويعرب عن حقية شيء . او كونه باطلاً بحجة وبرهان ، من سنة او قرآن .

وبالجملة : فلا يتأتى فصل المعروف من المنكر . إلا بقول الإمام المقرر . وأما بالدليل . فشرطه : إمكان الاجتهاد . وقد تعذر . وانفتاح باب سبيله . والعقل عن الله ورسوله . وذلك ممتنع . ومدعيه كاذب مبتدع .

ونقول نحن : اللهم بَرَاءَةً منا إليك من هذه المقالة وتنزيها للذمة . ونصحاً للأمة . واعلانا لما في طَيِّ هذه الظلمة ، ليهلك من هلك عن بَيِّنَة . ويحيى من حَيَّ عن بينة .

ولا نشعر : ماجواب منتحل هذه المقالة . اذا قيل له : لماذا تجتنب امرأتك في رمضان . وفي المحيض . وتحكم بصحة الرَّجْعة في العدة . ووجوب نفقة المطلقة الحامل . وحرمة الميتة والدم ولحم الخنزير . وشَرْعِيَّة الوفاء بالنذر . وبأن الصلاة ذات أجزاء لاتقوم الجملة الابها كركوع وسجود . وبأن الواجب في خمس ذَوْدٍ : شاة . وفي خمسة أوسق : صدقة . وبِحِلِّ الميتة للمضطر . وحرمة الأخت من الرضاع . والربيبة في الحجر . من زوجك المدخول بها . وامهات نسائك . وزوج ابنك من الصلب . وجمعك بين الأختين . ومالاينحصر الآن من المسائل التي هي واضحة الحكم ، بينة الامر . وبعضها عند الناظر قطعي وبعضها نظري . لان منها ماهو قطعي المتن دون الدلالة . وبعضها غير قطعيٍّ متناً ولا دلالة . وبعضها قطعي الجملة دون التفصيل . وبعضها قطعي الدلالة دون المتن .

وبالجملة : فجماهير من تلك المسائل الشرعية نظرية استدلالية . إما من جميع مداركها او بعضها . وقد يتنزل شيء منها بعد الأنس والتدرب والاستظهار منزلة

القطعي ، لوضوح الحكم فيه ، وظهور دليله ودلالته ، ولايصل الى درجة القطع ، والضرورة والضرورات .

ما كلُّ الاحكام التي أشرنا اليها ، بل ولا بعضها ضروري ، الا ماتواطأت فيه المدارك ، وبلغ في الظهور مبلغاً .فربَّمَا يُدَّعى فيه الإجماع ، ودعوى الإجماع كثيرة الزلق . وقد أشبعنا لك القول فيها .

وأما أُنْسُ العامة والمقلدة بالشيء وظهوره عندهم ، فلا يُعَدُّ به الشيء حقاً ، فضلا عن ان يكون ضرورياً .

فلقد جَرَّبْنَا ، وتواترت لنا الدلالات : على كون اهل كل مذهب يتنزل عندهم منزلة الضرورات بعض مسائله ، او كثير منها، وربما يقضون في الشيء بمعنى الضروري : وليس له وجه ولا وجود . حتى ربما ادعوا ذلك أيضاً في نفس مذهبهم فاعرف هذا . والظُّهُورُ ، والجلاء ، والخفاء ، والْقَطْعُ ، والضرورة : أُمُورٌ لاتعُمُّ على الإطلاق .

فإن اجاب ذلك المنتحل بأن قال : لقوله تعالى : (٢٢٢:٢ فاعتزلوا النساء في المحيض) (١٨٧:٢ أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرَّفَثُ الى نسائكم) (٢٢٨:٢وَبُعُولَتُهُنَّ أحقُّ بردِّهِنَّ في ذلك)(٦:٦٥وان كُنَّ أولاتِ حَمْل فأنفقوا عليهن حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) (١٧٣:٢ فمن اضطر غير باغ ولا عاد . فلا إثم عليه) (٢٣:٤ وأخواتكم من الرضاعة) وساق لك ادلة تلك المسائل دليلا دليلا . فقد وُفِّقَ للصواب ، وسدد في الجواب ، ولكنه عاد على اصله بالنقض ، وسامه النبذ والرفض ، من حيث انه أخذ الحكم من دليله ، وشارك المجتهد في سروبه وسبيله ، وليس هذا بممتنع عليه ان كان اهلا لعقل الكلام .

ولماذا ركَّبَ ربه فيه هذه القوى ، ومشاعر الإدراك ،كما هي في المجتهد؟ فتوصل بها الى ماهُيِّئت له .فالله المستعان على هذا الذهول ، عن هذه الأيادي والنعم ، وماوهبه الله له . وليس للمجتهد جِبِلَّة اخرى .

وهاأنت ايضاً تستعمل هذه القوى في نظائر مامنعتها منه ، حيث وطنت النفس على الحكم بأنها صالحة .

فلماذا حين بلغت الىأسْنَى فوائدها ومقاصدها قلت:غيرى الصالح الجائز له : ان يقطع بهذا السيف، واما انا الآن — في هذه الجهة خاصة — َفزَ ِمنٌ مُقْعَدٌ متواكل القوى ، لاحراك بي .

أهذا شكرك لمولاك ، الذي اولاك ؟. واحسَنَ خلقك وبالسمع والبصر والفؤاد سَوّاك ؟

فإن اجاب بأن قال:قال الإمام—وسَرَدَ ألفاظه— وقال :لاعرف سواه، فقد وَفى لأصله بالذمة ، وابان انه فاقد عقله وفهمه ،بكونه لايأخذ من تلك الادلة حكماً ، ولايستثمر من تراكيبها علماً .

ثم ليت شعري ، اذا جاراه السائل في الخطاب ، فقال : هل أسألك :اتعلم في كتاب الله (٢:٢٨٢ياايها الذين آمنوا، اذا تداينتم بدين الى أَجل مُسَمًّى فاكتبوه ،وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل ، ولايأبَ كاتب ان يكتب كما علمه الله) (٢:٢٨٢ واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين . فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) (٢:٢٨٢ ولايأب الشهداء اذا مادُعوا) (٢:٢٨٢ الا ان تكون تجارةً حاضرة تُديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ان لاتكتُبُوها) (ولايضَارّ كاتب ولا شهيد) (٢:٢٨٣ ولا تكتموا الشهادة . ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) (٥ : ٩٥ لاتقتلوا الصيد وانتم حرم) (٥ : ٨٩ فكفّارَتُه : إطعام عشرة مساكين من اوسط ماتطعمون اهليكم ، او كسوتهم ، او تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام ، ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم ، واحفظوا ايمانكم كذلك يُبَيِّنُ الله لكم آياته ، لعلكم تشكرون) (٥ : ١ ياايها الذين آمنوا ، اوفوا بالعقود) (٤٩ : ١١ ياايها الذين آمنو ، لايسخر قوم من قوم) (٦٢ : ٩

ياايها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله) (٢٤:٢ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة).

فإن قال : نعم ، كل هذا في كتاب الله .

فقل له: ألهَـا مَعَان تفهمها، ودلالات تعلمها، واحكام تُسْتَفَادُ منها ، بحيث تجدك جازماً بها ، ومستفيداً لأحكامها منها ، استناداً الى ماتجده من نفسك وذوقك،لايُخالِجُكَ خادش في دلالة الدليل ، ولافي مدلوله ، ولافي أنّ مافهمته منه هو المراد ، والحكم الذي طلبه الله بهـا من العباد ، وان ماحصلتَ عليه هو بعينه الذي حصل عليه المجتهدون في ذلك . فأخذوا يستدلون ؟

وهاانت قلت : يحرم دعوى الاجتهاد ، وقد تعذر اخذ الحكم بالدليل في القول المقرر ، أخذاً من قوله تعالى – خطابا لمن لم يبلغ رتبة الاجتهاد – : (٧:٢١ فاسألوا اهل الذكر) : اي المجتهدون (ان كنتم لاتعلمون) اخذَ الحكم من دليله ، كما يجب الاجتهاد على المجتهد ، ويحرم عليه التقليد ، عملا بقوله تعالى (٥٩:٢ فاعتبروا ياأولي الابصار) .

وان كنت ماقدرت التنزيل حق قدره ، ولااعطيته الرعاية التي يستحقها من القول في تأويله ببصيرة وهدى : من اين اتاك ان تركيبَ الآية : هـذا حله الغريب ، الذي لايظن الإقدام عليه إلا صادق متيقظ ؟.

فإن أذعن لهذا السؤال ، وقال : الامر كما ذكرت ، من ان لها معانيَ مفهومةً الخ نقض اصله ، وان باهت وقال :انها عنده بمنزلة اصوات الطيور، وهدير الحمام في عدم الفهم عنها . فاتركه يرعى ، فهو ابعد من ان يهتدي الى براءة ذمته ، وتنزيه دينه وعرضه .

فإن المتيقظين عن وَسَنِ الغفلة مضطرون الى ان من ارتدى رداء الاجتهاد ، وقام بأعباء النظر والانتقاد ، في عصر الأئمة الأربعة ، وقبلهم وبعدهم :كان اجتهادهم الذي قضى لهم ببقاء الذكر.وانتشار الفضيلة:هو انهم سمعوا ففهموا.

ولا هناك إحاطة ولا استجماع . ولا عدم شذوذ شيء من مآخذ الاحكام عن القلوب والاسماع .

وان كانت الجملة عند الجملة . فالكلام في الافراد . وماخرج عن الجملة البتة . فالتكليف به ماطريقه ؟

وان خفي عليك شيء لم يخف عليهم : فهـــذا لايصلح مانعا لك عن جملة الباب ، على تسليم وقوعه. فإنه قد خفي عليهم مااضطربوا في تأويله. او وقفوا فيه. والذي عندك مما خفي عليك : هو عين ماعندهم مما خفي عليهم سواء.

ولو ألـَمَّ احدٌ في عصر السلف الصالح – رضـي الله عنهم – بكل مافي صحيح البخاري – مثلا – لكان عندهم من جلة فقهائهم. فَلِمَ لايجوز مثله الآن ؟ ومالذي نَسَخَتْهُ هذه الأزمان ؟ وهؤلاء اعلام الصحابة وسادة خير القرون ، لازالوا على عهد النبوة يغيبون ويحضرون ،والاحكام في خلال ذلك تتجدد ، والشرائع تحدث وتتولد .

ولايصح ان يقال : كان الواحد منهم قبل العلم بذلك الحكم من الاحكام غير مجتهد ، كما أنّ « لاأدري » لاتـُخرج عن الاجتهاد ، والامر في انهم الى الاجتهاد اسبق ، وبصحيح وصفه ممن لم يدرك شأوَهم احق .لأنهم اشتملوا ببُرْدِهِ وهو قَشِيب ، وعمت بركة النبوة الشباب منهم والشيب . وهذه مذاهبهم – بحمد الله – بين أيدينا ، في العبادات والمعامـــلات ، وبعض الاصول الدينيات، كرؤية الإسراء ، وكالطهارة ،والصلاة ، والزكاة،والصوم والحج ، والبيوع ، والنكاح ، والطلاق ، والفرائض وغيرها : شاهدصدق، وناطق حق : بأنهم علموا وجهلوا ، واصابوا واخطأوا ، وقـالوا ماليس صحيحاً ، ورجعوا عما وجدوا مايدفعه صريحاً .

ومن امثلة ذلك : ماحكي عن بعضهم في منع التطهر بماء البحر ، والمسح على الخفين. وتيمم الجنب. وفي تطبيق اليدين في الركوع في الصلاة . والمتعة. وما لايأتي عليه العد ، إلا في مؤلف حافل . وهاهو في المجاميع محرر مسطور .

كشرح المهذب وغيره . ولغيرهم اكثر من ذلك. بحيث دلت الحجةالواضحة: على ضعف ماذهبوا إليه في أفراد تلك المسائل ، ومخالفته للوجه الصحيح ، الذي ليست طريقه ايضاً القطع والضرورة . بل الظهور والقوة . علـى نحو مايصنع النظار في مباحث الاحكام . حتى يصير قول المخالف مطـّرَحاً غير معتبر . ولا ملتفت اليه . لضعف مُنْتَهَجِهِ في تلك المذاهب المعينة .

وسِرُّ هذا : أَنَّ الاخبار التي بأيدي النظار ، بعد الفحص والاختبار ، وَوُجُوهِ الاستدلال الصحيحة : سبيل الى التصحيح والإبطال ، كالقطـع والضرورات . وإنْ تفاوتت الرتب . فقد اتفقت في قدرٍ مشترك .

وأمَّا أَنـَّك تجد عالما قط استقامت دائماًمذاهبه . وصحت مطلقا اقواله . فخطوره بالبال – فضلا عن تحققه – إشكال .

اللهم إلا على غـُلـُوِّ المقلدة ، فنعم . حتى رايتُ لبعضهم ارجوزة، بَـيَّن فيها بزعمه – مستند مذهب امامه . فقال : عن فلان عن فلان . حتىقال: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الباري سبحانه .

والإمام ينادي – فيما نقل عنه أصحابه –في كتبه : بأني استحسنت كذا: ورأيت كذا . ويبين طريقة قوله في جماهير كتبه : بما يصح تارة . وبمايفسد تارة او تارات. فلاأدري لمن انتصر؟ولا ماالذيأوجب هذا الجزاف والبطر؟

ولقد راينا الشيخ الامام أَبا محمد المصري –هو العِزُّ بن عبد السلام –قال في آخر كتابه (قواعد الاحكام) مالفظه : « مع أنـِّي لااعتقد : أَنَّ احداً منهم – يعني العلماء – انفرد بالصواب . في كل ماخولف فيه . بل اسعدهم واقربهم الى الحق : من كان صوابه فيما خولف فيه اكثر من خطئه بالنسبة الى كل مَنْ خالفه . والشرعُ ميزان يوزن به الرجال والاقوال والاعمال ، والمعارف والاحوال . فمن رجح في ميزان الشرع.فهو راجح »انتهىبلفظه.

وانما ذكرته لتعرف البون الشاسع:بين كلام العوام و كلام الاعلام،والفرق

ضروري ، وصحة ماذكره كما ذكرنا : هو شمس الضحى ،لايخفى على صحيح النظر إنما الفساد الطـّارِئ على الفِطـَر ، أوجب إبانة البينات .

فما بال تلك المذاهب التي ذكرناها أَمْثِلَـةً عن أفرادٍ من الصحابـة واشباهها مما لايتيسر حصره عنهم ، وعن غيرهم من المجتهدين . صارت منبوذة مهجورة . والمذاهب إليها عند المقلدين غالطاً او خالطاً . لظهور الحجـة في الجانب المخالف ؟

أمْ لِمَاذَا ، وجميع ماذكرنا يدفعك الى الحقيقة . شئت أم أبيت؟

فقل لجمُوع الجهل: بِيْنُوا عن الْخَنَا أَفيقُوا عن الإصرارِ ،مابالكُمْ لدْ؟
فليس شُعَاعُ الشّمْسِ يَخْفَى لِنَاظِرٍ ولَا مَنْ عليه الحق ينفعه الجَحْدُ

ويكشف لك هذا : ان علماء خير القرون، الذين هم اول الناس علماً وعملاً. وفقهاً في دين الله وعقلاً عنه ،ومعرفة لشرعه ووقوفاً عند مبلغ علمهم وفهمهم لم يحيطوا بما يدعيه مقلدة المذاهب لأئمتهم ، الذين لم يدعوا هم – صانهم الله– لأنفسهم ذلك من الإحاطة التي هي غُلُوٌّ مُنْكَر .

ويزعم المقلدون : ان اولئك النفر من مُقَلَّديهم لم يبرز عنهم ذلك الفقه والكلام في أحكام الدين ،الا بعد استيفاء المدارك ، واستجماع مظاهر الحكم، وانتفاء موانعه ،ومايجوز اعتواره وورود،وبعد الحصول على جميع مايكون معه الحكم ثابتاً مقرراً ، بَرِيئاً من ان يكون عرضة للتخديش والتحول ، أو مجوزاً للتغير والتزيُّل ، او محتملا للثبوت والتبدل . وذلك إمـا بتقرير البراءة بتحقيق عدم الناقل ، واما بانتقالها به ، ثم تقرير الناقل ان كان ، وتنزيله منازله ، ووضعـه في مركزه الثابت المستقر ، بحيث يكون مأمون المساور ، مفقود المنافر ، سليما عن تَجْوِيز طروق الاختـلال والاعتلال ، مصونا محفوظاً محصناً ، قد عرفت ثغور النوائب فسُدَّت عنه .حتى أضحى مطمئنا الى يوم القيامة .

فهذا مازعمه مَنْ ذكرنا في حق مذاهب أئمتهم ، ولهـذا ناضلوا عنها

ودافعوا في كل معترك ، وصيروها رواسي لاتسام التحريك ،وأركاناً مشيدة عن الانهدام .

والقول بتعذر الاجتهاد على مَنْ في عصرنا وقبله: شعبةٌ من ذلك الوادي، ولعبة من تُراثِ ذلك النادي ولايجوز في سُنة العقول الصحيحة : ان يدعيه بَشرٌ لنفسه او غيره .

وحينئذ فلا مانع لأحد من البشر : ان يشارك في الجملة أولئك النفر ، وان فرض قلة محصوله . فلا يمتنع ان يَعْقِل عن الله ورسوله ، ويأخذ شيئاً من أحكام الله من دليله ، كما هو شأن الناس في متقادم الازمان ، وحادث الأوان، بين مُقِلٍّ ومُكْثر ، ومبسوطٍ له ومقدور عليه ، كما تراه في التجارات والحرف والصنائع وغيرها .فلا القاصر أخرجه قُصُورُهُ عن ان يكون عالما، ولا رتبة الماهرِ منعته ان يكون له في الجملة مزاحما .

على ذلك جرت القضية ، واستقام الامر واستقر الحال ، ومضت السنة العادلة وارتبطت النجاة بما لابد منه .

وهذا البحث — وإن تكرر شيء منه ، او تلونت العبارة فيه مع اتحاد الحاصل — فلا ضير في ذلك، لعموم البلوى بذلك الخيال البارد ، الذي تكلمنا لإخماد ناره، وطَمْسِ آثاره،وهوعندمن نَوَّر اللهقلبه غنىعن ذلك ،لظهور أمره عند من كشف عن قلبه قناع الغفلة.وإنما اتِّسَاعُ دائرة الجهل بالحقائق، وانه رأس معالمها وعلومها: أوجب الإفضاءالى التكلم بما ذكرنافي هذه المادة. كأنه الدعاء الى التوحيد أوَّلَ البعثة ، لأِنْسِهِم بنقيضه ، وزمانك هذا قد أخذ من ذاك بحظه . فهذا من غربة الإسلام، التي عادت كما بدأت .والسلام.

إنْ تكلمت بالمعروف أطالوا منه التعجب بلا مستند :إلا كونهم ماعرفوه ولا ألفوه، ولامضت عليه عاداتهم،ولا ورثوه عن آبائهم .ذلك مبلغهم من العلم

ولهذا بعينه ذكر الإمام ابو محمد بن عبد السلام في كتابه (قواعدالاحكام) كلاماً حسناً ، وافق ماذكرناه . فيليق ذكره في المقام .

قال : « ومن العجب العجيب : ان الفقهاء المقلدين ،يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه ، بحيث لايجد لضعفه مدفعاً ، وهو مع ذلك يقلده فيه ،ويترك مَنْ شهد الكتاب والسنة ، والأقيسة الصحيحة لمذهبه ، جموداً على تقليـــد إمامه ، بل يتحيل لدفع ظواهر الكتاب والسنة،ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة ، نضالاً عن مقلّده . وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس . فإذا ذكر لأحدهم خلاف ما وَطّن نفسه عليه . تعجب منه غايــة التعجب ، من غير استرواح الى دليل ، بل لما ألفه من تقليد إمامه، حتى ظن:ان الحق منحصر في مذهب امامه . ولو تدبره لـكان تعجبه من مذهب امامه أولى من تعجبه من مذهب غيره — الى ان قال — : ومارأينا أحداً رجـع عن مذهب امامه. اذا ظهر له الحق في غيره ، بل يصر عليه مع علمه بضعفه وبعده . فالأولى : ترك البحث مع هؤلاء الذين اذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب امامـه قال : لعل امامي وقف على دليل لم أقف عليه ،ولم أهتد أنا اليه، ولم يعلم المسكين: ان هذا مقابل بمثله ، وتفضيل لخصمه بما ذكره من الدليل الواضح ،والبرهان اللامح . فسبحان الله ! ماأكثر من اعمى التقليد بصيرتـــه . حتى حمله على مثل ماذكرته !! وفقنا الله لاتباع الحق اينما كان . وعلى لسان من ظهر .

وأين هذا من مناظرة السلف . ومشاورتهم فى الاحكام . ومسارعتهم الى اتباع الحق اذا ظهر على لسان الخصم ؟

وقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه انه قال : ماناظرني احد الا قلت : اللهم أجْرِ الحق على قلبه ولسانه .فإن كان الحق معي اتبعنى .وان كان الحق معه اتبعته » انتهى بلفظه من (قواعد الاحكام)لذلك الحبر الهمام .

قلت : وقول المقلد : لعل امامي وقف على دليل لم أقف انا عليه : هو من جملة اماني المقلدة . وأعذارهم الباردة .

وبعضهم يقول : امامي قد عرف هذا الذي أتيت به ايها المخاطب وغيره. وانتخب زبدته . فألقاها الينا . فهي لامحالة وجه الحق الذي لامرية فيه .

وهذا قول جماهيرهم . بل يتفقون عليه في الأغلب . فإذا طالبته الوجه والدليل . نكص الى الدعاوى الجاهلة .

ومانخوض في هذا : الا لعل الله يهدي من يشاء من عباده والموعد قريب.

وماذكرنا هذا عن الإمام ابن عبد السلام مع وضوح الامر . الا ليعرف الناظر في رسالتنا هذه : انا -وان كنا نكتفي بظهور الحق ، وسطوع نوره من غير تعريج على كشف عمن قال به، لاستغناء الحق .وعدم تحقق الاتفاق، كما مر شرحه - لم نسلك طريقا تنكبها الفضلاء . ولاحاد عنها النبلاء . وان أكابر العلماء موافقون لنا على تحرير هذه النكتة وحاصلها. ولو ذهبنا نتتبع اقوالهم في ذلك لحصل منها كثير طيب . واقل مما ذكرنا يكفي . والله سبحانه الهادي .

واما من استحب العمى على الهدى فاقرع سمعه بتحذير(ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية) صارت الجماهير من أولئك الخلوف او عامتهم متطابقين على ماقد تلقوه عمن قبلهم ، جاثمين عليه : من مُفْتٍ وحاكم ومدرس . وعالم ومتدين . وسائل ومسئول ، من دون تيقظ ولا نظر . ولا تجويز ان يقع من امامهم ويصدر عنه شيء من خطأ ووهم وغلط . وجهله مايجهله ولايتفكرون في انفسهم :مابال الركون الى شيء ابد الآبادلا َنتَبَيَّنُه ُ؟ وما الشأن غداً عند الله ؟ أفلا يجوز توجه خطاب الله علينا في هذه المسألة بغير ماعرفناه عن الإمام ؟ بل ماكفاهم ذلك الجمود ، حتى اصروا على منع ماسواه من التقليد والجحود . وسحبوا ذَيْلَ التّيهِ والصدود ، ولعمر الله زلّت احلامهم .

والى هذا انتهى بنا الكلام في الفصل السابق ولاحقه . ولا تستطله او تسأمه فانك محتاج اليه اشد الاحتياج ، لكثرة ماتراكم على العقول من اكوام التقليد .

وكان من ذلك ان اصبح القول بتعذر الاجتهاد —مع ظهور فساده ،وتبالغ مفسدته — : أمراً تطابق عليه الاخلاف . واعتقدوه حقاً وخلافه باطلاً . فَعَطَّلُوا وابطلوا . وعظمت منهم الرزية ، وتفاحشت جفوتهم . وانتشر عن هذا الاصل الخاوي من المفاسد ،مالايحيط بشروره إلا علم العليم الواحد.

وماشرحناه هنا هو — اذا عقلته — لباب هذا الباب ، بل خلاصة هذا الكتاب ، اذْ نَعُدُّ الخلوص من سجن ماحذرنا منه هو الحياة الطيبة . فبه يخرج المرء الى رحب العافية والسعادة ، ويسعى على هدى وبصيرة الى كل بغية صالحة وإرادة .

فصل

ومن ذلك — وهو منهم قياسٌ للغائب على الشاهد — وذلك انهم لما كانوا لايعرفون الا حرفة التقليد . واستقر في فكرهم وفطرهم : ان من افتى او تكلم او عمل مالا يصنع شيئاً من ذلك . الا لأنه قاله المقَلَّد فلان، اوالإمام علان . او مُحَصِّلُوا مذهبه — بزعمهم —قالوا : ان قائل تلك المقالة—وهي اتجاه وجوب تخريب المشاهد — قلد ابن تيمية في ذلك . ومن تدبر اصول القوم : وجدهم دلوا على انهم من جملة العامة. ولاادري من اين جاءهم ذلك؟.

نعم هو نتيجة من نتائج الحكم بتعذر الاجتهاد .

ومن حق الباحث : ان يدلي بما يوافق خصمه على صحته ،او بحجة قاهرة، تؤذن ان دفعها مكابرة ، وان التمسك بمعارضها قصور ، او ضلال .

وكون من ذكروه قلد ابن تيمية : بطلانه معلوم غير موهوم ، لما انه ينهى عن التقليد وينادي بمنعه . ولان عامة مباحثه مبنية على تحرير المقام بمبلغ نظره ، وان كان لاسبيل الى رفع الخطأ جملة في كل بحث .

وذلك منه من دون تقليد لابن تيمية ولاغيره، ولااحتجاج بقول احد قط،

او التدين به من دون استبانته منه حسبما علم . وليس معصوماً كغيره ايضاً . ولانه في خصوص هذه المسألة ابرز حجته ، وحرر من البرهان ماااستطاع .

فأي معنى لقولكم : إنه قلد ابن تيمية ؟ والحال انكم تأتوا عن انفسكم ولا فيما نقلتم بشيء يقابل بعض ماأقامه في هذه المسألة من ادلة الكتاب والسنة، التي لايردها الا مشاق لله ولرسوله ؟ ولأنه قد ناقض ابن تيمية في كثير من المسائل ذهب اليها ، لظهور ضعف كلامه عنده . فلو كان واقفا على تقليده — كما وقفتم على رسوم شرح المنهج وغيره — لما فعل. فما باله يُسَوّغ لنفسه تقليد ابن تيمية في هذه المسألة دون غيرها ؟ فلقد حكيتم عجبا .

وقد قرأنا عليه وعرفنا مذهبه ، وانتم لاتعرفونه ، إنما يبلغكم عنه مايبلغ، فتأخذون في مضادته بلا بصيرة، ولاوازع لكم عن الرجم بالظنون والاوهام، ولاعلم يهدي الى تمييز الصحيح من ذى السقام .

فالعتب عليكم : أترضون ان يكون من خطاب مالايفهم ؟

وكفى دليلا على تنكبكم الصواب : ذكركم الاقوال من فروع المذهب في مقابلة مناهي صريحة صحيحة مشهورة في الصحاح وغيرها ، ثم تعرضكم لشيخ من شيوخ الإسلام ، وامام من جلة الأئمة الاعلام — وهو ابن تيمية — بأنه ضال مضل ، وما كان — رحمه الله تعالى — أهلا لهذا . والرجل أمره شهير، وأقواله ومذاهبه يتناقلها الجم الغفير . وما مثله يحتاج الى كشف عن رفيع محله ، وقد تعرض له ولتلميذه الإمام محمد بن أبي بكر بن ايوب الزرعي — هو ابن قيم الجوزية — رحمه الله تعالى بعض القائلين . وهما إمامان جليلان لاحقان بأماثل السلف . كالشافعي ، واحمد ، واسحاق، وغيرهم ،ومؤلفاتهما وتراجمهما ، ونقل اهل العلم لأقوالهما ومذاهبهما ونفائس تحقيقهما : كافية شافية مقنعة لمن عدل وأنصف .

الباب الثاني

في ذكر جملة شافية من الاحاديث الصحيحة ، والاخبار الصريحة الشاهدة بأن وضع القباب والبناء على القبور من أصله وتشريفها ، والكتابة عليها ، وتجصيصها واتخاذها مساجد ، ومايتصل بذلك : امر تقرر في الشرع منعه، وسبق الحكم الجازم بالنهي عنه ، والكف عن ارتكابه ، وثبتت القضية في ذلك ومضت كلمة الحق بسد ذريعته ، تحذيراً لنا ان نسلك سنن من قبلنا ، مع قطع النظر عن المفاسد المترتبة على ذلك .

واذا تأمل الناظر اعيان ماصح فيه النهي من الشارع في هذا الباب ، ثم نظر حرص هذه الأمم لارتكابها ، وتلوثهم بأدرانها ، وتهالكهم على مناقضة كل نهي من تلك المناهي بفعل غير المنهى عنه ، واتيانهم على كل فرد منها ، مع الحرص والمبالغة في ان لايشذ فرد طال تعجبه ، تارة من كون الشارع سبقهم ، وتقدم اليهم في امرها ، واكثر في شأنها بالنهي والتحذير ،واخرى من كون هؤلاء الخلوف ضلوا عن ذلك الرشد الأسعد ،فعمدوا الى كل مانهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فواقعوه، كأنهم كشفوا واستقصوا بالاستقراء والتتبع ، حتى أتوا على مشخصات مانهى عنه الشارع .

فلا يشك صادق التأمل :ان القوم سلكوا في العمل مسلك المضادة الوافية، ثم زادوا زيادة في درك النكال كافية .

وقد لخصت في (مدارج العبور) ماعرض لنا من بيان نهي الشارع عن البناء على القبور ، وماذكر معه ، وفيه كفاية مقنعة ،وأضفت الى ذلك إشارة الى مفاسد المشاهد ، ولكنني لااجد ترك التعرض هنا لذلك لائقاً ، لانه ربما يقف على هذا ، فلا يرى الا الإحالة على ماهنالك . فلا يجد لعلته نفعاً ، ولا لغلته نقعاً .

فأقول : قال الإمام الحجة الحافظ ، امام الدنيا في فقه الحديث ، ابو عبد الله البخاري ، في جامعه الصحيح :

حدثنا ابو اليمان قال : حدثنا شعيب عن الزهري ، اخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ؛ ان عائشة وعبد اللهبن عباس رضي الله عنهماقالا «لما نُـزِل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِقَ يطرح خَمِيصَة لهعلى وجهه فإذا اغتَمّ بها كشفها عن وجهه ، فقال –وهو كذلك– : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد – يُحَذّرُ ماصنعوا » .

حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه :ان رسول الله ﷺ قال«قاتل الله اليهود:اتّخَذُوا قبور أنبيائهم مساجد » انتهى بلفظه من كتاب الصلاة .

قلت: فتأمل هذهالقباب ، وماأُعِدّ فيها من المحاريب والفراش ،ومصاحف التلاوة ، واعتياد الصلاة فيها ، والتردد اليها في الاوقات ،للذكر ، والدعاء، والاعتكاف ، ومايطول تعداده .

هل لاتخاذ القبور مساجد معنى ، سوى هذا الذي تقضي الضرورة بأنـه عينه ؟ بل كثيرا ماوجدنا القباب والمشاهد أعمَر وأملأ بقاصديها من كثير من المساجد في جميع ماذكرنا . فلا ريب قد تتايَع الشر بأهليه .

وابو اليمان : هو الحكم بن نافع ،احد أئمة حفاظ الشاميين ، وكذا شعيب – وهو ابن ابي حمزة – وكل رجال الحديثين أعـــلام ، غنيون عن الكشف والاستعلام ، عند من أنس بهذه المشاعر الكرام .

وقال البخاري في كتاب الجنائز من جامعه :

حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن هلال – هو الوزان – عن عروة عن عائشة رضي الله عنهاعن النبيصلى الله عليه وسلمقال –فيمرضهالذيمات

فيه – « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، قالت : ولولا ذلك لأبرزوا قبره ، غير اني اخشى ان يتخذ مسجداً ».

حدثنا موسى بن اسماعيل – ابو عوانة – عن هلال – هو الوزان – عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ – في مرضه الذي لم يقم منه –: « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ولولا ذلك أبرز قبره ، غير انه خَشِيَ –او خُشِيَ ان يتخذ مسجداً ».

قلت : السياق الذي قبل هذا معيِّن ، لكون « خشى » مغير الصيغة ، ومرجح للتغيير في «ابرز» .

وقال تلميذه الإمام الشهير ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله في صحيحه :

حدثنا ابو بكر بن ابي شيبة وعمرو الناقد قالا : حدثنا هاشم بن القاسم قال : حدثنا شيبان عن هلال بن ابي حميد عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه .

قلت : فذكر الحديث بلفظ البخاري المار آنفاً ، إلا قوله : « غير انه خشى» فأورده مسلم بلا شك .

وقال مسلم ايضاً : حدثني هارون بن سعيد الايلي قال ؛ حدثنا ابن وهب قال : أخبرني يونس ومالك عن ابن شهاب قال : حدثني سعيد بن المسيب ان أبا هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :« قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

قلت : وهذا هو حديث البخاري المار بمتنه وسنده من مالك الى منتهاه .
وأخرجه مسلم أيضاً من طريق عبيد الله بن الأصم حدثنا يزيد بن الاصم عن ابي هريرة رضي الله عنه : انّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

ففيه : ابدال « قاتَل » « بلعن » واضافة النصارى الىاليهود . سوى مافي البخارى فهو ذو بيان وتكميل لذلك .

وذكر مسلم حديث الخميصة السابق . فقال : حدثني هارون بن سعيد الايلي وحرملة بن يحيى – قال حرملة : أخبرنا ، وقال هارون : حدثنا – ابن وهب قال : اخبرني يونس عن ابن شهاب قال : أخبرني عبيد الله ابنعبد الله .

قلت : فذكر الحديث بسنده ، ومَتْنِه عند البخاري سواء.فلا نكرره. فقد حصلنا على تخريج الشيخين له ، مع تعدد الطرق الى ابن شهابالزهري.

وقال مسلم ايضاً : حدثنا ابو بكر بن ابي شيبة واسحاق بن ابراهيم– واللفظ لابي بكر – قال اسحاق : اخبرنا ، وقال ابو بكر : حدثنا – زكريا بن عدى عن عبيد الله بن عمر عن زيد بنابي أنيسة عن عمرو بنمرة عن عبد الله بن الحارث الزُبَيدى النَّجْراني قال : حدثني جُنْدب قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم – قبل ان يموت بخمس – وهو يقول : « إني أبرأ الى الله أنْ يكون لي منكم خليل . فإن اللهقد اتخذني خليلا ، كمااتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت مُتَّخِذاً من امتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد . فلا تتخذوا القبور مساجد ، اني أنهاكم عن ذلك ».

حدثني ابو الطاهر احمد بن عمرو قال : حدثنا ابن وهب قال :اخبرني عمرو بن الحارث .

ح وحدثني هارون بن سعيد الايلى قال : حدثنا ابن وهب قال :حدثني عمرو بن الحارث – في رواية ابي الطاهر – ان ابا على المهراني حدثه –وفي رواية هارون بن سعيد : ان ثمامة بن شُفَيٍّ – قلت : هو ابو على – حدثه قال :« كنا مع فَضالةبن عبيد بأرض الروم بِرودُس ، فتُوفِّيَ صاحبٌ لنا . فأمر فضالة بقبره فَسُوِّيَ، ثم قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها ».

حدثنا يحيى بن يحيى وابو بكر بن ابي شيبة وزهير بن حرب – قال يحيى: أخبرنا ، وقال الآخران : حدثنا – وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ابي الهياج الاسدي قال : قال لي علي رضي الله عنه : « ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ان لاتدع تمثالا إلاّ طمسته ، ولا قبراً مُشْرِفاً الا سوَّيته » .

وحدثنيه ابو بكر بن خلاد الباهلي قال : حدثنا يحيى – وهو القطان – قال حدثنا سفيان قال : حدثني حبيب بهذا الإسناد ، وقال «ولا صورة إلا طَمَسْتَهَا » .

حدثني ابو بكر بن ابي شيبة قال : حدثنا حفص بن غياث عن ابن جريج عن ابي الزبير عن جابر قال « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يُجَصَّصْ القبر ، وان يُبْنى عليه ، وان يُقْعَدَ عليه » .

حدثني هارون بن عبد الله قال : حدثنا حجاج بن محمد .

ح وحدثني محمد بن رافع قال : حدثنا عبد الرزاق جميعاً – عن ابن جريج قال : أخبرني ابو الزبير : انه سمع جابر بن عبد الله يقول «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول بمثله » .

وحدثني يحيى بن يحيى قال حدثنا إسماعيل بن عُلية عن ايوب عن ابي الزبير عن جابر قال :« نُهي عن تجصيص القبور » .

انتهى ماذكره مسلم رحمه الله في صحيحه ، ولِلهِ أبُوهُ مِن حافظٍ بصيرٍ متقن.

وذكر الشيخ سراج الدين ابن الملقن في (البدر المنير) ورفيقه الحافظ الشيخ شهاب الدين ابن حجر العقسلاني في (مختصر البدر) ماحاصله من مجموعها :ان حديث جابر أخرجه ايضا الحاكم ولفظه : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان يبني على القبر ، او يُجَصَّصَ ، اويقعد عليه ، ونهى : ان يكتب عليه ».

وأخرجه ابن حبان ، ولفظه في رواية له عن ابي الزبير : سمع جابراً يقول « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنَ تجصيص القبور ، وان يُبنى عليها ، او يُجلس عليها » .

ورواه مختصراً « بذكر البناء » ليس إلا . قال الحاكم : « الكتابة » على شرط مسلم ، وهي صحيحة غريبة .

وهو عند ابي داود ايضاً .

وفي رواية له « اويزاد عليه » وبَوَّبَ عليـه البيهقي « لايُزادُ على القبر اكثر من تُرَابه ، لئلا يرتفع » .

وقد رويت تلك الزيادة – اعني : «الكتابة» عن جابر – من غير الوجـه السابق . فذكر الحاكم بإسناده اليه « نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبور ، والكتابة فيها ، والجلوس عليها ، والبناء عليها » .

قال : وهذه الأسانيد صحيحة ، وهذا اللفظ احد روايات ابن حبان ، انتهى ماَّلخَصْناه من البدر المنير وفرعه .

وقال الإمام ابو داود سليمان بن الاشعث في سننه : المعروف : « بابٌ في تسوية القبور »ثم ذكر حديث أبي الهياج عن علي ، وحديث فضالة المتقدمين، اللذين أخرجهما مسلم ، وبأسانيده ايضاً – خلا ان شيخ أبي داود في حديث علي هو : محمد بن كثير العبدي البصري – ثم قال: «بابٌ في البناء على القبر» .

حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج أخبرني ابو الزبير أنه سمع جابراً رضى الله عنه يقول « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى ان يُقْعَد على القبر ، وانْ يجصص ، وأن يُبْنَى عليه » .

وهو لفظ مسلم المتقدم ، وسنده من عبد الرزاق الى منتهاه ، وإنما أمليناه لفائدة في الإسناد كما ترى ، وللاختلاف في اللفظين بالتقديم والتأخير فقط ، وهو في التحقيق لايعد اختلافاً .

ثم قال : حدثنا مسدد وعثمان بن أبي شيبة قالا : حدثنا حفص بن غياث عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن أبي الزبير عن جابر بهذا الحديث . قال عثمان « او يزاد عليه » وزاد سليمان بن موسى : «او ان يكتب عليه»

ولم يذكر مسدد في حديثه « او يزاد عليه » .

قال ابو داود :خَفِيَ عليّ حرفٌ من حديث مسدد:حرفُ واوٍ . انتهى.

ثم ذكر حديث ابي هريرة المتقدم « قاتل الله اليهود – الخ » بسند البخارى بعينه .

وقال الإمام ابو عبد الرحمن النسائي في (كتاب المجتبى) « الزيادة : على القبر » .

أخبرنا هارون بن إسحاق قال : حدثنا حفص عن ابن جريج عن سليمان ابن موسى ، وأبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان يبني على القبر » .

أخبرنا عمران بن موسى قال : حدثنا عبدالوارث قال : حدثنا أيوب عن ابي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبور » .

ثم قال : « تسوية القبور اذا رفعت » .

فذكر حديث علي وحديث فضالة رضي الله عنهما المتقدمين بنحو مما ذكر مسلم وابو داود .

ثم قال ، بعد أبواب يسيرة : « اتخاذ القبور مساجد » .

فذكر من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً « لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

ومن حديث ابي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وأسانيده ثقات شُمُوسٌ .

وقال الإمام ابوعيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة –هوالترمذي– في جامعه :

إذ أسند عن جابر رضي الله عنه « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُجَصَّصَ القبور ، وان يكتب عليها ، وان يبنى عليها، وان تُوطَأ ».

هذا حديث حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن جابر . انتهى.

وقال الإمام محمد بن يزيد القزويني – هو ابُن ماجة – في سننه ، احد الكتب الستة على التحقيق : « باب ماجـــاء في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها ، والكتابة عليها ».

فذكر من حديث ابي سعيد الخدري بسند صحيح متصل ثقات أئمة :« ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى ان يبنى على القبر».

وذكر من حديث جابر بن عبد الله رضى اللهعنهما«نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تَقْصِيصِ القُبورِ[1] ،وان يكتب على القبر شئ ».

واخرج الإمام احمد في المسند والطبراني في المعجم الكبير من حديث أسامة ابن زيد – ورجاله موثقون – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادخلوا عليّ أصحابي . فدخلوا عليه . فكشف القناع ، ثم قال : لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

وهو كحديث ابي هريرة عند مسلم، الذي ذكرناه قريباً، لَفْظُهُ لَفْظُهُ، فيها بيان لمعنى : «قاتل» وفيها زيادة « النصارى » على ماعنـــد البخاري كما أشرنا .

وأخرج الطبراني في الكبير من حديث زيد بن ثابت مرفوعـاً ، ورجاله موثقون ايضا « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

ومن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه –وحَسَّنَ في مجمع الزوائد إسناده – : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شرار الناس : مَنْ تُدْرِكهم الساعة وهم احياء ، ومن يتَّخذ القبور مساجد » .

---

(1) تقصيص القبور : هو تجصيصها والقصة – بضم القاف – هي الجص

وروى البزار – قال في مجمع الزوائد : رجاله ثقات –من حديث أبي عبيدة ابن الجراح مرفوعاً « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

ولو ذهبنا نستقري ماذكره أئمة السنة ، وحفاظ الحديث في هذه المسألة ، وما رَوَوْهُ في المسانيد والجاميع ،والمعاجم ،والجوامع ،والسنن ،والاجزاء ، والتفاسير الاثرية ، لاتسَع النِّطاق ، وضاق عن الاستيعاب الخنــاق ، وتصدى المرء في ذلك لما يتعسر ان يُطاق ،وفيما ذكرناوَفاءٌ بالمقصودوَوِفاق ، وأقل منه يكفي عند الفُطناء الحذاق .

فإذا تصفحت ماسقناه ، وماذكرناه في هذه القباب والمشاهد ، ومصارع الموتى وأهل دار البرزخ :من الابنية ، والتجصيص ،والكتابة ، والتشريف ، واتخاذها مساجد ، ووضـــع المحاريب والفرش ، وإعداد الماء والمصاحف والتردد عليها والاعتكاف ، والصلاة والتلاوة عندها ، وجدت جميع مانهى عنه فرداً فرداً قد أبْرِزَ في عالم التحصيل والايجاد . وهذه كتب الإسلام ، وعمدة الاعلام ، مُعَوَّلُ ذوي الاحلام ، ومعاهد الشريعة التي جاء بها خاتم الرسل الكرام ، عليه وعليهم أزكى صلاة وسلام–نَاطِقَةٌ طافحة مُنَادية بضلال من خالف مارسمت ، وتفارُطِ غَيِّه ، وطغيانِ فسادِه ولَيِّه .

هذا بالنظر الى اعيان تلك المناهي ، مع الإغماض عمــا ترتب على مخالفتها أيضاً مِمّا لايَدانِ للأقلام بحصره وعَدِّه ،ولا قدرة للبشر ان يقفوا على نهايته وحده ، كتوافد الجموع الغفيرة لهذه الزيارات ، واقتحام أنواع المفاسد الوثنية والمنكرات ، ومافي طَيِّ إحياء هذه المشاهد من القبائح المتوفرات . فإنــه بمجرده مُؤذن بتَحَتُّمِ تدمير هذه المشاهد والقباب ،والأبنية الــتي صارت معتكف كل طامة ، ومناخ فُجُورِ أهل الفسوقِ والعقوق من العامة . ومن لايعرف ماذكرنا ، او هو مرتابٌ في وقوع شيء منــه ، او لايستقبحه : فأمْرُهُ أطْرَفُ من ان يوصف .

ولايصحح لك اسمَ السنى إلا عملُك وتدينُك بمــا صح عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم حسبُ ، لاتوزيع المصلين في المسجد الحرام ، وإشْغَالُ بعضه بأبنية وُضِعَتْ باسم هذا الإمام أو ذاك الإمام . والابتداع المجاوز في دين ربنا المؤمن السلام ، وسَحْبُ أذْيَالِ الثياب ، ووحدة الوجود التي من دان بها أُذيق أليم العذاب ، وتقطيع الصفوف في صلاة الجماعة ، وإهمال الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو من أشراط الساعة ، ومالايأتي عليه العد مما لايعرف هؤلاء الخلوف سواه قربة وطاعة ، أو يستحلونه وهو من السنة الشريفة وأوضاعها بمسافة بعيدة ، وناحية نازحة مديدة .

فمن أنكر عليهم ، أو جانبهم الى نهج الرشد : كان إنكاره عندهم هو المنكر فاعرف السنة تعرفْ مقابلها. فَبِضِدِّها تتميَّز الأشياء، وشَرَّف الله قدر الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة الإسلام عن التهالك على البدع ، وترك شيء صح لهم وعلموه من هدى النبي الامين المتبع .

فها نحن في هذه المسألة – التي نحن بصدد الكلام فيها – أتينا لهم بهـــذه الجبال الرواسي من محلها، والبراهين الصريحة من الكتب المشهورة ، بالاسانيد الصحيحة ، وهم أشد الفرق ملابسة لها وتدريساً فيها ، وعنايةً بسماعها وتنقيحها ، ولكنهم خاضوا بحارَ الحب دعوى . فما ابتلُوا حتى ماكأن هذه النصوص بين ظهرانيهم ، تتلى في بيوت الله بينهم ، وتسمع بسماع الكتب التي هي فيها ، ولايقدرون على إنكار ماسردناه منها قطعا ، وان أمين السماء والارض قام بذلك ونصح ، ونادى بصرائحه وأفصح ، وماطاقوا إبانة حرف ، اونطقوا ببنت شفة مما يحتج به العقلاء . فضلاً عن الفضلاء . وشرح زكريا الانصاري مايصلح دفعا في وجوه تلك الكتائب ، ولاجرمَ ، مَالوُا عن حَميد طرائق الأئمة ، من اهل السنة وعلماء الامة .

فقل لي ياموفق ، أي كلمة من الشارع ، او خبرٍ أبانوه ، اوسُنة أثروها ، أو شبهة تمسكوا بها في تجويزهم البناء على القبور ، واتخاذها مساجد ، ومايلحق بذلك ،

ومايُعْجِز مَن خالفهم ، ورأى ماهم عليه باطلاً ، عن مثل دعاويهم الـــتي اجلبوا بها في هذه المسألة ؟

ولا سلامة ولا عصمة للمتدين سوى الاعتصام بالتيقظ والنظر . والهجومُ على المطلوبِ قريبٌ لمن حَسُنَ قَصْدُهُ ،وخلصت نيته ،وقرع باب التفكر والتدبر ،الذي حَثَّ عليه كتابُ ربنا الحميد المجيد،وجَعَلَهُ الوسيلةَ ،الى الظفر بالفوز الابديّ والنعيم السرمديّ، وإلا فلولم يكن هذا مسلكا صحيحا تهدي الضرورة إليه ، ماامتاز غَبِيٌّ عن مُهْتَدٍ ولا راشد من غَوِيٍّ ، لان الناس ذَوِي نِحَلٍ مختلفة . وطرائقَ متباينة غير مؤتلفة ، كما علمت . وباب الدعوى كل منهم اخذ بعَضاضتيه . فلابُدَّ من الانتهاء الى حَدٍّ في فصل هذا من هذا . وهو المطلوب ، الذي جعلنا قنطرة العبور اليه . وهو ماأرشد ربنا إليه من التدبر والتفكر ، والتنقيب والانتقاد . فهو الفرقان بنص القرآن ، ولافرق في هذا الباب بين حكم فَرْعيٍّ ، او عقيدةٍ ، او تحليلٍ ، او تحريم ، او إيمان بالله ، او غير ذلك من الشرائع الدينية ، وهِجْرةٍ لمذهبٍ ،او سلفاو آدابٍ ،او شيخيصيبُ ويخطيء، ويعلم ويجهل. فعجبٌ لايتناهى .

واعلم : ان مَنْ تأمل ماذكروه في هذه الفتاوى– بزعمهم – ظَنَّ انَّ إطْبَاقَ تحاصيل فروع مذاهبهم ، وما استقر أمرها عليه : كذلك ، وهو وَهَمٌ فاحشٌ ، لأنهم إنما ذكروا من تلك الاقوال : مايُوَافِقُ أهواءهم ، وإلاّ فهذا الذي ذهبنا اليه أمرٌ مشهورٌ في كتب المذاهب الاربعة .

ومن ذلك : ماذكره ابن حجر الهيتمي في كتابه (الزواجر عن اقتراف الكبائر) في تفصيل الكبائر الظاهرة ، مالفظه : الخامسة ، والسادسة ، والسابعة ، والثامنة ، والتاسعة والتسعون : اتخاذالقبور مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، واتخاذها أوثاناً والطواف بها ، واستلامها، والصلاة اليها.اه.

ثم ذكر ماعنده في الباب .

وكذلك ماذكره البيهقي في هذه المواضع . من « سننه الكبير » وغيره من الأثريين، وغيرهم من اهل المذاهب الاربعة. فلايتوهم القاصر خلاف الواقع.

وأما الإمام ابن القيم صاحب « إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان » فقد أوعب في هذا الموضع . ونقل عن الشافعي واحمد وغيرهما وكبار أتباعهم ، كأبي الوفاء بن عقيل . وابي محمد بن عبد السلام ، وابي محمد المقدسي وغيرهم ، وعن أصحاب احمد وغيرهم من أصحاب الشافعي ومالك — هكذا على العموم ، او اراد الجنس — وكلا الجهتين خادش في زعم إطباق اتباع الاربعة على مافي شرح زكريا الانصاري ، وحاشية الزيادي ، وأخواتها .

ولا بأس بنقل كلامه او جمهوره في ذلك ، والاكتفاء به عن نقل نصوص أئمة المذاهب الاربعة « فقد ذكرناه مضافاً الى ماسمعت فيما مَرَّ ، لتعرف ان اقوال مَنْ قال : ان وضع القباب والمشاهد : امرٌ رآه المسلمون حسناً ، وأجمعت عليه الامة ، واستمر عليه السلف والخلف » بَهْتٌ صريح ، وفِرْيَةٌ بارزة ، قالها مَنْ لايبالي بالملام ، ولايدري مايقوله من الكلام ، ولايُقَدِّر موقفه بين يدي الملك العلام ، وإنه قد قال باطلاً على الله ورسوله ، وجماعة علماء الإسلام .

ولاتستطل مانقلناه من كلامه ، وان كان في نحو كراسة او نيف ، لانه كثير الفوائد ، جَمّ العوائد ، حَسَنُ الإيراد والتحقيق .

قال الإمام ابن القيم في « إغاثة اللهفان » رحمه الله ، وقدس روحه — ماحاصله مع اكثر لفظه واختصاره :

إن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه : اقربُ الى النفوس من الشرك بخشبته اوحجره ، ولهذا تجد اهل الشرك كثيرا مايتضرعون عند قبر مُعَظَّمهم ، ويخضعون ويخشعون عنده ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لايفعلونها في بيوت الله ، ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد للقبور ، واكثرهم يرجون من بركة الصلاة

عندها مالايرجون في المساجد . فلأجل هذه المفسدة حَسَمَ النبي صلى الله عليه وسلم مادتها . حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا ، وان لم يقصد المصلي بركة البقعة .

واما اذا قصد الرجل الصلاة عند القبور تَبَرُّكاً بتلك البقعة . فهذا عين المحادة لله ورسوله ، والمخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله .

فإن المسلمين اجمعوا على ماعلموه بالاضطرار من دين رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الصلاة عند القبور منهي عنها ، وانه صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذها مساجد .

فمن اعظم المحدثات واسباب الشرك : الصلاة عندها ، واتخاذها مساجد ، وبناء المساجد عليها . فقد تواترت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه .

وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن البناء عليها ، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . فقد صرح اصحاب احمد وغيرهم من اصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك ، وطائفة اطلقت الكراهة . والذي ينبغي : حملها على كراهة التحريم ، إحساناً للظن بالعلماء ، وان لايُظَنَّ بهم ان يجوزوا فعل ماتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عنه ، ولعن فاعله .

ثم قال الإمام ابن القيم بعد ان ساق الاحاديث في ذلك :

وبالجملة : فمن له معرفة بالشرك واسبابه وذرائعه ، وفَهِمَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاصده . جَزَمَ جزماً لايحتمل النقيض : ان هذه المبالغة منه صلى الله عليه وسلم باللعن والنهي بصيغتيه : صيغة « لاتفعلوا » وصيغة «إني انهاكم» ليست الالاجل الشرك اللاحق بمن عصاه ، وارتكب ماعنه نهاه ، وقَلَّ نصيبه او عُدِمَ من تحقيق شهادة انْ لااله الا الله . فإن هذا وامثاله من النبي ﷺ صِيَانَةٌ لِحِمَى التوحيد . فأبى المشركون الامعصية لامره ، وارتكابا لنهيه ، وغرهم الشيطان فقال : هذا تعظيم لقبور المشائخ والصالحين ، وكلما

كنتم أشد لها تعظيما ، وفيها غلواً ، كنتم بقربهم اسعد ، ومن اعدائهم ابعد .

فجمع المشركون بين الغلو فيهم ، والطعن في طريقتهم . وهدى اللهُ اهلَ التوحيد لسلوك طريقهم ،وانزالهم منازلهم التي انزلهم الله إياها من العبودية ، وسلب خصائص الإلهية .

قال الشافعي رحمه الله : اكره ان يعظَّم مخلوق. حتى يُجعل قبره مسجداً ، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس .

وقال الاثرم : انما كرهت الصلاة في المقبرة للتشبه بأهل الكتاب ، لانهم يتخذون قبور انبيائهم وصالحيهم مساجد .

وهكذا اتخاذ القبور عيدا ، والعيد : مايعتاد مجيئه وقصده. فإنَّ هذا الاتخاذ من اعياد المشركين ، التي كانوا عليها قبل الاسلام . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ قبره – سيد القبور – عيداً مُنَبِّهاً به على قبره .

فقد أخرج ابو داود – بسندٍ رواته ثقات مشاهير ، عن ابي هريرة مرفوعا « لاتجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا عليَّ . فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ».

وقال ابو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا زيد ابن الُحباب حدثنا جعفر بن ابراهيم – من ولد ذى الجناحين – حدثنا علي ابن الحسين « أنه رأى رجلاً يجيء الى فرجةٍ كانت على قبر النبي صلى الله عليه وسلم . فيدخل فيها فيدعو . فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لاتتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً . فإن تسليمكم على يبلغني أينما كنتم » . رواه ابو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في المختارة .

وقال سعيد بن منصور في السنن: حدثنا حبان بن على حدثنا محمد بن عجلان عن أبي سعيد – مولى المهري – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« لاتتخذوا بيتي عيداً ، ولابيوتكم قبوراً ، وصلوا علي حيث كنتم . فإن صلاتكم تبلغني » .

وقال سعيد : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: « رآني على بن الحسين بن علي بن ابي طالب عند القبر . فناداني ، وهو في بيت فاطمة يتعشى . فقال : هَلُمَّ الى العشاء ، فقلت : لاأريده . فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سَلَّمْتُ على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لاتتخذوا قبري عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر . لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا عَلَيَّ فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ،ماأنتم ومن بالأندلس إلاسواء» .

قال شيخ الإسلام : ووجه الدلالة منه : أن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل قبر على وجه الارض ، وقد نهى الرسول عن اتخاذه عيداً . فغيره أولى .

وقد حَرَّفَ هذه الاحاديث من أشبه النصارى بالشرك ،واليهود بالتحريف. فقال : هذا امر بملازمة قبره صلى الله عليه وسلم ،والعكوف عنده ،ولايكون عيداً يؤتى في الحول فقط .

وهذه مراغمة ومحادة ، ومناقضة لما قصده الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونسبة للرسول الى التدليس والتلبيس .

فإن كون هذا المقصود منه الملازمة دون التباعد : أقرب الى التلبيس منه الى البيان ، ولو اراد ﷺ ماقاله هؤلاء الضلال : لما نهى عن اتخاذ قبور الانبياء مساجد ، ولا لعن فاعل ذلك .فإنه اذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها ، فكيف بملازمتها والعكوف عندها ؟

وهذا فهم شذبه هؤلاء عن الصحابة واهل البيت . ورأيت في ذلك لأبي الوفاء بن عقيل رحمه الله فصلا حسناً ، ذكرته بلفظه .

قال : لما صعبت التكاليف على الجهال والطَّغام : عدلوا عن اوضاع الشرع

الى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم . فسهلت عليهم . اذ لم يدخلوا بها تحت امر غيرهم ، قال : وهم عندي كفار بهذه الاوضاع ، مثل : تعظيم القبور ، واكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران عندها ، وتقبيلها ، وتخليقها ، وخطاب الموتى بالحوائج ، وكتب الرقاع ، فيها : يامولاي ، افعل لي كذا وكذا ، واخذ تربتها تبركا ، وإفاضة الطيب على القبور ، وشد الرحال اليها ، والقاء الخرق عليها وعلى آثار الموتى ، من الحجر والشجر اقتداء بِمَنْ عَبَدَ اللات والعزى . انتهى .

ونهى عمر بن عبد العزيز : ان يبني القبر بآجُرٍّ ، واوصى : ان لايفعل ذلك بقبره ، وأوصى الاسودُ بن يزيد : « ان لاتجعلوا على قبري آجُرّاً » .

وقال ابراهيم النخعي : كانوا يكرهون الآجر على قبورهم .

والمقصود : ان هؤلاء المعظمين القبور ، المتخذين لها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب : مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محادون لما جاء به . وأعظم ذلك : اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، واتخاذها أعياداً ، وهو من اكبر الكبائر .

وقد صرح الفقهاء من أصحاب احمد وغيرهم بتحريمه .

قال ابو محمد المقدسي : ولو ابيح اتخاذ السُّرُج عليها : لم يلعن مَنْ فعله قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ماصنعوا » اه

وقد آل الامر بهؤلاء الضلال المشركين الى ان شرعوا للقبور حجا، ووضعوا له مناسك حتى صنف بعض غلاتهم كتاباً سماه « مناسك حج المشاهد » ولا يخفى ان هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول في دين عباد الاصنام .

وقد وقع من المفاسد من زيارة هذه القبور : مايعجز القلم عن حصره.

والمشروع فيها : إنما هو تذكر الدار الآخرة ، والإحسان الى الميت المزور بالدعاء ، والترحم ، والاستغفار ، وسؤال العافية . فقلب القبوريون الامر ،

وعكسوا وعاكسوا مقاصد الشرع ، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت والدعاء به ، وسؤاله الحوائج ، واستنزال البركات ، والنصر على الاعداء . فأساءوا الى نفوسهم والى الميت ، ولولم يكن إلا بحرمان الميت فائدة ماشرعه الله له من الدعاء له والترحم عليه لكفى .

واسمع الآن زيارة أهل الإيمان التي شرعها الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم وازن بينها وبين زيارة أهل الشرك ، التي شرعها لهم الشيطان ، واختر لنفسك .

ثم ذكر أحاديث زيارة القبور عند مسلم والترمذي وأحمد والنسائي وابن ماجة ، وهي معروفة مشتملة على الاستغفار للميت وغيره ، ومن اراد الاطلاع عليها فهذه محالها .

ثم قال الشيخ ابن القيم : فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته ، وعلمهم إياها ، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع ، أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه ؟ .

وما أحسن ماقال مالك بن أنس رحمه الله : « والله لن يُصلح آخر هذه الامة ، إلا ماأصلح أولها » .

فقد بَدَّلَ اهل الشرك والبدع قولاً غير الذي قيل لهم ، بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه ، والشفاعة له بالاستشفاع به ، وسألوه ، وأقسموا به على الله تعالى — الى ان قال :

فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اهل القبور . حتى توفاه الله ، وسنة الخلفاء الراشدين ، وهي طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم .

فهل يمكن لبشر على وجه الارض ان يأتي عن احد منهم بنقل صحيح او حسن ، او ضعيف ، او منقطع : انهم كانوا اذا كان لهم حاجة قصدوا القبور .

فَـدَعَوْا عندها ، وتمسحوا بها وطافوا حولها، واتخذوها أعياداً ؟ فضلا عن الصلاة وسؤال الله بأصحابها ؟ فهات اثراً واحداً ، او حرفاً واحداً ، واما سواه فالمصنفات به ناطقة .

وقد ذكر محمد بن اسحاق في « مغازيه » من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار : حدثنا ابو العالية – فذكر قصة وجودهم دانيال على سريره ميتاً ، وعند رأسه مصحف – قال : « فيه سيرتكم واموركم ، ولحون كلامكم ، وماهو كائن بعد » فأخذوا الرجل فدفنوه ، واخفوا قبره ، واعموه عن الناس ».

فهذا مافعله المهاجرون والانصار ، ولم يبرزوا قبره للشرك والدعاء . ولو ظفر به المتأخرون لَجَالَدُوا عليه بالسيوف . فهم قد اتخذوا من قبور من لايدانيه أوثاناً .

والتابعون دَرَجُوا على سبيل من قبلهم ،وقد كان عندهم من قبور اصحاب رسول الله ﷺ بالامصار الْعَدَدُ الكثير . فما منهم من احد استغاث عند قبره ، ولادعاه ، ولا دعا به ،ولا دعا عنده ،ولااستشفى به ،ولااستنصربه .

ومن المعلوم : ان هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، بل لقد نقلوا ماهو دونه ، فكيف تجهله القرون الفاضلة ، مع كونـــه من معظم اسباب النجاح،ولا يروى عنهم الا مايخالفه؟ ولايتأتى انيعلموا فضله،ثم لايقصدونه، هذا محال طبعاً وشرعاً .

وقد انكر الصحابة رضي الله عنهم ماهو دون هذا بكثير .

فروى غير واحد عن المعرور بن سويد قال : « صليت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طريق مكة . فرأى الناس يذهبون مذاهب .فسأل ؟فقيل له : مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ ، فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتتبعون آثار انبيائهم ، ويتخذونها كنائس وبيعاً .فمن ادركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل ، ومن لافلايتعمدها ».

ولذلك قطع عمر الشجرة التي كان تحتها بيعة الرضوان، وخبر ابي واقد

الليثي في ذات أنواط : مشهور في سؤال الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهم في طريقهم الى حنين – « أن يجعل لهم ذات أنواط . كذات أنواط المشركين ؟ » وجوابه صلى الله عليه وسلم بقوله : « الله أكبر ، لقد قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها ، كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . لتركبن سنن من كان قبلكم » رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح

فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الاسلحة ، والاستظلال بظلها اتخاذاً لها إلهاً مع الله ، مع أنهم لايعبدونها ، ولايسألونها ، فما الظن بالعكوف حول القبر ، والدعاء به ، وعنده ، ودعائه ؟ فأي نسبة بين الامرين ؟ .

قال أبو بكر الطرطوشي : فانظروا – رحمكم الله – أينما وجدتم سِدْرةً ، أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ، ويرجون البركات والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهي ذات أنواط . فاقطعوها .

ومن له خبرة بما بعث الله به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب : علم أن بينهم وبين السلف أبعد مما بين المشرق والمغرب وأنهم على شيء والسلف على نقيضه .

وذكر أبو العباس ثعلب : حدثني محمد بن عبيد بن ميمون حدثني عبد الله بن إسحاق الجعفري قال : « كان عبدالله بن الحسن يكثر الجلوس الى ربيعة . فتذاكروا يوماً السنن ، فقال رجل – كان في المجلس – : ليس العمل على هذا؟ فقال عبد الله : أرأيتَ إن كثر الجهال ، حتى يكونوا هم الحكام ، أفيكونون هم الحجة على السنة ؟ فقال ربيعة : أشهد ان هذا كلام ابناء الانبياء » .

ومن الانصاب التي هي رجس من عمل الشيطان : ما قد نصبه الشيطان للمشركين من شجرةٍ أو وثنٍ ، او عمودٍ ، او قبرٍ ، او خشبة ، او حجارة ، أوغيرها . فالواجب هدمه ومحو اثره كما امر رسول الله صلى الله عليه

وسلم علياً رضى الله عنه حين بعثه الى اليمن بهدم القبور المشْرِفة ، وتسويتها بالارض ، وهو في صحيح مسلم .

وروى ابن وضاح في كتابه قال : سمعت عيسى بن يونس يقول « أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان، لأن الناس كانوا يذهبون . فيصلون تحتها . فخاف عليهم الفتنة » قال عيسى بن يونس : وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع .

والقباب على القبور كذلك ، لأنها أسست على محادة الله ومشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأعظم الفتنة بالأنصاب: فِتْنَةُ اصحاب القبور ، وهى اصل فتنة عباد الأصنام ، كما قاله السلف من الصحابة والتابعين .

فمن اعظم كيد الشيطان بها : أنه ينصب لاهل الشرك قبراً معظماً معبوداً، ثم يوحي الى اوليائه : أن من نهى عن عبادته ، واتخاذه عيداً ووثناً ، فقد تَنَقَّصَه وهضمه، فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته ، ويكفرونه، وذنبه عندهم : هو أمْرُهُ لهم بما امرهم به الله ورسوله من هدم القبور المشرفة والانصاب، ونهيهم عما نهى عنه الله ورسوله: من جعله وثناً وعيداً، وإيقاد السرج عليه، وبناء المساجد والقباب عليه. وتجصيصه، وإشادته وتقبيله، واستلامه، ودعائه، والدعاء به ، والسفر اليه ، والاستغاثة به من دون الله ، مما قد علم بالاضطرار من دين الاسلام: أنه مضاد لما بعث الله به رسوله من تجديد التوحيد.

فإذا نهى الموحد عن ذلك غضب المشركون، واشمأزت قلوبهم، وقالوا :قد تَنَقَّصَ اهل الرتب العالية، وزعم انهم لاحرمة لهم ولاقدر . وسرى ذلك في نفوس الجهال، وكثير ممن ينتسب الى العلم والدين. حتى عادوا اهل التوحيد ، ورموهم بالعظائم ونَفَّروا الناس عنهم ، وَوَالَوْا أهلَ الشرك وعظموهم،

وزعموا : أنهم اولياء الله وانصاردينه ورسوله . ويأبى الله ذلك، إن اولياؤه إلاالمتقون المطيعون له، العارفون بما جاء به رسوله ،الداعون اليه، لا َلا َبِسوا ثيابالزور ، المتشبعون بما لم يعطوا ، الذين يصدونالنـــاس عن سنة نبيهم ، ويبغونها عوجاً ، وهم يحْسَبُون أنهم يُحْسِنُون َ صُنْعاً .

ولا َتحْسَبايها المنَعم عليه باتباع صراطالله المستقيم : أنّ النهي عناتخاذ القبور مساجد واعياداً ، وعنإيقاد السرج عليها ، والسفر اليها ، والنذر لها ، واستلامها، وتقبيلها ، وتعفير الجباه في عَرَصاتها ، ونحو ذلك : غضمنقدر أصحابها، ولاتـَنَـقُّصلهم، كما يحسبه الضلال، بلذلكمنإكرامهمومتابعتهم فيما يحبونه، وَتجَنُّب ما يكرهونه . فأنت والله ِ وليُّهم ومحبُّهم ، وناصِرُ طريقتهم وسنتهم ، وعلىهديهم ومناهجهم . وهؤلاء المشركون ِمنْ أعْصَى الناس للهِ ولرسوله ، واغضبهم له ، وابعدهم من هديه ، كالنصارىمع المسيح عليه السلام والرّ َوافِض ِمع عليّ ِرضي الله عنه .

فأهل الحق اولى باهل الحق مناهل الباطل (٩ . ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض) والقلوب إذا اشتغلت بالبـــدع ، اعرضت عن السنن فتجدا كثر هؤلاء العاكفينعلى القبور مُعْرِضِين عن طريقة ِمَن فيها وَسُنَّتِه مشتغلين بقبره عما دعا اليه وامر به من إخلاص الدين والعبادة لله وحده .

وتعظيم الانبياء والصالحين ومحبتهم : إنما هي باتباع مادعوا اليه:من العلم النافع ، والعمل الصـالح ، واقتفاء آثارهم ، وسلوك طريقتهم ، دونعبادة قبورهم، والعكوفعليها، واتخاذهااعياداً . فأي تعظيم لهمواحترام فيهذا؟

وإنما اشتغل كثير من الناسبأنواع من العبادات المبتدعة ، التي يكرهها الله ورسوله ، لإعراضهم عن المشروع ، أو بعضه،وإن قاموا بالصورة الظاهرة . فقد حـُرموا المقصود منه ، الذى هو تعبيد القلوب لمقلبها وخالقها وبارئها وحده سبحانه .

وَمَنْ أصغى الى كلام الله ورسوله بقلبه ، وتدبره بكليته ، وحدث نفسه باقتباس الهدى والعلم منه ، لامن غيره : اغناه عن البدع ، والآراء ، والتخرصات والشطحات ، والخيالات .

فإن قيل : فما الذي اوقع عُبّاد القبور في الافتتان بالقبور ، مع العلم بأن أهلها اموات لا يملكون لهم ولا لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ؟ .

قيل : الموقع أمورٌ كثيرةٌ .

منها : الجهل بحقيقة ما بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل جميع رسله صلوات الله عليهم : من تحقيق التوحيد ، وَقَطْع أسباب الشرك ، وحرمانهم من العلم الصحيح من كتاب الله وسنة رسولهالذي يبطل دعوة الشيطان الى الفتنة .

ومنها : احاديث مكذوبة مختلقة ، وضعها أشباه عبادالاصنام من المقابِرِيّةِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم تُنَاقِضُ دينه وشرعه ، كحديث « اذا أعيتكم الامور . فعليكم باصحاب القبور » وحديث « لو احسن احدكم ظنه بحجَرٍ لنفعه » وأمثال هذه الاحاديث المناقضة لدين الاسلام . والله قد بعث رسوله صلى الله عليه وسلم لقتل من حَسَّنَ ظنه بالاحجار ، وقد حذر صلى الله عليه وسلم امته الفتنة بالقبور من كل طريق ، كما تقدم .

ومنها حكاياتٌ ، ملفقة مكذوبة لترويج عبادة القبور ، كقول القائل: استغاثَ فلان بالقبر الفلاني ، فتخلص من شدته ، وربما يدعو الإنسان عند قبر ـ وهو مضطر منكسر ـ فيجاب ، بحيث لو دعا على تلك الحال في حمام أو سوق لأجيب ، ولو كان كافراً ، (١٧ : ٢٠ كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً) وليس كلُّ مَنْ أجاب الله دُعَاءَه يكون راضياً عنه ، محبًّا له ، راضياً بفعله . فإن الإجابة تكون لِلْبَر

والفاجر ، والمؤمن ، والكافر ، وكثير من الناس ربما يعتدي في دعائه او يشرك ، فيحصل مطلوبه او بعضه . فيظن – لعماه وجهله – ان عمله صالح، كمَنْ أمَدَّه الله بالمال والبنين ، وهو يظن ان الله يسارع له في الخيرات .

وفي فتاوى ابي محمد بن عبد السلام : أنــه لايجوز سؤال الله بشيء من مخلوقاته لا الانبياء ولا غيرهم وَتَوَقَّفَ في نبينا صلى الله عليه وسلم، لاعتقاده ان ذلك جاء في حديث ، وانه لايعرف صحة الحديث .

والمقصود : ان الشيطان – بلطف كيده – يُحَسِّن لمن حرموا العلم النافع : الدعاء عند القبر ، وانه ارجح من الدعاء في بيته ومسجده . فإذا صدقه في ذلك دعاه الى درجة اخرى من الدعاء عنده ، ثم الى الدعاء به ، والإقسام به على الله . وهذا اعظم من الاول . فإذا استجاب لذلك دعاه الى دعاء الميت نفسه من دون الله . ثم ينقله الى ان يتخذ قبره معتكفاً ، وان يوقد عليه القنديل ، بل ويضع عليه الستور ، ويقيم عليه المسجد ، ويعبده بالسجود له ، والطواف حوله ، والتقبيل ، والاستلام ، والحج اليه ، والذبح عنــده ، ثم ينقله الى دعاء الناس الى عبادته واتخاذه عيداً .

والفرق بين زيارة الموحدين والمشركين : ان المقصود بالزيارة عنــد اهل التوحيــد : هو تذكر الآخرة والاعتبار . والإحسان الى الميت بالدعاء له والاستغفار واتباع السنة .

ولم يشرع الله سبحانه وتعالى دعاء الميت ، ولا الدعاء به ، ولا الصلاة عنده .

وزيارة المشركين : اصلها مأخوذ عن عبادة الأصنام ، فان عباد الأصنام قالوا : الميت المعظم . الذي لروحه قرب ومزية عند الله ، لاتزال تأتيــه الألطاف من الله ، وتفيض على روحه الخيرات . فإذا علّق الزائر روحــه به ، فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الالطاف بواسطتها ، كما ينعكس الشعاع عن المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له .

قالوا : فتمام الزيارة : أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه الى الميت ،لايبقى فيه التفات الى غيره .

وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب الى انتفاعه به .

وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما ،وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها .

وقالوا : اذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية ،فاض عليها منها النور.

ولهذا السر عبدت الكواكب واتخذت لها الهياكل ،وصنفت لها الدعوات ، واتخذت الأصنام المجسدة على صورها . وهـذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور : اتخاذها أعياداً ، وتعليق الستور عليها ، وايقاد السرج عليها ،وبناء المساجد عليها . وهو الذي قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابطاله ومحوه بالكلية ، وسد الذرائع المفضية اليه. فوقف المشركون في طريقه ،وناقضوه في قصده ، وكان في شق وهؤلاء في شق آخر .

وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور :هو الشفاعة التي ظنوا ان آلهتهم تنفعهم بها ، وتشفع لهم عند الله .

قالوا : فإن العبد اذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله ، وتوجه بهمته اليه ، وعكف بقلبه على قبره أو صورته :صار بينه وبينه اتصال يفيض عليه منه نصيب مما يحصل له من الله ، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذاجاه وحظوة وقرب من السلطان . فهو شديد التعلق بـه . فما يحصل لذلك من السلطان من الافضال ، ينال منه ذلك المتعلق به على حسب تعلقه .

فهذا سر عبادة الأصنام . وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بابطاله وكفر أصحابه ، ولعنهم ، واباحة دماءهم وأموالهم وسبى ذراريهم ،وأوجب لهم النار .

والقرآن من أوله الى آخره مملوء من الرد على اهله وابطال مذهبهم . قال تعالى (٣٩:٤٢—٤٤ ام اتخذوا من دون الله شفعاء؟قل: أولو كانوا لايملكون

شيئا ولايعقلون ؟ قل : لله الشفاعــة جميعاً . له ملك السموات والارض ، ثم اليه ترجعون . واذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة. واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون) .

فأخبر باختصاصه سبحانه بالشفاعة اليه ليرحم عبده . وإذنه هو لمن شاء ان يشفع فيه .

فصارت الشفاعة في الحقيقة انما هي له . والذي يشفع عنده انما يشفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه الى نفسه . وهي ارادته رحمة عبده . وهــذا ضد الشفاعة الشركية التي اثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم ، وهي التي أبطلها الله في كتابه بقوله (٢:١٢٣ واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وقوله (٣:٢٥٤ من قبل ان يأتي يوم لابيـع فيه ولا خُلـّة ولاشفاعة) وقوله (٦:٥١ ليس لهم من دونه ولى ولا شفيـع) وقوله (٣٢:٤ مالكم من دونه من ولى ولا شفيـع) بل اذا اراد الله سبحانه وتعالى رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيــه . كما قال (١٠:٣ مامن شفيـع الا من بعد اذنه)وقال (٢:٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه) .

فالشفاعة بإذنه : ليست شفاعة من دونه .

واسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة : اهل التوحيد ، الذين جردوه واخلصوه من شوائب الشرك ، وهم الذين رضي الله عنهم قال تعالى : (٢١:٢٨ ولايشفعون الا لمن ارتضى) وقال(٢٠ : ١٠٩ يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا) فعلق سبحانــه الشفاعة بأمرين : رضائه عن المشفوع له ، واذنه للشافع .

وسر ذلك : ان الأمر كله لله وحده . فليس لأحد معه من الامر شيء . وأعلى الخلق واكرمهم عنده: الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيده لايسبقونه بالقول ولايتقدمون بين يديه ، ولايفعلون شيئا الا من بعد اذنه وامره .

فإذا اشركهم المشرك بربهم ، واتخذهم شفعاء من دونه ، ظنا انه اذا فعل

ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله : فهو من اضل الناس واجهلهم بحق الرب سبحانه ومايجب له ، ويمتنع عليه . فإن هذا محال ممتنع .

وانما اوقع هذا الضال الجاهل في هذا العدوان : قياسه الرب على الملوك والكبراء ، حيث يتخذون من خواصهم وأوليائهم من يشفع عندهم في قضاء الحوائج . وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام ، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولى . والشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم . فإن قيام مصالحهم بهم ، وهم اعوانهم وانصارهم ، الذين قيام امر الملوك والكبراء بهم ، ولولاهم لما انبسطت ايديهم وألسنتهم في الناس فَلِحَاجتهم اليهم يحتاجون الى قبول شفاعتهم ، وان لم يأذنوا فيها ، ولم يرضوا عن الشافع ولا عن المشفوع فيه . لأنهم يخافون من ردها تشوش احوالهم ، ولا كذلك الغنى الحميد . سبحانه وتعالى .

فَتَبَيَّنَ : ان الشفاعة التي نفاها الله في القرآن : هي هذه الشفاعة الشركية ، التي يعرفها الناس لملوكهم ورؤسائهم ، ويفعلها بعضهم مع بعض . ولهذا نطق بنفيها تارة ، بناء على انها هي المعروفة والمشاهدة عند الناس ، وعلقها تارة بإذنه . فهذه الشفاعة هي في الحقيقة منه . فهو الذي اذن ، وهو الذي رضى .

وقد بين الله سبحانه : انّ المتخذين شُفَعَاءَ : مُشركون ، قال الله تعالى: (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شُفَعَاؤُنا عند الله ، قل : أتنبئون الله بمالايعلم في السموات ولافي الارض ، سبحانه وتعالى عما يشركون) .

وسرُّ الفرق بين الشفاعتين : ان شفاعة المخلوق الى المخلوق ، وسؤاله للمشفوع عنده : لايفتقر فيها الى اذن ، ولا امر من المشفوع عنده ، بل هي بسبب خارجي من المشفوع عنده ، قد توافق منه رغبةً أو رهبةً خاليتين عن المعارض . فيحصل المقصود ، وقد يعارضها معارض . فيقع الترجيح او التوقف .

والشفاعة عند الخالق جل وعلا : امتثالاً لامره ، وطاعةً له . فالربُّ سبحانه

هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع . والشفيع عندالمخلوق : هوالذي يحرك المشفوع اليه حتى يقبل ، والشافع عند المخلوق مستغن عن المشفوع عنده في أكثر اموره ، وهو في الحقيقة شريكه ، لحاجة المشفوع عنده اليه في نصر ومعاونة وغيرهما ، كما أن الشافع محتاج الى المشفوع عنده ايضاً في رزق اونصر او غيرهما . فكلٌ منها محتاج الى الآخر .

ومن وفقه الله لفهم هذا الموضع ومعرفته : تبين له حقيقة التوحيد والشرك . والفرق بين ما اثبته الله من الشفاعة وما نفاه وأبطله ، ومن لم يجعل الله له نوراً . فما له من نور. انتهى كلام العلامة ابن القيم في إغاثة اللهفان ملخصاً[١]

وقد حذفت منه شيئاً كثيراً . كذكر الاحاديث التي جعلها اساساً لما قرره في مباحثه هذه ، وهي في الصحيح وغيره ظاهرة معروفة . عند مَنْ شيمته التماس الهدى من محله . وقد ألمْمنَا منها فيما تقدم بشطر صالح .

ومن أراد الاستقصاء فليطالع الكتاب المذكور، أو أصوله التي نقل منها، كذكر الجواب عن اوهام عرضت لقوم من القاصرين ، حالت بينهم وبين الاهتداء بنور التحقيق . والموفق لا يحتاج الى زيادة على ما سمعت . فإن خاطره الشريف لا يرضى بأصل اللغو ، وخفاء الوساوس .

وكذكر ما وقع من المفاسد والإلحاد في الدين ، بهذه القبور والمشاهد ، مما طوّل بذكر أعيان منه هنالك، ولا سبيل الى استقصائه، تركنا إيراده هنا، لظهوره لمن رأى وسمع على رءوس الاشهاد، وكثرة تنوع ما فيه من القبائح والفساد وقد أشرنا ايضاً فيما سلف الى جماهير منه ، وسيأتي كذلك ، ونحن نعلم:

---

(١) من صفحة (١٨٢ — ٢٢٣) من الجزء الاول طبعة الحلبي بتعليق محمد حامد الفقي .

أن الشارع لا يكثّر ذلك التكثير ، ويكرر ماملأ الاسماع أشد التكرير ، إلا لعظم فظاعة الخطب .

وقد وقع ما بالغ الشارع في التحذير منه في أقطار البسيطة ونواحيها .

وبما ظهر منا من هذا الإنكار : سلمنا من وبال السكوت عنه . ورأينا ايضاً اضعافاً من الشرور . نعوذ بالله من التمادي في الغي والغرور .

وكذكر مقابلة تلك المناهي الواقعة من الشارع فرداً فرداً ، بفعل عين المنهي عنه في جميعها ، وقد اشرنا الى ذلك فيما تقدم .

فحصل اتفاق من دون ان نكون قد احطنا بما ذكر خبراً . وكغير ذلك مما سطره هنالك .

وقد ذكر القسطلاني في « مسالك الحنفاء » حديث على بن الحسين الذي رواه ابو يعلى عن أبى بكر بن ابي شيبة المتقدم ذكره ، فيما نقلناه من إغاثة اللهفان وقال : هو حديث حسن ، وهو عند ابي يعلى من حديث الحسن بن على بن ابى طالب رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلّوا في بيوتكم ، ولا تتخذوها قبوراً ، ولاتتخذوا بيتي عيداً ، صلوا على وسلموا. فإن صلاتكم وسلامكم يبلغنى أينما كنتم » انتهى ما ذكره القسطلاني .

وذكر : أن في سند هذا : عبد الله بن نافع الصائغ .

قلت : قال الحافظ ابن حجر في التقريب : ثقة . صحيح الكتاب ، وفي حفظه لين . من كبار العاشرة انتهى .

وهنا تتِمات وشروح لبعض كلام الإغاثة . كالتنبيه على التماس الشفاعة من دون دعاء وتعبد. والاستشفاع بدعاء الصالح من نبى اوغيره .ليدعو الله في كشف حادثة ، والصلاة في موضع من منزلك مثلا ، لصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، كما في قصة عتبان بن مالك ، وكغيره مما يستدعيه كلامه ، لتكميل الافادة ، واستيعاب الإجادة ، وازدياد البحث ظهوراً وتحقيقاً ، يقرر قصوره

أفضل تقرير، ويحرر محصوله بدفع مايجوز من واهمة تطرأ، وسؤال من مستفيد، بين تحرير . ضربنا عن ذكره هنا ، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - مالا يحوج الى ما سواه بعون الله وتيسيره .

ومع تأملك ايها العبد الارشد ، فيما ذكره صاحب إغـاثة اللهفان ، واستيضاحك صحة ما ألم به من التحقيق : تعرف اهل صفاء البصائر ، والإجلال لأمر القوي القاهر ، واحترام شأن الله ورسوله ، وهم اصحاب الطرائق المثلى ، الناصحين لله ورسوله و كتابه ، وعامة المسلمين . فبا لحق يعرف الرجال ، لا أن الحق يعرف بهم .

واما صنيع من يدعى : فائز بن ابى بكر مفتى الحرم ، ورفقته : فقد عرفناك بأنه مجانب للصواب ، ووعظناك في أن لا تركن اليه شيئاً قليلا ، وكفى موعظة ما تضمنه قوله عز وجل (٤ : ٥٦ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مماقضيت ، ويسلموا تسليما)

فهل علمت مسلما مؤمناً يعمد الى مابالغ فيه الرسول واكد ، وارسل فيه مقالة الصادق المسدد ، فيناقضه بجهل ، او قلة اكتراث ، وإجلاب بخيل ورجل ما حكته اقوال مالها مستند تعلم صحته . فضلاً عن رجحانه ، تالله ماذا شيمة مؤمن ، ولا سجية من هو بيوم الحساب موقن .

وما ذكرنا هذه النقول عمن اشرنا اليه - من اهل المذاهب الاربعة ، وانها في كتبهم المسماة ، واعلنا بمن سميناه منهم ، ومن فاتنا ذكره اكثر - إلا لندلك على ان هذه المسألة ، التى أوهمو ان مذاهب الأئمة الاربعة واتباعهم وسائر المسلمين - وهي استحسان وضع هذه القباب والمشاهد - مسألة شهيرة ، معروفة الشناعة والقبح بين الفضلاء ، وأن شناعتها وقبحها عند أهل المذاهب الاربعة خاصة - دع غيرهم - متداولة في كتبهم ، موضح فيها : أن بناء القباب والمشاهد واتخاذ القبور مساجد : من صريح القبيح ، وشنيع المنكر ، لا كما يتوهم هؤلاء

المفتون وشيعتهم القبوريون المقلدون تقليدا اعمى : أن القائل بقبح ذلك ، شَذّ في هذا الزمان ، وخالف إجماع العلماء.

وليته خالف علماء المذاهب الاربعة جميعاً ، اذن لكان لما توهموه مجالٌ يليق بالقصور ، وإلا فلا يضر الشذوذ، مع وضوح الحجة . ولا اجماع هناك، على ما عرفناك غير مرة .

على ان مذهب ابن سريج : أن الاجماع انما هو الحق . فأينما وجد الحق. فهناك الاجماع ، وانظره في شرح البرماوي على القنية وغيره ، ولله دَرُّها من مقالة لمَعَ بارقها عن جَوْدٍ هامعٍ وضابطٍ جامع .

ونحن لا ننازعهم : أن من نقلوا عنهم تلك الاقوال في مختصرات مذاهبهم قدذكروا ذلك ، إنما نريد : رفع تلبيسهم الذي مَنْ سمعَه قال : لاشكأن مسألة انكار وضع القباب ، وبناء المساجد على القبور : امر لم يقل به احد على وجه الارض الا نابغة الزمان . مع أنها بهذه المثابة في الظهور والانتشار واقوال العلماء الكبار . مودعة في كتب الأثريين ، وعلماء المذاهب، ولكن من جهل كلام أئمة الدين ، ولا دين عنده الا ما ذكروه ، كيف يهتدي الى ما قاله الله ورسوله في حكم من الاحكام؟ والحال أنه عنده من المتعذر الوصول اليه، وزاعمُه كذابٌ .

(« الدين بين هذين من بقا ») (١)

ولو كان الامر مبنياً على نبذهذا الحكم الذي ذكروه، من تعذر الاجتهاد، وعلى فتح باب التدبر والانتقاد. لكان فلاحاً ونجاحاً ابد الآباد ، ولما عفت ودرست رسوم الرشاد ، وانثالت عليها الحادثات بالمثالب والاحتشاد ، حتى صيرتها كأمس الدابر ، بل أنكرَ نُكْرٍ وفساد .

وقد زعمت كل فرقة من المختلفين : أنّ مالديها هو الخلاصة المحررة من

---

(١) كذا بالاصل ، وليحرر .

كتاب الله ، وسنة رسوله ، امر لاشَكَّ فيه عندها ، مع مابينهم من تباين الطرائق ، وكل منهم يقول هلم الينا . فهنا الآيات البينات ، الكاشفة ان ماعليه اولئك ليس من نمط رشدنا ، فحذار من فراقِ اليُمْنِ والبركة ، والاخرى تقول بمثل ذلك فاعجب لها من طريقة .

والجواب المسدد على كل منهم : هاتوا برهانكم ، ثم ايراد نحو السؤالات المارة في الباب الأول : أعلمتم ان ماانتم عليه رشد دون ماعداه ببرهان ؟ فلابد من عجز او نهوض .

فإن فرض الثاني : اتسع الخرق على الراقع ، وتمزق شمل مطابقة الواقع ، وحكمنا بإمكان المحال المتمانع .

وان فرض الاول : فهو المطلوب لنا الآن ، من حاجة كل شيءٍ من الدعاوي الى برهان .

والأقرب ايضاً : ان يكون العجز من كل فرقة ، لافي كل ماتنتحيه . بل بعضٌ يعرف بالاختبار والكشف . فعاد الخوض الى ماسقنا اليه مطىَّ التقرير ، من ان تمييز حَقيِّة كل شيء مما سواه : لايكون الا بالحجة الصحيحة المتناولة .

وان فرضنا الأبعد – وهو سقوط كل مابيد بعض الفرق مما اختصت به ، وان كان يعسر تحصيله ، فهو لايعرف الا بتقرير الجاذب المخالف – فآل الامر إلى ماتقدم .

واما الدعاوي فكل قد قلد وقال ، ولكن نقول : التحاكم الى مَنْ اليه يرجع الأمر كله ، وهو الكبير المتعال .

وهذه المسألة التي نحن بصدد الكلام عليها ، على الجهة التي تيممناها . لايكاد عاقل قد عرف مافيها ، يجوز اويصدق : انه يقع فيها نزاع ، قبل اطلاعه على جواب جماعة المفتين على هذا النحو الذي سلكوه ، لظهور امرها ، واشراق حجتها ، ووضوحها دلائل ودلالات ، بحيث ان المدافعة انما تكشف عن ان

صاحبها احمق ، لايعرف المعروف،ولايأنس بسوى المألوف، كصغار الأطفال وربّاتَ الحجال ، والا فهذه المسألة من اظهر مافي الشريعة ، على الجهة التي تيممناها ، والمخالف مخطيءٌ زلت قدمه ، او مدافع بجهالة بينة . اذ لم نره اتى بما يصلح ان يعد عذراً ، فضلاً عن صواب .

ولكن من تلمح مفاسد التمذهب: علم ان لهذه المسألةبغيرها أسوة،اورثت من مدافعة الواضحات الظواهر بلا شبهة ولا شائبة متمسك بما لايعلم حده الا الله ، وهم مع ذلك : يدعون انهم تبع لمن صح عنه مادافعوه ومانعوه ،وفعلهم معه ، ومع مارسم لهم ماسمعت ، وما كان لهم ان يَعْلِق بهم من غبار هذا شيء البتة في هذه المسألة وغيرها .

ولقد تذكرت هنا مابلغني عن بعض الملّيين : بأنه رأى شيئاً من الهرج والافتتان ، سببه حمية المذاهب . فقال : عجبا لهؤلاء ، أليسوا ذوي دين واحد ؟ فأطلق لسانه بما تقود اليه الفطرة السليمة ، وماعلم الجهول : بأن شرح هذا المقام يطول ؟

وهل بعد التكفير والتفسيق تأويلا وتصريحا ايضامن بقية ؟ دع مافي خلال ذلك من الشرور ، ومافي أعطافه من المكاره والمحذور ، واهراق الدماء استحلالاً والرمي بالضلالة والبدعة، والغي واللعنة ، وماأشبه ذلك .

ومطلع قرن هذه الرزية : هوالتمذهب والتحزب، وماصنعنا — معشر المسلمين مع من عدانا— وماصنعوا معنا، ولاوقع في ذات بينهم: اكثر من هذا، والله المستعان .

الباب الثالث

في سوق ألفاظ من ذلك السؤال وتلك الأجوبة ،مع الإشارةالى مافيهامن فساد ، وان كان ماتقدم كافيا في المعظم . فزيادة التقرير تنفع ولاتضر .

وذلك السؤال على مابلغ منشوره منزَبيد والمقصود به الانتصاروالإغاثة للقباب من التخريب والاندثار . وهذاشيء اذا قضاه غيرمنله الحكموالامر . فلغو ضائع ، وان نِيلَ بهعاجل متاع دنيوي من حطام الأهواء والمطامع فوراً : فذلك شأن لايقوم فيه الا المستقر الثابت .

وقد قضى ذلك السؤال : ان مورده لايعترى في الحكم المسئول عنه . لانه أورده متجردا من التعرض لمشاهد الأموات بما ذكرنا ، وملتمسا إعلان شناعته . فكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، وأجابه من هو مثله . فكانت القضية إعارة من مستعير ، وسؤالاً من محتاج فقير .

ظن المفتي — لعدم درايته بما ينبغي — ان الأمثلة إنما تصدر مثلا عنجهل بما قرره في شرح المنهج ، ونص عليه في نخبة الفتاوي ، ومختصر خليل ،وبما يستفاد من تعليلهم حرمة البناء ، وجواز هدمه بأنهيتأبد بعد انمحاق الميت، أي : فيؤدي الى التضييق . ونحو ذلك .

فعمد أولئك المفتون الى تلفيق لايقضى عند المنازع —بلمن يفهمالكلام— أرَبا ، وقد ظنوه مغنيا في الحادثة ، وهذا شأن الصعلوك ، اذا ظفر بدرهم زائف. خاله كنزاليتيمين ،ودرةالتاج المكلل،حتىطفقوا يلهجون بذكرمافي تبيين المحارم ، والدر المختار ،وشبه ذلك . كأناحداً غاب عنه هذا .فأنالوه من فصه ، وتوهموا ان جمع تلك الأقوال بُرُوزٌ بما يُفْحِم الخصم ، لأنهم لايعرفون إلاّ مايعرفه أشباههم ممن احتجاجه بمثل هذا ، لانه هو الجائز الممكن اللازم الاعتماد . وأما «قال الله ، وقال رسوله » فحرام مستحيل . فلا حجة عندهم تقوم في وجه المنازع ولاشبهة يعذرون بها عند خالقهم ، ولا يعرفون باب النقد ، لأنه منسد ، ولامن اذا املى عليه كلام بشر — غير من

لايترك من قوله شيء – قال : ماوجهه ؟ وان زعموا وجها بـدا فساده ، او فساد الاستدلال به ، او خادشاً مانعاً من العمل،أو تعارضا اقوى ،أويقول: لاأتبين صحة هذا وظهوره .

ولـئِنْ فـاهَ أحدٌ لهم بشيءمن ذلك قالوا: ماأنت وهذا ؟ كأن الكشف من مثلنا عما قيل،وتكلمبه مَنْ قـَبْلـَنا :ضروري البطلان . لتعذرالاجتهاد، وامتناع اخذ أيّ حكم من دليله .

ولو علم أعداء الإسلام – دفع الله شرهم على مر الأيام – : ان أهله الآن قد بَتـُّوا الحكم ، وأمضوا القضية : بعدم استبانة تلك المطالب الدينية ،من كتاب ربهم المنزل على رسولهم ، الذي جعله الله شفاءً ونورا ، وهدى وبياناً وتبياناً ، وحكما بينهم عادلاً ، ومثالا يكون باحتذائه سعادتهم ، وسعيهم على قدم الحق والصدق والبصيرة ، وظهورهم بسطوع أنوار تحقيقه على من ناوأهم ، وكذا سنة نبيهم التي فصّلَت وبينت ، وكملت وفسرت ، وجمعت فأوعت ، وتضمنت صنوف المعارف والعلوم ،وسعة الفوائد الكثيرة المتشعبة ،الجامعة للمكارم والمحاسن ، والآداب والأنوار ، ومناهج السعادة ، ومدارج السلامة من المتالف والمعاطب ، والضلال ورجز الشيطان ، وكل غَـيٍّ وفسادٍ .

هذا كله :.باعتبار تفسير الحكم بالقضية الشرعية ، أيّ قضية كانت ، او بالحمل الشرعي على أي موضوع،تعتبر معرفة جهته ،وحالته الدينية –وبالجملة: فيراد أي باب ، او مسألة او اصل ، ينبني عليـه عمل او اعتقاد ، موافق لطريقة الشرع الأحمـدي لقولهم من دليله ، ولقضاء حاصلهم بالتعميم ، وكل ذلك فيما طريقه الاستدلال . لقالوا – أعني : اعداء هذا الدين المكرم – قد فتحتم لنا على أنفسكم باباً لايسده إلا اعترافكم بخطأ هذا المقال ، او فاسمعوا مافيه ، ان كنتم تعقلون حقائق الأحوال ؟.

نحن نقول لـكم بلسان الواقع : إنما قام في وجوهنا تلك البراهين القاطعة ،

والانوار الساطعة ، حتى قهرنا سلطانـُها ، وأفحمنا بيانـُها ؛ وعجزنا عن مقاومتكم ، ولكم تلك العدة ، ومــا ذَل ّ مُستَعصِي مناوئكم إلا حيث تسلونها من أغمادها ، وتـَلـَقَّو نه بما لا قبل له به إلا بطريق العنادالخالص، لما أنها تضمنت من اساليب الإفحام ، وقطع ألد الخصام ، وإعجاز المباهت عن المصاولة : ما لا يدريه الا اهل الذكاء والاحلام ، وكذا المهديون لمعرفة مكان الكلام من الأنام .

أمّا والحالة لديكم هذه، في هذه الازمان : فأى فضل لكم علينا ؟ وقصارا كم حفظ مذاهب الاسلاف ، في ابواب الخلاف، وجزم كل فرقة منكم بأن ماعندها هو المذاهب المحكمة، والطرائق الصحيحة . قَضِيَّةٌ أُخذتموها مسلمة ، وما يعجزنا عن مثل هذا ؟ لأنه ممكن لكل احـــد ، لأن الشأن إنما هو التقرير والتحرير ، المعتمد ببيان الحجة الواضحة ، وتحقيق المستند .

ثم من العجائب : انا وجدنا منكم من يدين بكفر مخالفه منكم ايضاً ، وإن كنا لم نَلـْقَه ُ في جميعكم . فلا نخال محاسن دينكم تقبله ، ولا بد لله في خلقه ممن لا يرضى البدعة ، ولايلوى على تغيير صالح شرعه . لكن هذاالذى أشرنا اليه ؛ قد صار نسبته اليكم بالمحل الذى نحن به ؛ ان صادقاً وان كاذباً لأن غاية ما عنده فينا : هو الكفر بالله تعالى ، وعلته في ذلك : رسم سلفه ، ولم يستوضح ، على أنا ربما لا نتجاسر على ما تجاسر هو عليه ، بل نقف على تخليص انفسنا من وصمة ما عابنا به، لان أصولنا انما قضت برشدنا ، لاغي مخالفنا ، على قود ما قاله قائلكم « كل مجتهد مصيب » وان أبديتم فارقاً . أبدينا مثلـه بلا تجشم ، ولا طويل تشاغل . فمن هو الآن أبقى على نفسه ، واقرب من السداد ؟

فانظروا خطب هذا الموضع ، وتأملوه بعقول سليمة ، وافكار حليمة ، ووازنوا بين هذه القضايا ، حتى تعثروا على الرشد الذى قرعليه امردينكم، وثوبه قشيب ، وغصن انفراده عن الشوائب رطيب ، من قبل اعْتِوَار هذه الأحداث ، التي هي أعجب من كل عجيب .

والتفرقة بين المؤتلف من الشرع :- بتسمية بعضه اصولا ، وبعضه فروعاً مع أن في الثاني ما هو اظهر واصح ، واشد تأكيداً وتشديداً ، واعتباراً من كثير مما جعلتموه من الاول -ليست برأى سلفكم، ولامذهب مُحَقِّقيكُم ولا دلَّتْكُمْ عليها الآيات البينات، ولا السنن الصحيحة ، ولا الاعتبار الصادق . فهي ملغاة .

وليتكم جعلتم ما سميتموه فروعاً أقرب إمكاناً للاستناد فيه الى الكتاب والسنة ، حيث تعللون بقربه ودُنُوِّهِ، وسهولة امره وتأتي ادراكه ونَيله بلا كثير كلفة وتيسره واسعاف تحصله ابتداءً ومآلا ، لمقتضى تسميته فرعاً وجعلكم خَطْب الخلاف فيه أيسر ، والخطأ اهون .

ولو ذهبنا نتتبع ظواهر الفروع ونصوصها المعلومة ، وافراد مسائلها القطعية ، وجزئياتها المتيقنة ، التي لا نسبة - من هذه الحيثية - بينها وبين كثير من مسائل الاصول ظهوراً وحضوراً ، وقوة واعتباراً من الشارع بشأنها ، لوجدنا الامر اوضح من أن نتشاغل بتنقيحه ، والايعاب في كشفه. فالله يعلم مافي بحثكم هذا من الغرابة . انتهى .

ولنعد الى ذكر الالفاظ من السؤال واجوبته .

فالسؤال قوله : -

اصلح الله العلماء الاعلام - الى قوله - عن رجل من اهل المناصب العالية ، أغراه بعض من يدعي العلم الاجتهادى في هذا الزمان ؟

اقول : نعم ، اصلح الله العلماء ، ولكن يرد عليك في عبارتك سؤال استفسار ، مَاذَا اردت بالعلماء ؟ هل من يقيم البرهان على ما طُلب منه أن يفتى فيه ، ويستطيع الاستدلال الصحيح بالكتاب والسنة ، واخذ الحكم من دليله حتى يشفى سائله من سقامه ، ويروي صاديه من غليل أوامه ؟

فهذا حاصل الاجتهاد، وقد قطعوا اعناق اطماعك في وجوده ، ولعلك راض بجورهم ، لقولك « بعض من يدعى العلم الاجتهادى »فسؤالك لا محل لمرماه ،

بحكم مسئولك ، ولأنك معترف – انت وهم ايضاً – انكم إنما أنتم من مقلدي العلماء والإضافة ذات تغاير ، كما لايخفى .

وان اردت بالعلماء : من عرف تفريع المذاهب فقط ، ومنع تأتّى أخذ الحكم من دليله ، كمسئولك ، وجزمت ان لاسبيل الى حلال او حرام إلا بتقليد الأسلاف والمشائخ الكرام . فسلعة على سلعة ، وحيرة بحت على حيرة ومامثل هذا يُسأل عن شيء لاوصول اليه ، إلا بهدم الاصل الذي استقام عليه ، فلا جرم تمانعت القضية . وعادت الى سفسطة غيرمرضية .

والسؤال إنما يكون محل قصده من يدري مراتب الكلام ، ويحسن بدء القول في بحثه والختام ، حتى يؤديك الى ماتبتغي من مطلب ومرام ، ويريك أخذ الحكم من دليله، وكيفية الصواب بإيضاح سبيله، وذلك بتصحيح المقدمات التي تنشأ عنها وتتولد الفائدة المطلوبة التي انبعثت لأجلها الاسئلة .

واما من كان طليعة جوابه : مايترجم بأنه لايصلح ان يُسأل ، وان الجواب عن هذا السؤال بالطرق المعتبرة لايمكن في هذا الزمان .

فان قال «قال الله» سلمنا ان يكون له الى حماقته ركون او تعريج ، وكيف النزول بساحة قوم بهذه الحالة ؟

فإن ابتغيت مافي شرح المنهج فقد وفوا لك بهذه الذمة .

وهذا ان عقلت أيها السائل – إنما يزيد خصمك بصيرة بك وبالمسئولين ، ومعرفة بحسن ماانتحاه، ويقيناً بسلوكه الجادة المثلى، والطريق السوية الفضلى، إذ أخذ يتشاغل بإقامة أدلة المسألة وبراهينها المفصلة من مجاميع الاخبار ، ومطالع الاستدلال ، ثم بَيَّن ذلك وأوعب البحث فيه ، مع تأصيله الصحيح بإمكان كل ذلك دونكم .

فياحبذا القاعدة والفائدة . ونعمت العاقبة والعائدة، وليس أهل المناصب العلية الا العلماء العاملين ، ثم الأمثل فالأمثل .

واعتبار الصور : هو العلم بظاهر من الحياة الدنيا .

قوله : لخلو بلده عن المعارض له .

أقول : قد علمنا ابتلاء بلده وغيرها من بلاد المعارضين له بما هو من قسم عملكم هذا . فماذا عسى ان يحصلوا عليه ؟ وحجتهم على خصومهم المذهب ، وهي المصادرة أعني الاستدلال بعين الدعوى .

قوله : على قبب الاولياء وأقفاصهم وزياراتهم ، ويزعم انها اصنام تعبد .

أقول «على» متعلق بإغراء وقد قدمنا ذكر منع وضع القبب وغيرها.

وأما بحث كونها اصناما تعبد: فسيأتي الكلام فيه مفصلا مستوفى ان شاء الله تعالى .

واما كون هذا المعين وليا لله : فأمر يحتاج الى مراعاة حكم الشارع في هذه المسألة . وهذا شرط لابد منه عند المبحوث معهم وغيرهم ، ولانعلم نحن قائلا بإهداره ، ولاذاهباً الى عدم اعتباره .

بيانه – على سبيل المثال – ان ولي الرافضة عند الخارجية – مثلا – هو باسم العدو أولى وألصق ، وكذا العكس . وولي السنية عند الطائفتين مثلا كذلك ، وكذلك العكس ، وإلا فأقل احواله عند الفريق المقابل : ان لم يجعله عدواً لله ، فهو غير حقيق عنده بإلباس تلك الخلعة . هذا مالامرية فيه .

وسر ذلك : كون الجميع على نحل متباينة ، وطرائق متبددة . والولاية عند كل منهم هي فرع الكون على طريقته ، والا فلا معنى للزوم طريقة يتأتى مع مخالفتها الولاية لله . إذ المقصود بالتدين والتصلب فيه : هذه الغايه حَسْبُ .

وقد قدمنا إشارة الى شيء من هذا ، فاعطفه على ماهنا ، وكل فريق لايلتفت الى مايحكى من اسباب الحكم بالولاية لمن هو عنده غير مرضى ، لاعتقاده

ان الظل لايستقيم والعود أعوج ، وان المحل غير صالح لصدق تلك الحكايات لفساد مصدرها .

وتحقيقه : ان الاختلاف على هذا النحو ، الذي عليه هذه الفرق والاحزاب والمتمذهبون — لاعلى نحو سواه ، فعين محل النزاع —متسبب عن الرضا بنحلة خاصة . فكراهة ماسواها . ولهذا أوثرت عليها .وكانت هي المختارة دونها ، بحيث ان الحكم بالتساوي مقت محض عندهم . واذا كان كذلك ، فولاية الله محلها ووسيلتها : خلال مرضية . فمن أين دخل على ولي الله ان تراه أهلا لمخالفتك اياه ، وعدم الرضا بما هو عليه ، وكراهة نحلته ؟ ومن اين دخل على من كان اهلا لذلك ولاية الله تعالى ، وهو ممقوت السيرة والطريقة عندك؟

اللهم الا ان يجوز وجود مايتفرع عن الشيء ، ويترتب عليه ويتخلص منه وينفصل عنه بدونه . فلا بـأس ، ولكن حتى يرتضى المخالف ، وهو غير واقع فيما علمنا وعلم منازعونا .

وكيف يرتضى ويصلح لوصف الولاية ، وهو عند مخالفه متلبس بموانعها ، ويؤدي الى غاية مضادة لها ؟

اذا عرفت هذا : عرفت انه لامنازع الآن من جميع من ذكرنا : ان ذلك الشرط لابد من اعتباره ، وان زعم كل فريق وجوده فيمن رضيه ، وحكم له بالولاية . فهو غير مصدّق عند الآخر ، ولا مصيب في هذا الحكم عنده ، لما أنه بناه على مقدمة الحياة ، ورتبه على حسن السيرة في دنياه . وذلك : محل منع عند الخصم . ولله مايروى عن الشافعي في هـذا المقام من قوله « اذا لم يكن ذو العلم والعمل وليا لله ، فلا أدري من أولياء الله ؟ » هـذه او عبارة نحوها او قريب منها .

وانظر قوله عز وجل (١٠ : ٦٢، ٦٣ ألا إن اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم

يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) (٨:٣٤ ان اولياؤه إلا المتقون)
اي المسجد الحرام — لولاية مولاه .

وتخليص المقام : ان الولاية لله فيها معنى إيثاره وطاعته ومحبته ؛ والقيام بأمره ونهيه ، والعناية بشأن عبادته. والمؤمن التقي جامع لمتفرق شعوب ذلك.

ولايكاد يتوهم خلاف : ان المتبعين للرسل أخص الناس بهـذا الوصف ، واولاهم به وأحقهم ، وإنما الشأن في تعيينهم ، وصدق وصف الاتباع فيمن زعم له وصف الولاية (٣١:٣ ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) مع حديث « من يطع الله ورسوله فقد رشد ».

فلا بد من مناط معتبر شرعاً لصحة اطلاق اسم « الولاية » وامـا تلك الخوارق فكلٌ يدعيها لوليه .

وللولاية ميزان عادل، اذ هي من الألفاظ الشرعية ، فمحلها ماوضعها الشرع فيه . وماوصل اليه شعورنا فهو غايتنا لاماوراءه.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي بكرة مرفوعاً «من كان منكم مادحاً أخاه لامحالة . فليقل : أحْسِبُ فلانـاً ، والله حَسِيبه ، ولا أزكّي على الله أحداً : احسبه كذا و كذا ، ان كان يعلم ذلك منه» اهفتأمله.

فهذا كلام مَنْ لابد من النظر في كلامه . والمسير بسيرته ، ولاينفعك من دونه ولى ولا واق .

وأخرج الإمام ابو عيسى الترمذي في جامعـه من حديث انس بن مالك رضى الله عنـه قال « توفي رجل، فقال رجل آخر :— ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع — ابشر بالجنة . فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : أو َلا تدري ؟ فلعله تكلم فيما لايعنيه ، او بخل بمـالا ينقصه » رجاله ثقات . قاله المنذري في ترغيبه وأورد له هنالك مايشا كله من حديث ابي هريرة وأنس عند ابن ابي الدنيا ، وابي يعلى ، والبيهقي .

ومما يحسن ذكره في هذا المقام : ماذكره الشيخ ابو محمد بن عبد السلام المصرى، في «قواعد الاحكام» ولفظه «وقد تكون الكرامات سبباً في الافتتان، وأن يظن بصاحبها أنه من اولياء الرحمن . ولذلك : تخرق العادات لمن لا دين له كالدجال وكثير من الرهبان. وكذلك تخرق العادات للفجار والفسّاق» اه.

وقال فيه أيضاً : مالفظه «والشرع ميزان . فمن رجح في ميزان الشرع كان من اولياء الله ، ومن نقص في ميزان الشرع ، فأولئك اهل الخسران . فإذا رأيت إنساناً يطير في الهواء ، او يمشى على الماء ، او يخبر عن المغيبات . ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرمات بغير سبب شرعي محلل ، وترك الواجبات بغير سبب شرعي مجوز. فاعلم انه شيطان نصبه الله فتنة للجهلة ، وليس ذلك ببعيد من الاسباب التي نصبها الله للضلال . فإن الدجال يحيى ويميت ، فتنة لاهل الضلال. ولذلك يأتي الخربة فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل . وكذلك يظهر للناس أن معه جنة ونار. وناره جنة وجنته نار ، وكذلك من يأكل الحيات ويدخل النيران ، فإنه مرتكب للحرام بأكل الحيات، وفاتن للناس بدخول النيران ليقتدوا به في ضلالته ، ويتابعوه على جهالته » اه بلفظه .

وانما ذكرته لتعرف ان ما يعتقده الجهلاء من ولاية من ظهر منه شيء من هذا القبيل ، وليس من الواردين لمعين الشرع : فهو من جملة جزافهم وتخريفهم لقيام الادلة ، ووضوح شموسها والاهلة مما ذكرنا . ولا عبرة بمجرد ظهور خارق وبروز ما يسميه من لا علم عنده كرامة ، توجب الحكم بالولاية لمن قامت به . وكذا استجابة دعوة او دعوات .

وقد استرسل الاكثرون في اطلاق اسم «الولاية» لاسباب ما انزل الله بها من سلطان . وبعضها صادق بالاضافة الى الشيطان ، والامر كما قال من قدمنا ذكره « الشرع ميزان» فإن حكم بالولاية لاحد بعينه ، اوعمل عامل عملا بما

وصف الله به اولياءه . فقف في الموقف الذي دفعك اليه المؤدب الحكيم، إن جزماًوإنظناً، وإن ظاهراً فقط . او مع نفس الواقع . ولا تحم حول سفاهة المعرضين عن الحقائق. فإنهم يعمدون الىظالم خبيث، او مبتدع ضال،اوسفيه جاهل ، ظهر على يده خبال لا مساس بينه وبين الحكم له بالولاية . بل ربما يصدق عليه ضدها ، فيسمونه ولياً ، لانهم لا يعرفون معنى الولاية للرحمن، ولا وسيلتها ، ولا من يصلح لاهليتها لجهلهم بالكل .

وهذه المسألة : لا يعقلها إلا العالمونالواقفونعلىاعتبار أمر الشارعخاصة .

اما الغثاء : فقد اتسع خرقه ، وادي الىالجمع بين الاشياء المتضادةالمتناقضة إما بتفريع باطل على اصل صحيح لا يقتضيه، اوبتأصيل فاسد لفرع صحيح لا يتحصل عنه ،لربطهم المباين بمباينه ، وتلازم القضايا المتباعدة المنفصلة .

وقد تقدمت اشارة الى شيء من هذا البحث عند التعرض لقولهم « خراب القباب ، إيذاء لسكان التراب » .

على أن المجيبين لهذا السائل أكملوا له الافتاء بما لم يتعرض له في خطابه. فقالوا ما حاصله :

البينة أشمل من المدّعى . أنت سألت عن قباب الاولياءِ ، ونحن نزيدك قباب السلاطين ، اى وإن كانوا بمقتضى اطلاق العبارة وعطف الاولياء ممن اكل اموال اليتامى و المساكين ، وعاث في الارض فساداً وإهلاكا ، واتخذ عباد الله وبلاده خولاً وأملاكا . لم يقنعوا بالباطل فقط ، حتى أضافوا اليه الإبطال فيه ايضاً . وأنا أضبط لك الباب فى كلمة قصيرة . **فأقول** :

الولاية وصف متجدد لا بدفيه من تصحيح سببه ومقتضيه ،وانتفاء مانعه على اعتبار الشارع فقط ، وبيان كيفيته وتصويره على اعتباره ايضاً .

قوله : ومن المعلوم أنه صلىالله عليه وسلم له قبة ، وأولياء المدينة واولياء سائر البلدان ، وانها تزار كل وقت ، ويعتقد فيها حلول البركة .

أقول : الامر كذلك . فكان ماذا ؟ بعد أن حذر صلى الله عليه وسلم وأنذر وبرأ جانبه المقدس الاطهر صلى الله عليه وسلم . فصنعتم له عين ما تقدم بالنهي عنه . أفلا كان هذا كافياً لكم عن أن تجعلوا ايضا مخالفتكم عن امره حجة عليه وتقدما بين يديه . فهل اشار بشيء من هذا ، او رضيه ، اولم ينه عنه؟

واما اعتقاد حلول البركة : فمن عندكم لا من عند الله . فهو رد عليكم.

واما الزيارة : فقد كفانا صلى الله عليه وسلم ، وكفى كل من آمن بالله واليوم الآخر ، ودان باتباعه : بيانَ صفتها التي هي استغفار واتعاظ ، وما يضاهيه من المعاني والالفاظ ، كيفية تزيد في الايمان ، وتناسب توحيد الرحمن ، لا ما أحدث حزب الشيطان : من سنن من اخمل الاسلام ذكرهم ، وطمس مشاعرهم.

واعجب ايها الناظر للسائل ومجيبيه . فإن مثل قوله : ومن المعلوم الخ هو زُبْدَة حاصلهم ، ومن كان هذا غايته ، ولا يدرى أن هذا هو الذى ننكره ونبرأ منه ونبالغ في إظهار فحشه ، ونعرب عن وجوه قبحه ما بجئنا به بالمستند الصحيح . كيف يتأهل لدرك ما لاسبيل الى فهم المسألة إلا بدركه؟

قوله : فهل يمنع من ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم « من آذى لي ولياً ».

اقول : هذا حديث قدسي . فاخطأ السائل حقيقة إيراده ، كما حاد عن نهج دلالته ومراده . وقد ذكرنا ما فيه فيما مضى .

قوله : ولأنه إن كان مجتهداً ، فالمجتهد لا يخالف الاجماع الا عند من لا يُعتَدُّ بخلافه ، المجتهد لا ينكر على مثله ، او مقلِّداً فغيره مثله .

أقول : استعجل الجواب على نفسه . وعلل نفسه بشيءٍ بارد لا يدرى ما فيه ، ولا يعرف وجهه . فمتى علم هو بنيِّر البرهان وقوع هذا الاجماع ، وقرر حجيته ، وأن مخالفته ممنوعة ، وأن القائل بهدم القباب لايعتد بخلافه ، وأن المجتهد لاينكر على مثله ؟ ؟ لان كل هذا مبني على فتح باب الاجتهاد في هذه

الاعصار وتيسره ، وإمكان أخـذ الحـكم من دليله . وقد مانع في ذلك بقوله « يدعى العلم الاجتهادى »وقد سبق بيان ما فيه .

ولقد طال تعجبي ممن لا يفارق التناقض ، تأصيلا وتفصيلا ، ويتدافع بحثه ولا يدرى .ويلهج بالشيء وما يضاده ومايمانعه . في كل لفتة ولحة ولايشعر. وكل فصل من هذه الفصول محتاج الىتقرير . وكل منها عند الخصم مُطـّرح، الا الثانى ، على ما فيه ايضاً .

وإن قيل : لا يعتد به اجاب بمثله .

والصواب في مسألة الاجماع : ما قد قدمناه . وأن مخالفة المدعَى منهغير ضائرة . إذصدقُ ما عندك اوثق من دعوى غيرك، قضيةً ضرورية . وكذا ما تعتبره بالمباشرة احق مما سواه ، واطراح خلاف المخالف جناية عليه ، ولا يتعلق به حكم .

وغير صحيح عند من لا يعتبر الاجماع المتعاور ، والانكار على المجتهد امر شائع بين العلماء قديما وحديثاً ، وقضايا الصحابة - خاصة في هذا الباب - تأتي سِفـْرا حافلا . وهي بينة في مجاميع الاثر .

ومثاله : قول على لابن عباس رضي الله عنهما - إذ خالفه في شيء ظهر لعلى فيه الامر - (انك رجل تائه) وقول عائشة « قفّ شعرى . قولوا لفلان : أبطل جهاده مع رسول الله صلى اللهعليه وسلم » وهذه كوة فتحناها اذ لو فتحنا الباب لما انسد ، والفطن يعرف .

واما المقلد : فابعد عن الانكار . هو مخاطب في نفسه بعد .

قوله : فما الاحرى لمتولي القطر اليماني ؟

اقول : هو المضي لما امر من هدم هذه المشاهد ، وابادة رسومها . فهذاما أمر الله،وصدعت به حجته وشرعهودينه لمن له رغبة صادقة ، ومطمع محقق

ونفس تواقة الى مغفرة الله ورضوانه ، وتديّن صليب باليوم الآخر، وموقف الحساب يوم لا تغني نفس عن نفس شيئاً . والامر يومئذ لله .

وأما تشعيب القلوب الفارغة من العلوم والاديان : فما نجد من يرتضي تلك الغفلة ، وهو يملك عليه عقله .

قوله : من عـــدم التفتيش عن مثل هــذا الذي يوجع قلوب عامة اهل الاسلام فضلا عن خاصتهم .

اقول : ما زدت في هذا على أن كشفتَ عن سوءٍ حلّ بك ، وبمن وافقك. أما سمعت الله تعالى يقول :(٤ : ٦٥ ثم لايجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت) لقد ابعدت المرمى ، وانقلبت بطرف عن الصواب اعمى .

ومن جواب الحنفي – والله اعلم بحقيقة هذه النسبة .

قوله : والصلاة والسلام على أعظم من بين ما فرضــه الله وسَنّ ، القائل « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » .

أقول : حيث كان – فدته صلى الله عليه وسلم نفسي– بهذه المثابة لديكم. فلماذا ضربتم دون بيانه الحجب والموانع ، وعطلتم مقاصده عن ثمراتهـــا وفوائدها النوافع ؟ وحقّ الاعـتراف له بذلك : القنوع بأقل مما قاله في القباب والمشاهد ، وطاعته فيه .

فهذه عظة لكم . فإن الذى تعْلَمُ : أنه السفيرُ بينك وبـــين خالقك ، ومعبودك ، الذي اخذ عليك الميثـــاق في وظائف تؤديها . كيف تليق مُدافَعَتُه ، او تغليق الباب اليه ؟ .

وها أنتم قد اخذتم بشِقّي هذه المفسدة ، بحسب الواقع لا في ظنــكم ، وجعلتم امره موقوفاً على قول زيد وعمرو ، وقد نوزعا فيه .

أهذه خليقة من آمن بالله واليوم الآخر ، وعلم أنه مبعوث والى الله صائر ؟ وأما قول القائل « ما رآه المسلمون حسنا الخ » فهذا صنع من لا يعتني

بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا خطر له عنده ولا ميزان ، والنبي صلى الله عليه وسلم أجَلُّ شَأناً من القول عليه بلابصيرة . ومَنْ رأى قصارى الافادة والاستفادة من فروع المذهب وطرائقها ، واماغيرها فممتنع قبيح ، فجديرٌ بهذا.

وقد قدمت الكلام على جملة « ما رآه المسلمون حسناً » فلا أكرره .

وقوله : ولله المنة ، على ما اختص هـذه الامة ، من جعل اتفاق علمائها حجة ، واختلافهم رحمة .

اقول : هذا من جملة ما احاطوا فيه بالعبارة ، ولم ينالوا من تحقيقه غباره ، ومن أين علم : أن الله جعل اتفاق علماء هذه الامة حجة ، واختلافهم رحمة؟

أيقول : ضرورةً . فهو شيءٌ ينقطع به الخوض معه ، ام اخذاً من أدلته؟ فممتنع عنده . أم لأنهم قالوا ؟ فتكلم عن جهل .

ومسألة حجية الاجماع — على تسليم إمكان وقوعه ، وصحة نقله — : خلافية .

ثم ما المراد بالامة ؟ هل هم اهل عصره فقط ، كما قيل؟ فهذا خلاف الظاهر ، ام الجميع ؟ فالامر اقرب الى الصحة ، والى ظاهر التركيب .

ونحن لا نظن بشرا يمعن النظر في هذه المسألة ، إلا ويجزم — كما جزمنا — بأن مسألة الاجماع على النحو الذي دأب عليه اولئك الباحثون : جسدٌ بلا روح ، ولفظ بلا حاصل .

وبعد ، فالقائلون بحجية الاجماع ، وامكان وقوعه ، وصحة نقله : لم يحصلوا على مذهب واحد ، ولاسلكوا طريقة فردة . بل اضطربت مذاهبهم في ذلك ، وفي القدر الذي هو منه حجة . وما النصاب المعتبر لصحة نقله ؟ وبعضهم يعتبر في صفة اهله واحوالهم مايلغيه الآخر ، كما قد حرر ذلك في كتب الفن .

وقد اشرت الى شيء منه فيما سلف ، واشبعت القول فيه في رسالتي «مدارج العبور على مفاسد القبور» بما لايبقى معه شبهة في ان الاجماع — على هذه الصفة التي تحررت عند كثيرين — امرٌ غير صحيح ، وليس يصلح أن يكون من اعمدة ديننا

القويم . بل يكفي الناقل اطلاعه عليــه ، وتصفحه بقلب حاضر ، وتأمل صادق . فلايحتاج الى زيادة في استبانة حقيقة أمره .

وأما ماذكر من ان الله جعل اختلاف الامة رحمة : فهذا من القول على الله بلا علم ، (ولاتقولوا على الله إلا الحق) .

وقد دار على ألسنة قوم عَزُب عنهم ضبط الحقائق شيءٌ من هذا ، متنه: « اختلاف أمتي رحمة » .

وقد أشار الى ذكره السيوطي في (الجامع الصغير) والسخاوي في (المقاصد الحسنة) وابن الدَّيْبَع في (تمييز الطيب من الخبيث) وغيرهم ، مما كشف عن أنه ليس له اركان . بل هو إما متكلم في سنده ، مع انقطاع ايضاً، واما لاسند له ، واما مرسلٌ ضعيف ، واما من كلام بعض التابعين ، حتى صرح جمع من صيارفة الفن : بأنه لاأصل له ، ومارأينا أباسليمان الخطابي رحمه الله سَدَّ خَلَّة ذي الفاقــة الى معرفة قوته ، على ان في الباب : ماهو أولى بالاعتبار واحرى .

فقد ذكر ابن الديبع في (مختصر المقاصد) ماحاصله :أخرج عبدالله بن احمد من حديث النعمان بن بشير مرفوعاً بإسنادٍ لابأس به« الجماعة رحمة، والفرقة عذاب » انتهى .

وكان ذكره له عقب الكلام على « اختلاف أمتي رحمة » ليشير الى انه من بابه في مقابلته ، وشهادة الكتاب والسنة : قائمة على ذم الاختلاف والفرقة . قال تعالى (٢:٢١٣ فما اختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم) وقال : (١٣:٤٢ أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه) .

ومحل العذر في الخلاف :حيث لم يكن الشارع قدفرغ من الامر ،وبلغ مَنْ بينهم الخلافُ . اذْ حكم الشرع قاطع لدابر كل خلاف ،اللهم إلا لجهله عنه أيضاً او عدم وضوح الحكم وتقديره . على ان هذا ليس خلافاً وفرقة، اذ اتباع ما اتضح لك من دون إصرار بلا مستند ولا مدافعة لما هو أولى :محل ائتلاف.

وانظر ، هل ترتب على اختلاف الأمة وتفرقها احزابا وطرائق :إلاتمزيق شمل المسلمين ، حتى تقرر عند كل فرقة من منتحليها : أنها الفائزة بحقيقته او كماله ، وصاروا بذلك شيعاً واحزابا كل حزب بمالديهم فرحون وصار كل طائفة تقدس متبوعها،وتقدمه علىقول اللهوقول رسوله، فعادوا مللامتفرقة، وديانات شتى تجتمع كلها عند مشاقة الله ورسوله واتباع غير سبيل المؤمنين فهل هذا رحمة أم عذاب ؟.

والخلاف الذي ينشأ عن حاصل النظر من غير خروج الىأشَرٍ او بَطَرٍ، فليس من هذا ، والبحث في المسألة ، وتقرير محل الخلاف المذموم في غير هذا الموضع ، وذكره هنا يستدعى طولا . وقد أشرنا الى لبابه ، والالتفات الى بابه ، والله سبحانه الموفق .

قوله : وقد اتفق أرباب الألباب من اهل كل شريعة وملة ، علىتمييز اهل الفضل وترجيح كل منصف نظر من كان قبله .

أقول : أتى هنا ببديع من الاختلاف ، وشفعه بأنه وقع عليه الاتفاق ، ولعله لما فرغ من تقرير دعوى إجماع أهل هذه الملة الشريفة ، جره ذلك التحقيق الى ماسواها ومعرفة ماعند غيرها من أهل الشرائع والملل . فلله ماسما به الى هذه الرتبة .

والكلام على هذه الفرية البادية من جهتين .

الأولى : في قوله « على تمييز أهل الفضل » فإن هذا شيء مختلق موضوع ، واختلاقه ووضعه أوضح من أن يشبع الكلام فيبيانه ،لأنه لايخفى علىأحد من البشر، فضلاعمن يعرف القرآن،أو يسمع بشيء من قصصه وأخباره:أن الأنبياء عليهم السلام لقوا من قومهم – من الوثنيين وغيرهم من المليين – وصنوف الخلائق ، من الإيذاء والتكذيب ،والسخرية والتأنيب ، والتسفيه والتضليل وغيرهامنأنواع الاستخفاف وعدم الرعاية،وهتك الحرمة،وتضييع

الحـق ، والمجاهرة بسوء القول والفعل : ما بعضـه يكفى في تكذيب هـذه الدعوى وتزييف أن أهل كل شريعة وملة اتفقوا على تميز أهل الفضل .

اللهم إلا أن يعني بتمييز أهـل الفضـل : فصلهم وابانتهم عمن سواهم ، إما الي رفع أو وضع لا الاعتراف ، بشأنهم وشرف مقامهم ، ورفعة محلهم عند الله. فهذا معنىصحيح ، ويكون الـكل متفقين على الفصل والعزل. فالمطيع والتابع إلى رفع ، والعاصي والمشاق إلى وضع . يدل على ذلك قول الله تعالى (٦ : ٣٤ ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) (٥ : ١٠ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) (٨٣ : ٢٩–٣٣ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. واذا رأوهم قالوا : ان هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين) .

وقوله صلى الله عليه وسلم في مَرجعه من الطائف . وقد لقى منهم ما لقى : «يا أرحم الراحمين أشـكوا اليك قلة حيلتي ، وهواني على الناس » ومنه وضع السلا[1] على ظهره الشريف .

ثم الدرجة الثانية : كبار الصديقين فمن يليهم . هل اتفق منتحلو هذا الدين المحمدى ، على تميز رءوس المهاجرين الأولين وسادات القرن الأول ، وأفاضل أهل السابقة في الإسلام ؟

ثم بعدهم أئمة العلم والدين والسنة : هل اتفق على تمييزهم ـ بالمعنى الذى قصده كل من ينتحل هذه الملة الغراء ؟

وقد رضينا بالوجدان والاستقراء حَكمـا عدلا .

وان كان المراد أنهم اتفقوا على تميز أهل الفضل ـ أى كل من اعترف لاحد بالفضل رأى له حقه وشرفه — سألناه عن الفضل .

(١) السلا: الاغشية والاوعية التي يكون فيهاجنين الحيوان وتخرج بعد الولادة.

فإن عنى به : ما ندعوه معشر الحنفاء فضلا : فَبهتٌ مكشوف ، وعاد عليه السؤال السابق .

وإن عَنى به ما يعده فضلاعنده : طاح البحث من اصله ، وعدنا الى تلاعب الجنون (٤٣ : ٣١ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .

وغير بعيد أنه عنى بعبارته : هذه الجهة الطائحة . فهو اذن يقول : إن اليهود ترى لفضلائها ، وكذا النصارى والوثنية وغيرهم ، وكل بحسبه وباعتبار ماهو فضل عند المعترفين به – أي ونحن معشر المسلمين أحق الناس بذلك ، وهدم القباب ينافيه .

فهـذا انما يعود على غرضه بنقضه ، لانه قاض بأنه قـد اعترف بالشرف ، ووقع الإذعان به لمن ليس من أهله فى نفس الامر ، وبحسب الحقيقة .

على أنه أيضاً شيء لا يجدى سوى توسيع التشعيب .

اذ يقال له : ما هـذا الاتفاق . وهو عين التخالف والشقاق ؟ لان حاصل صنيع كل شعبة وفرقة ممن زعمتَ اتفاقهم في معنى أهل الفضل أنهم مُعَظَّمون ومن اعترفنا لهم بالفضل والشرف دون غيرهم فليسوا أهلا له ، والا لعظمناهم واعترفنا لهم ، فأى اتفاق يكون هذا حاصله ؟

وأما المنافاة المذكورة : فقد أشرنا الى منعها فيما سلف .

وان أراد : أن أهل المكانة عند الله والقرب منه هم أهل التبجيل والإكرام عند من ذكر هكذا بنوع اجمال : فذا بحسب الخارج والوجود العملى كأنه صناعة لفظية فقط . بدلالة مامرت حكايته ، وما نَفعُ شجر هو بلا ثمرة ؟ فتأمل .

اذ لو اعترف معترف بهذا الاصل ، وأعرب عن نفسه به ، ثم عمد الى صفوة الله من خلقه من الرسل وغيرهم ، فنابذهم وشاقهم ، وبالغ في مناوأتهم ومناقضتهم : لكان الى الإكذاب لنفسه أقرب منه الى تصديق دعواها .

وإنما رددنا عبارته توخيا لما يكون معه أقل فحشاً وشناعة، وإلا فهي على أي شق وقعت — كريهة المنظر والمخبَر .

على أنه غلط في هذا التعبير غلطا سيئا ، وهو قوله : «أرباب الألباب من أهل كل شريعة وملة » فمتى كان ذوو الألباب فيمن ابتغى دينا غير الإسلام وشاق الرسول ؟ وإنما يذكر أولو الألباب من المؤمنين الذين يعلمون ما أنزل الله من الحق على نبيه ﷺ وآمنوا به واتبعوه . كما ذكر الله في كتابه .

قوله : وترجيح كل منصف نظر من كان قبله .

فهذا إفك مفترى عليهم . فهذا عثمان رضي الله عنه صلى بمنى تماماً مع قصر النبي صلى الله عليه وسلم والخليفتين بعده ، وإمضاء عمر من الطلاق ما كان للناس فيه أناة ، وقضى في المتعة بما قضى ، حتى قال ابنه عبد الله رضي الله عنها « أرأيت إن كان أبي قضى بشيء ، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلافه : أرسولَ الله أتّبع أم أبي ؟».

وليت المقلدين رأوا لأنفسهم حاصل مذهب ابن عمر هذا ، وقول ابن عباس في مسألة العَوْل وماشا كلها « من شاء باهَلْتُه : أن الذي أحصى رمل عالج لم يجعل في المال نصفاً ونصفاً وثلثاً » واعتذر عن إظهار خلافه على عهد عمر بأنه كان مهيباً .

وقول أبي حنيفة أو أحد نظرائه « التابعون رجال ونحن رجال » .

ومذهب علي — وهو الإمام المعروف — في أمهات الأولاد: منقول مشهور.

وفيه : أن عَبِيدة السّلْماني قال له « رأيك مع الجماعة أحب إلينا من رأيك وحدك ».

وأشهر من ذلك كله : قسمة من قسم من المتأخرين البدعة ، الى الأحكام الخمسة ، ولايعرف عن سالف عصور الأمة حرف من ذلك ألبتة .

بل أشهر من جميع ماذكرنا ، وأوضح وأبين : مااشتهر بين المتأخرين ، وانتشر وذاع : من أن تحرير الأدلة في علم الكلام ، على هذا النحو المتعارف

بينهم : طريقة خاصة بهم ، وسبيل استقل بـه أولئك الخلف ، حتى لايشك أحدٌ نظر فيها في مباينتها لما كان عليه السلف ، وانفصالها عنه . ولهذا شاع بينهم واشتهر ، ودار في تدريسهم وكلامهم ومؤلفاتهم وتحاورهم « إن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أحكم » هكذا على العموم ، من غير استثناء فردٍ واحدٍ من سلف أو خلف ، فافهم .

وتعقبهم في هذا الحكم غير واحدٍ من المحققين بما حاصله : كما أن طريقة السلف أسلم . فهي أيضاً أعلم وأحكم ، وبينوا وجه ذلك .

وممن أشبع فيه وأوسع : إبراهيم الكردي في « قصد السبيل » فطالعوه . فلو لم يكن في الباب إلا هذا الطريق لكفى . كيف ؟ وكتب المقالات مشحونة ، طافحة بأنظار النظار ، ومذاهب العلماء الكبار ، حاكية مايرجحونه لأنفسهم من دون اعتبار نظر من قبلهم ، ولايأتي العـد على أفراد مااختاروه . وهو خلاف مااختاره من قبلهم ، وهو امر كثير شهير بَيِّن مُسْتَطَر ، لايخفى إلا على أكمه لايعرف القمر .

ومنه : مانقل ان الشافعي اول من أبى قبول المراسيل ، وان السبكي وغيره من أعلام المتأخرين بحثوا في القول بعدم كفر الخوارج ، لكون مقتضى الأدلة ذلك ، ولاضير في شيءٍ من ذلك عن نظر واجتهاد ، وهو السبيل المسلوك عند اهل الإنصاف لاسواه ، حتى إن من اعتمـد نظر مَنْ كان قبله من دُون استظهار الصحة والحقيقة : فهو التقليد الذي قـد ترجم عن نفسه بأنه أبعد شيء عن الإنصاف ، وأقرب الى الحيف والاعتساف .

فإما أن يقولوا : لأن الشافعيّ ومالكاً وأباحنيفة وأحمد والثوري والأوزاعي والليث والشعبي والنخعي ، وسائر أئمة الخلاف المنقولة مذاهبهم : كانوا في أنظارهم وأقوالهم واختياراتهم على ترجيح نظر مَنْ كان قبلهم – اي وإن بلغوا بالنظر الى خلافه – فنظر من قبلهم آثر ، ولو خفي عليهم وجهه . فهذا كَـذِبٌ

امّا كونه كذباً : فلكونه خلاف المعلوم. فالله المستعان على مباهتته جهارا.

وأما كونه إكذاباً : فلأن القوم المبحوث معهم قد ادعوا لأولئك الاجتهاد، والأمر كذلك ، والاتفاق على ترجيح كل منصف نظر من كان قبله : يأبى هذا بلا اختلاف .

وإما ان يقولوا : لا . فعَدُ القمرِ الحجرَ ، وهو المطلوب .

ثم إنا نورد عليهم الآن سؤالا ، وهو أنه : هل أردتم « بِمَنْ » في قولكم: « من قبله » أي الكل ، كما هو الظاهر من سياق كلامكم على تهافته واختلافه؟ فهي مسألة الإجماع ، وقد تقدم ما يشفى ، أو الجنس ؟ فهو الذي تكلمنا على بطلانه الآن ، أعم من أن يكون كلا ، إن سلم ، كتحرير أدلة الباحثين في علم الكلام ، أو بعضها ؟ كما عداها من الأمثلة .

بل أغرب من جميع ما أسلفنا ذكره عنهم : ان هذه الطريقة التي سكنوا إليها ، واستقر أمرهم عليها ، من المذاهب المخصوصة ، عن عدد محصورين ينتهون الى رأيهم ، ويقفون على إشاراتهم — إن صدقوا أيضاً — من المعلوم بالاضطرار: أنه لم يكن في السلف شيء من هذا المعنى أصلا ، ولا سلكوا من هذا الفج شعبة ، ولا ارتكبوا من ذا الصنيع صعبه ، ولا يوجد عندهم شائبة من هذا الباب ، ومن البعيد — شرف الله قدرهم — ان يحصلوا على نكتة منه ، ولو كان ذا سبيل كل من في عصر البعثة ، لما اتعظوا بمثل قوله تعالى (٤٣ : ٢٢ — ٢٥ أمْ آتيناهم كتابا من قبله ، فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا . إنّا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ، قال : أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما ارسلتم به كافرون) .

أفهؤلاء ارباب الألباب عند هذا القائل ؟ فلولا ترجيح القوم نظر مَنْ كان قبلهم ، وتقرر هذا الأصل عندهم ، الذي زعم ان عليه اتفاق ارباب الألباب:

ما كانوا عبرة للأنام ، ولا افصح بالتسجيل على عمى بصائرهم سيد الكلام .

فدونك ايها المخاطب ، هذه الطريقة التي اتيت – لا ام لك – ولولا هذا الأصل الفاسد . ماقالت تلك القرون (٣٨ : ٧، ٨ ماسمعنا بهذا في الملّة الآخرة إنْ هذا إلا اختلاق ؟) (٢٣ : ٢٤ ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين).

ولما تفرق شمل اهل هذه الدعوة الإسلامية على هذه الصفة الغريبة ، بحيث يشق حصر طرائقهم ونحلهم ، ومن حصل منهم على طريقة جعلها معبر السعادة ، والقى على ماسواها سمة البدعة ، وبعضهم زيادة .

وجميع ذلك لاسبب له : إلا مواد هذا الأصل الضال ، الذي مازاد على ان صوب فرق الضلال ، لأنهم إنما فعلوا ماسطر عنهم ، لما رجحوا نظر من كان قبلهم . فإن كان ماسلكوه إنصافاً ، وسنة لأولي الألبـــاب . فلعمر الله ، مالتسجيل كتاب الله عليهم كثير معنى ، ولا لنسبته فرط الغي والحماقة إليهم وجه اصلا ، ولا لمقالة اهل السنة والجماعة في المبتدعة عندهم ، وسمتهم بالسوء من القول في الخطب وأدبار الصلوات المكتوبة ، في مهابط الوحـــي : مساغ ولا مجال ، إذْ مابعد سلوك محجة الإنصاف ، وسبيل ذوي الالباب إلا مُرُوقٌ بَحْتٌ ، ولا سيما مع قوله « من اهل كل شريعة وملة ».

فاعجب لها من زلة مضلة ، لوعم سلطانها لأتت على الإسلام من اصله ، وذهبت بأنصاره واهله ، ووطدت اعمدة الشرك وفروعه ، كما هي الآن قد اتت على كثير من رسوم التوحيد والشريعة .

نعم ، معرفة الفضل لأهله : اجنبي عما يروم ، لما قدمنا من انه لاتلازُمَ بين هدم قبة امرَ الشارعُ صلى الله عليه وسلم بهدمها ، وبين احتقار ساكنها ، بل ذلك من تمام اخوتك له ، ومودتك إياه ، ورعايتك جانبه . إذ ارحته من بلاء كبير جاوره في البرزخ . فأرِحْهُ . اراحك الله من وصب الدنيا والآخرة.

فما اجاب المنازع لنا عن اي ايراد مما اوردناه عليه. فهومن جملة مطلوبنا. ومما نتشوفه ونحرص على ظهوره منه .

كأن يقول مثلا : ترجيح نظر من قبلنا في هذا الشخص غير سائغ ، قلنا له : لماذا ؟ وجوابه المطلوب .

او يقول : هذا التابع لنظر من كان قبله قد اخطأ لخطأ مَنْ قبله . فلا اقصده في مقالي .

قلنا له : هو المطلوب ايضاً ، مع ان قولك « من اهل كل شريعة وملة » ماأبْقَى لك من امرك فسيحة ولامخرجاً .فتأمله .

قوله : ولايخفى انه قد استمر السلف الصالح ، والخلف الناجح،على وضع القباب والتوابيت ؟.

اقول : هذه من جناياته العظيمة على خير امة، بما لاعلم لهبه ، ولو تصورنا صحة هذا عمن ذكر ، لكانت بوصف الشر أنسب، وما كان لهامن ان تتواطأ على خلاف امر نبيها ،الذي طهرها الله بهمن الإثم ورجز الشيطان ،وتمالأ— واعاذها الله من ذلك ، اذ ليست لهاهلا — علىنبذ عهوده الأكيدة الكثيرة، ومعاندته فيما دعا اليه من صيانة التوحيد ، للحميد المجيد .

وهذه مسألة — كما عرفت — شهيرة في السنة الشريفة ، حَرِيَّةٌ بالاتفاق على ماتضمنته ادلتها السالفة في الباب الثاني .

وهلم النقلَ عن الصحابة والتابعين ،واعلام تلك القرون الفاضلة ،اوبعضهم: انهم رضوا مادَنَّستَ اعراضهم به . فأنت في هذا جان عليهم ظالم لهم،ناسب لهم الى خزية عظيمة ، من اتفاقهم على مثل هذا المنكر الكبير .

ولانظن بصحابي ولاتابع بإحسان ، ولاغيرهما من العلماء الأعيان :الاضد ماذكرت . فإنك لم تأت بحرف واحد عن احد ممن اشرنا اليه : انه نقل عنه

بسند مقبول ، قول يقضي بما القيته عليه من هذه الرزية ، الـتي لايرضاها مسلم ، لظهور عارها بعد استيضاح مافيها .

وظاهر الحال عن اولئك الكرام : هو ماسردنا من تلك البراهين الفخام اذ لانحتاج الآن الى نقل عن احد منهم : انه قرأ في صلاته ، وانه قائل بشرعية القراءة في الصلاة ، وكذا الركوع ، والسجود ، والتشهد ، والتسليم ، وحضور المسجد لصلاة الجماعة .

وكذا لانظن بأي قرن منهم : انه بحث في علم الكلام ، اوتفاريع المذاهب او تبع إماماً في مذهبه ، او أقام أربع جماعات متتالية عن قصد ، لصلاة واحدة في المسجد الحرام ، كل صلاة بإسم إمام — ليت الأئمة شاهـدوا —او أجاب لمّا قيل له «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » بأن هذا خلاف مافي المذهب المقرر ، بهذه العبارة ، او معناها ، او أفحش منها ، او أخذ عنـد ذلك يذكر كلام زيد وعمرو ، ومافصلوه في حكم ذلك المروي .

وبالجملة : فهم احرى الناس باتباع ماهو لم يبلـغ معشار ماذكرناه في شأن القباب والمشاهد .

ولقد بلغنا عن الإمام الشافعي كلمة سَيَّرَهَا عنه الفضلاء « أدركتُ الأئمة بمكة يهدمون البناء على القبور » ومحلها معروف ، وكأن الله ألهمه بإرسالها .

وأمّا مايصنعه الجهلة والسلاطين ، الذين يتخوضون في مال الله بغير حق . فلهم النار يوم القيامة ، من جراء التنافس في هذه الأبنية . فالتبرؤ منه أرضى لله تعالى ، وان كثر وفشا في هذه الأخلاف ، التي قد تعفّى لديها جمهور رسوم الشريعة والمعالم الدينية . فهذا من ذاك ، وماذا بقي من المعاهد الأنيسة ، والمعالم المقدسة ؟ اذا حققت النظر ، وتصفحت الاحوال . وماوجدناعالماً قدوة ، اوأحَداً من أفاضل الأزمان . إلا تنكرت له المعارف ، منذ عصور طويلة ، حتى أنس

ابن مالك الأنصاري رضي الله عنه ، كما رواه عنه البخاري في الصحيح « أنه ماعرف مما يعهد إلا الصلاة ، على مافيها ».

فما بالك بِحُثَـالَةٍ يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الْحُمُرِ . نسأل الله العافية .

وكأنه — لهذه النكتة وأشباهها — خص قومٌ الإجماعَ المحتجَّ به بإجماع الصحابة فقط .

وصرح جمع — منهم : محمد بن جرير الطبري . الإمام الشهير —:ان إجماع المتأخرين ليس بحجة ، فاعرف هذا ، ولاتكن كالبعير يعقله أهله،ثم يطلقونه لايدري : لماذا عقل ؟ ولا لماذا أطلق ؟.

ونحن قد اشرنا فيما سلف الى مذاهب من وافقنا من سلف الأمة وساداتهم على ماذكرنا في هذه المسألة ، ومن غيرهم أيضاً ، ولعل دعوى الاتفاق على نُكْر القباب والتوابيت من السلف الصالح ومن تبعهم : أقرب من ضدها؛ ومن لم يُعرف مذهبُه منهم . فلا نخاله حَادَ عما في تلك الأحاديث التي سمعت.

قوله : إن صدور العلماء الأعاظم سكتوا عن إنكار وضع القبب والتوابيت.

أقول : قد مَرَّ مافيه .

قوله : ولاريب ان إنكار ذلك ممن بعدهم فيه كمال التشنيع عليهم.

أقول : مايُرِيْنا آيةً إلا انستنا ماسواها ، وإلا فأي مساس بين إنكار ماوضح لك بطلانه ، والتشنيع على من قال به ؟ولازال دأب العلماء—خصوصاً من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم . فمن بعدهم قَرْناً فقَرْناً الى عصرنا هذا — يُنْكِرُ العالِمُ ، ويقَبِّحُ ويُحَذِّرُ ، ويُظْهِرُ ماعَلِم فساده ، وان كان قد قال به مَنْ قال ، من سبَّاق العلماء ، ولايرى ذلك تَشْنيعاً ، ولاخطأ على قائله .

وهذه كتبهم واخبارهم وسيرهم حاكية لما يضيق به نطاق الإحصاء ، ومن هو في غفلة فبعيد عن الاطلاع ، ولايعلم عن احدٍ منهم قط يذكر : أن إنكار ما استحسنه او رضيه احد تشنيع عليه .

هذه مقالة جاهلية ، لاتليق بمذهبهم الشريف ، ولكن الأحمق يضرك بما يظنه نفعاً لك ، بل يضر نفسه بما يظنه نفعا .

أماعلم : ان ذلك محض النصح لله ولرسوله ، ولإخوانك المؤمنين ؟ حيث تُنَفِّرهم عن الزلات ، وتوضح الأغاليط ، ومازال كثير منهم يومىء في كتابه ، أو على لسان تلاميذه « إذا صح الحديث فارموا مذهبي » وان لم يعبر بعضهم بهذه العبارة . فهو قائل بمعناها ، وإلا فهو لايحب الإنصاف .

ولقد وجدنا في كلام الصحابة وقضاياهم : مايحتمل مؤلفاً حافلاً في إنكار بعضهم على مقالة بعض . رضي الله عنهم وارضاهم .

قوله : على ان الإنكار لايسوغ إلاّ على ماأجمع على إنكاره وحرمته .

أقول : هذه المقالة قد تداولها كثير من الناس بختامها ، من دون فَضِّهِ ، وافتقاد مافي الكيس من رديء المعنى ، وهي عاطلة عن التحقيق ، حاصلها: رفع الإنكار جملة ، إلا في القطعيات ، التي لااستناد فيها الى إجماع أصلاً .

وأما ماعداها : فإمّا الخلاف فيه مسطور ، أولا يتحقق فيه الإجماع ، عند صدقِ النظر . حق لمّا صح لبعض السلف - وهو الإمام احمد رحمه الله - ماأشرنا اليه قال « مدعى الإجماع كاذب » وكم فيما لايدعى فيه الإجماع أو يوجد فيه الخلاف ماهو أظهر وأصح ، وأمتن نقلاً ، وإفادةً وقوةً ، مما زُعم فيه الإجماع . فلا نطل الكلام في باردة ، مالها قيمة .

قوله : وقد نص علماؤنا على عدم كراهة البناء .

أقول : هذا مبلغه من العلم ايضاً ، ولا أثق بصحة العموم في قوله علماؤنا.

وتأمل مقتضى مانقله مَنْ هو منه أوثق ، لعله نص في الرد عليه ، وقدسبق ماحرره صاحب (إغاثة اللهفان) فليراجع .

وها نحن الآن نطالبه بصحة النقل : ان جميع الحنفية قائل بعدم كراهية

البناء ، إذْ ماذكره في نقله هو عن افراد منهم في كتب معينة ، وهـذا من إجماعهم بمكان سحيق ، بل فيما نقله هو : مايدفع في نحره . فإنه قال: وقال صاحب الدر المختار : إنه المختار ، انتهى .

ولكن الرجل لايفهم معاني الكلام .

وبالجملة : فليس بنافعه عند الله ، ولاعند المنازع تلك الدفاتر.

قوله : فلا ينكر الحنفي على الشافعي أكل الضب والضبع ، ولا الشافعي على الحنفي شرب المثلث ، وتوريث ذوي الأرحام .

أقول : إن كان الإنكار استناداً الى قول الإمام بلا حجة. فالأمر كذلك، بل هو منكَر ، لأنه إنكار بلا علمٍ ، ولا وجه له .

قوله : دعوى الاجتهاد في هذه الأزمان ظاهرة البطلان ، وقـد نص الحافظ ابن حجر : بأن الاجتهاد بجميع أنواعه انقطع من القرن الرابع ، وكفى بذلك حجة .

أقول : من ترامت به الغفلة الى هذه الفلوات . فهو في تعداد الأنعام حالاً لاحكماً ، وغاية بحثه وبحث إخوانه : مُصَادَرَةٌ . وناهيك بمن يقرر دعواه المرسلة ، بلا خطام ولا زمام : بأن الحافظ ابن حجر قد نص على مقتضاها ، ثم يقول : « وكفى بذلك حجة » فمتى كان التحقيق هكذا ؟ فوالذي نفسي بيده ، مايعجز عنه احدٌ من البشر ، ولايكون فرقاناً قط . بين مَنْ دان بالإيمان ومَنْ كفر . إذ كلٌ يستطيع القول ماوجد إليه سبيلا . فهذا ممكن لكل أحدٍ ، لأن حاصله : ترجيح بلا مرجح ، وتحكم بلا مصحح ، واختلاق يَرُدُّهُ الوجدان ، وإفك مبين ، يقال عند مفاجأته : سبحان ربنا ، مكون الأكوان .

قوله : على ان الفتنة التي تحصل بعد الهدم — لو فرض — اشد واعظم ، بل يكون سبباً لاختلاف الكلمة ، ووقوع الهرج — الى قوله — : ولا يَستَحْسِن وُقُوعَ ذلك إلا منافق — الى قوله — : ألاترى قوله صلى الله عليه وسلم للصديقة ، التي امر

بأخذ شطر الدين عنها : «ياعائشة ، لولا ان قومك حديثو عهد -الخ».

أقول : كأن هذا تنزل منه ، اولانت شكيمته . فعادالى التشغيب بخوف المفسدة ،وهذا اجنبي- كاعرفت - عمانحن بصدده ،لأنه-على احداحتماليه- مترتب على حسن الهدم اصالة .

ولهذا قال في آخر كلامه هذا : فعلم ان سد الذريعة احد اركان الشريعة.

وقد تقرر في قواعد المذهب المعتبر الواضح : أنّ درء المفاسد : مقدم على جلب المصالح . انتهى .

ونحن ربما لانخالف في هذا ،بشرطه المعتبر ، ولكن هلاّ قام هوواخوانه - إن كان هذا هو المانع -ووقفوا عليه ، وإلاّ فهم قد اكثروا في خلافه ،كما عرف ، فقالوا : برئنا الى الله من بناء القباب والمشاهد ، ولولا خوف الفتنة لباشرنا هدمها ، ليكون ذلك نصحاً لله ورسوله ،فيما أذاعه الشيطان في العباد.

وأمـّا ذكره العمامة الكبيرة لتمييز العلماء ،والخَضْرَاءَ للاشراف ،ومايشبه ذلك : فعود الى حساب الفلوس ، ماهي صناعة المحقق .

على ان قوله : إن النبي صلى الله عليه وسلم امر بأخذ شطر الدين عن الصديقة رضي الله عنها وعن أبيها ، إشارة الى ماذكر من حديث متنه « خذوا شطر دينكم عن الحميراء ».

وقد بحثنا عن هذا ، واذا حفاظ الفن وأئمة هذا الشأن ،لايعرفونه في جميع ماوقفنا عليه من كتبهم الحوافل ، ولم يأتوا فيه بسندٍ ضعيف ،فضلاً عن حسن فضلا عن صحيح .

وقد كشف امره الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي في (المقاصد الحسنة) وكذا العلامـة ابن الديبع في مختصره (تمييز الطيب من الخبيث) والفيروز أبادي في آخر كتابه (سفر السعادة) وغيرهم .

وبالجملة : فقد خَفَّ عنـد هذا ونظرائه شأنُ الكلام على رســول الله

صلى الله عليه وسلم . فلا يبالون ما يقولون ، حتى عليه ، (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذامن عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم. وويل لهم مما يكسبون) .

قوله : ولولا خوف الإطالة ، المفضية الى الملالة . لزدتُ على هذا المقدار، بما يملأ الاسفار .

أقول : الزيادة على ما قد وقع ، مُستَغنًى عنها به .

أقالَكَ الله مِنْ عَثَارٍ قَدْ تمادَى خَرْقُهُ وأَفسَدْ

وَصَيَّرَ الدِّين مُستعيذاً بالله في شَملِهِ المُبَدَّدْ

ومن جواب المفتي الشافعي — رفع الله قدر إمامه — قوله :

وبعد ، فإن بناء القباب إما أن يكون في ارض مملوكة ، رضي مالكها بوضع البناء فيها ، وهذا القسم لاشك في جوازه ، على سبيل كراهة التنزيه، لورود النهي عن ذلك .

فقدروى مسلم والترمذي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُجَصَّصَ القبرُ ، وأنْ يبنَى عليه » . زاد الترمذي « وأنْ يُكتَبَ عليه ، وأن يُوطَأ » .

ولا ريب في حرمة هدمه ، لأنه موضوع بحق ، لجوازه بالمعنى المقابل للتحريم الصادق بكراهة التنزيه .

وإما أن يكون في ارض موقوفة للدفن ، او مسبلة عليه ،بأن اعتادالناس الدفن فيها . فهذا القسم ، لا شك في حرمته ، وجواز هدمه ، بشروط :

الأول : ان يعلم جهل حاله ، قال الرازى في حواشي شرح المنهج : لان الاصل وضعه بحق، كما في نظيره من الكنائس ، التي جهل حالها ، هل وُضعَتْ قبل استيلاء المسلمين على الارض ، او بعد استيلائهم عليها ؟ .

الثاني : أن يحصل به التضييق على المسلمين في امر الدفن ، بأن يوجب بقاء البناء دفن شخص على آخر قبل انمحاق اثره .

الثالب : أن لا يكون الميت ممن ورد فيه نص بأن الارض لاتأكل له لحما ، ولا تهشم له عظما ، كالانبياء ، والشهداء ، يفهم ذلك من تعليلهم حرمة البناء، وجوازهدمه بأن البناء يتأبد بعد انمحاق الميت، اي : فيؤدي الى التضييق في امرالدفن فيما وقف او سبل لذلك . فعلم انه لايجوز الهدم إلا حيثما حرم الوضع، كما فهمه ابن عبدالحق من عبارة النووي في المنهاج ، وعبارته في شرح المهذب، وذكره في حواشيه على شرح الجلال المحلي للمنهاج ، وإما أن يكون في موات. فهذا القسم قدالحقه الاوزاعي بالارض المسبلة للدفن، وعلله بانه لايتعلق بالبناء فيه على القبر غرض شرعي، بخلاف إحيائه داراً ، او بستاناً ، او غير ذلك.

لخصناه من المنهاج وشرحه للجلال المحلي وحواشيه لابن عبد الحق، والمنهج وشرحه لشيخ الاسلام زكريا الانصاري، وحواشيه لنورالدين الزيادى، ومن الروضة ومختصراتها ، ومن شرح التنبيه لابن يوسف والسويدي وغيرهما .

اقول : قد سقت هذه الجملة بطولها والفاظها ليعتبر بذلك كل ذكي القلب صادق التأمل ليزداد بصيرة ومعرفة بنمط القوم وخبرتهم بالسروب المذهبية . فما ظنه الدهر بمن يقول :آمنت بالله ورسوله ، الحلال: مااحل الله، والحرام : ما حرم الله، والدين : ما شرع الله ، والحكم: ما قضى، ويسمع نحوماتلوناه من الاحاديث الصحيحة في هذه المسألة عمن لاحجة إلا هوثم يعودكل هذاعنده صورة بلا معنى؟ ويكون الحاصل لديه من علوم الدين : ما فهمه أبن عبد الحق من عبارة النووى، وما افهمه تعليلهم حرمة البناء بأنه يتأبد بعدانمحاق الميت ، وإلحاق الاوزاعي وتعليله وشبه ذلك .

وهذه التفاصيل؛ وإن تكلمت بها الاحبار، فلماذا تقييد ما اطلق الحديث، وتفصيل ما اجمل ، وتخصيص ما عم ؟ فإن قضية الحديث الذي عند مسلم والترمذي ومرماه: لايوافق تلك التفاصيل، ولاينقسم عليها. وتنزيله عليهامن قبيل الرأي المذموم ، الذي منه تأويل هذا الحديث، وتنزيل قضيته على ماذكر

والحاصل: ان هذه التفاصيل أتت على مسالك الحديث والغته عن إفادته، وجعلت محله اضيق محل، وفائدته أقل فائدة، ومجاله كسم الخياط. وقالت له: منزلك ما جمع الثلاثة الشروط، ونتركك على ظاهرك مُخَلًّى سبيلك. او البناء الذي بارض مملوكة رضي مالكها بوضع البناء فيها حَسْبُ، لكن لا يكون حينئذ حظك ايضاً إلا كراهة التنزيه. وصار مدار الحكم بمنع البناء والجواز: يدور على ما لخصناه من المنهاج والروضة ومختصراتها، وشروح التنبيه وغيرها.

اليس هذا تحريف للحديث من جهة معناه ؟ فإنه ينادى بمنع البناء على الاطلاق، فاخرجوا منه ما إذا لم يحصل به تضييق. وما كان بناء على من ورد فيه نص بان الارض لاتأكله؟ وما إذا رضي المالك، مع كراهة تنزيه في الاخير. فالحديث عن المشرع صلى الله عليه وسلم في شق وحكمهم في شق ؟

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

وهذا عين الإلغاء لحكم الحديث والإعراض عنه، الذي يحذر الله منه في قوله (٢٤ : ٤٨ ، ٤٩ وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض، أم ارتابوا ، ام يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون).

لأن المالك اذا لم يرض ، او حصل بالبناء تضييق . فالمانع هو ما ذكر . والخبر حينئذ شيء لا طائل له .

وحاصله : اما أن يكون المانع مثلا عدم رضا المالك او خوف التضييق . فالحديث لغو . فذكر رضائه مصادمة وإلغاء للحديث ، كما يحكم بذلك قضية العقل السليم والنظر الحكيم .

وعلى كل حال : فهذا تلعب بالدين . فإنه اي معنى لقوله : إن لم يرض المالك ، فيحرم البناء للحديث ، لأنه يصير تأكيدا لشيء حاصل، ويصير ذكر

البناء بخصوصه عاريا عن الاعتبار، لأن المالك إذا لم يرض بوضع أ ى شىء في أرضه حرم . فما للحديث وذكر البناء؟ كيف يسوغ لمؤمن أن لايقيم للحديث ميزانا ، ولا يعرف له قدراً ولا شأناً ، ويجعل في مقابل ما يقرره الحديث وصريح ما تضمنه : قول عالم مضطر في ثبوته إلى الحجة . والحجة غنية عنه ؟

ولا تظن أيها الناظر أن قوله «فهذا القسم – يعني ماوضع من البناء في أرض موقوفة للدفن أو مسبلة عليه ـ لاشك في حرمته ، وجواز هدمه إذا وجدت تلك الشروط » عملا بالحديث بل إمالقول الذى تلقنه؟ ولهذالما تلقنه مشروطاً أورد شروطه واعتبرها ، وألغى اعتبار إطلاق الحديث ، لأنه لما كانت جهة الإطلاق هى جهة الحديث كانت ملغاة عنده عن الاعتبار جملة كافية . أتراه رعى للحديث مكانه ، أو رفع له شأنه ، بل صنيعه وصنيع اخوانه صريح في أنه ليس للحديث عندهم وجود البتة .

نسال الله العافية ـ فإن هذا وما شابهه من محاط رحال الاعتبار .

قوله : وأما قول ذلك المفتى : ان زوارها عبدة الأصنام ، لأنهم يقولون : يا ولى الله افعل لى كذا ، واترك لى كذا . كانهم يتخذون الأولياء آلهة تخلق لهم الأفعال من جلب خير ودفع ضير . فهو قول عاطل وخيال باطل[1] . بل وقصارى امرهم : هو التوسل الى الله تعالى في قضاء الحوائج بالاقربين الى الله في اجابة الدعاء ، وقضاء الحوائج باهل الخير . وقد ثبت ان عمر كان يستسقى ويتوسل بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم فيسقون ، ولم ينكر عليه احد من الصحابة . فصار ذلك اجماعا . غايته : ان العوام قد تقع منهم عبارات موهمة ، لعدم احسانهم العبارة اللائقة مع كونهم مركوز في طبائعهم : ان المؤثر

---

(١) والحمد الله . فالقول العاطل قولك ايها القائل . فان هذا : هو عين الشرك الذي بعث الله رسله من اولهم الى آخرهم يحاربونه ويهدمونه . فسبحان من طبع على قلوب من شاء من عباده حتى لم يعرف الشرك من التوحيد .

في الأمور كلها ، خيرها وشرها : هو الله تعالى ، والعلم بالعبارة علم زائد على العلم بأصل المعنى . ومثل ذلك : لاتؤاخذ به العامـة ، بل هو بمنزلة اللغو في اليمين .

أقول : في هذا الكلام – وهو ذكر التوسل بالأقربين الى الله تعالى في قضاء الحوائج – ماترتب عليه ، اونشأ منه من غائلة الضرر المتلف للدين والعقول. ومن عقل الإيمان بالله وتوحيده لايلتبس عليه الحال ، ولاتشتبه عليـه شمس الضحى بحالك الليالي ،حتى يتوهم ان تلزيق هذا يروج في الملة المبرأة عن السفه ونصره الباطل البين أغرب من اعوجاجه وميله ،وأعجب من ولوج العوام في ظلمة ليله .

وكاد ان ينسينا هذا الكلام ما كنا بصدده أولا من تقرير منع وضع القباب والمشاهد ، والبناء على القبور وشبه ذلك.فانه أربىَ على ذلك لما كان خروجا عنه الى نهاية مطامح نظر العدو ، ومرامي قصده .

ولما كان الثاني نتيجة الأول ، ومرمى غرض ابليس من الدلالة عليه .نقل من خفي عليه الأمر من الرضا بالأول الى الرضا بالثاني ، ومن يتكلم بمثل هذا الا من لايدري مافشى في العامة ، ومن امتاز عنهم بالأسم فقط ،وماصار هِجِّيراهم عند الأموات ومصارع الرفات : من دعائهم والاستغاثـة بهم ، والعكوف حول أجداثهم ،ورفع الأصوات بالخوار ،واظهار الفاقة والإضطرار ، واللجأ في ظلمات البحر ، والتطام أمواجه الكبار ، والسفر نحوها بالأزواج والأطفال . والله قد علم مافي طي ذلك كله من قبيح الخلائق والأفعـال ، وارتكاب مانهى الله عنه واضاعة حقوق ذي العزة والجلال ، والالتجاء المحقق الى سكان المقابر في فتح أرحام العقام ، وتزويج الأرامل والأيامى من الأنام واستنزال السحائب والأمطار واستماحة المآرب والأوطار ، ودفع المحاذير من المكاره والشدائد ، والإناخة بابوابها لنيل مايرام من الحوائج والمقاصد. وبالجملة : فاي مطلب او مهرب .

ترى هنالك ربـع المشهد مأهولا ،وقد قطعت إليه المهامِهُ وعورا وسهولا ،

والنداء لساكنه : ان يمنح او يريح ، والتأدب والخضوع والتوقير والرغبة ، ومشاعر الرهبة . وينضاف الى ذلك ــ خصوصاً في الزيارات في الأعياد والموالد ــ نحر الأنعام ، وترك الصلاة ، وصنوف الملاهي ، وانواع المعاصي للمليك العلام ، وكثيرون لاطمع في حصرهم ، ولعلهم العموم ، الا من شاء الله : ان لم تلد زوجة أحدهم اوطال مرض مريض منهم ، او اصاب امرأة التَّوْقُ الى النكاح ، او قحطت الأرض ، او دهمهم نازل من عدو ، او جراد او غيرهما ، او راموا امراً عَنَاهُمْ تحصيله . فالولي في كل ذلك نصب العين ، واذا جرى المقدور بنفع او دفع ضر ، او حصول مكروه كان المركوز في عقيدتهم التي لايتحولون عنها : ان ذلك ثمرة الاستغاثة به ، والإنابة اليه في الأوَّلَيْن . ودليل ضعف الاعتقاد ،او اختلال شرط من المنيب او نحوهما في الثالث . فصار مدار التصرف والحصول له خاصة ،او مع الله في شيء دون شيء.

وحاصل معتقدهم : ان للولي اليد الطولى في الملك والملكوت . كما سيأتي في تحقيق هذا وشرح وقوعه في افعال مَنْ على هذه العقيدة ، وذكر ألفاظهم مبينة مفسرة ، مصرحة بما حكيناه عنهم، وانهم قد ذهبوا هذا المذهب المشروح آنفا في سكان التراب ، وانزلوهم هذه المنزلة المحكية من مساواة رب الأرباب وقد سردنا بعضها للبيان ، ولئلا يتمكن الخصم من جحود، او يقدر على مدافعة ، وليعرف كل سامع لما نمليه : ان القائل « بان العوام قد يقع منهم عبارات موهمة ، وقصارى امرهم : التوسل » إمَّا غالط او خالط ، او جاهل للدين . وإلا فما بعد هذا ؟

فان العامة في كثير من حالاتهم وتقلبهم قد ابدلوا معالم الشرع بسواها في هذه الجهة . فجعلوا الذهاب الى قبة الشيخ والتضرع له ، والإلحاح عليه : عوضاً عن الخروج الى ظاهر البلد للاستسقاء ، والإنابة الى الله في كشف تلك النازلة او سبيلا الى كشفها ، مثل الخروج للتضرع الى الله ، ولكن عند

بعضهم . واما جمهورهم فلا يعرف لهذا المقام وظيفة سوى عتبات المشايخ .

هذا مثال . ولقد سلكوا هذا المسلك في مريض اعيَى داؤه ،وذليل قهره اعداؤه ، وذى سفينة عصفت عليها الرياح ، وتجارة امتدت آمال قاصدها الى نيل الارباح .

فيقول احدهم : التمس بركة الشيخ وكرامته ، فانزل بهذا البلد . وبعد ذلك حصلت لنا من الشيخ كرامة ، او ماقِبَلَنَا ، او شبه ذلك .

فهذا مايدعونه توسلا . وسنبطله ايضاً ان شاء الله ، ونبين : هل هو « عبارة موهمة » ام اشراك بذى التصرف في الملك والملكوت؟ لانه إنما بقى له تعالى في عقائدهم بعد هذا الذي سموه توسلا – الإمكان دون هذا الاثر ، اختص به عن ان يكون للشيخ دخلا فيه باي وجه لايتاهل له . وتاهيله بلا برهان : من الشيطان وكيده بلا شك عند اهل الإسلام .

ونية الوساطة – على فرضها – سنبين مافيها . والا فهي لانخالها الا بعيدة الخطور في البال ، وشواهد هذا ظاهرة في حالاتهم تلك . بحيث ان جماهير من العامة لايحصون في اقاليم واسعة واقطار متباعدة ، ونواحي متباينة ، لما كانوا قد نشئوا لايعرفون الا ماوجدوا عليه مَنْ قبلهم من الآباء والشيوخ من هذه العقائد الوثنية والمفاسد . فتجدهم اذا شكى احدهم على الآخر نازلة نزلت . فلعله لايخطر له في بال ، الا : هل قد ذهبت الى الولي ؟ وقد يضرب له الامثال بان فلانا كان من امره كذا ، وفلاناً كان من امره كذا ، حتى انسوا بهذا الباب اكثر مما يصفه الواصف ، وبقدر انسهم به تناسوا مارسمه لهم الرسول الحكيم الناصح الامين وجهلوه بالمرة ، وانطمست لديهم معالمه . وبعضهم قد يعرف شيئاً من ذلك لكنه يؤثر عليه ماذكر : اما لعدم وثوقه بذلك واما لغلبة انفعال نفسه لخاطر السوء ،واما لسلطان العادات والتقليد ، وبعضهم – وهو اقلهم كفراً – يجعل البابين محلا صالحاً مدخلا للدفع والنفع ،حتى انا شاهدنا مالايحصى قدره الآن : اذا سقطت دابة احدهم ، او عثر هو ،

او بغتته حادثـة من هذا القبيل : نادى ببديهـــة الحسّ : ياهادياه ، ياابن علوان ، ياجيلاني .

فما من مسلم عرف معنى الإيمان بالله حقاً وتوحيده ، وانس بطرائق هذا الدين الحنيف قبل استيلاء تلك البدع المحدثات على القلوب يرى شيئاً من هذا حسناً ، بل جائزاً ، بل معصية لاتدافع التوحيد ،فضلا عن ان يؤصل كونه باباً من الدين ، والدين بحمد الله واضح المناهج ، بين المـــدارج . لايحتمل اوهام من ضل وزل وخَرَّ لوجهه في مهاوي هذا الضلال المبين .

أفيقول ذو عقل : ان ماحكيناه « مجرّد توسـل وعبارة موهمة » بمنزلة اللغو في اليمين ؟ » اللهم إنا نبرأ اليك من هذه المخادعة لك ولدينك ، فإن من عنده مُسْكة من عقل ينادي : انه لايتمحل لضلال الناس عن إخلاص عبادة ربهم بهذه التمحلات السمجة إلا من لايفهم ولايدري [1] .

ومن عجيب ماأتته العامة من طرائف هذا الباب وغرائبه الفاحشة ، التي زعم ذلك المخادع القائل « إنها مجرد توسل وعبارة موهمـــة » ماشاهدناه بالمعاينة مكتوبا على راية مشهد من المشاهد « هذه راية البحر التيار . فلان ابن فلان ، به أستغيث وأستجير ، وبه اعوذ من النار » والى هذا اللفظ زيادة تركتها ، لأني لاأستثبتها الآن . وهي من هذا النمط المستطرف .

ومن عجيب طرائفهم في هذا الباب : قول بعضهم من قصيدة. وهي شيء يقشعر منه الجلد، وإنما حكيناه لمازعم شيوخهم المخادعون: انها عبارة موهمة بمنزلة لغو اليمين .

---

(١) الحمد لله . اللهم اهدنا ولاتضلنا .قاتل الله من قال ان هذا مجرد توسل أو عبارة موهمة بمنزلة لغو اليمين. فإن هذا والله هو الشرك الاكبر الذي لايغفره الله إلا بالإقلاع عنه ، وإبداله بإفراد الله تعالى بأنواع العبادة. فإن لم يكن هذا شركا. فما الشرك الذي بعث الله رسله تحاربه . وفي تطهير البلاد منه أريقت الدماء الطاهرة الزكية

يا سيدي ياصفي الدين ياسندي	ياعمدتي ، بل وياذخري ومفتخرى
انت الملاذ لما اخشى ضرورته	وانت لي ملجأ من حادث الدهر
امدد بمواد اللطف منك ، وكن	لي الكفيل بكشف الضر ونيل الظفر
وامنن علي بتوفيق وعافية	وخير خاتمة مهما انقضى عمري
وكف عنا اكف الظالمين اذا	امتدت بسوء وامر مؤلم نكر
فإني عبيدك الراجي لودك ما	آمله يا صفي السادة الغرر
وقد مددت يد الرجوى على ثقة	مني لنيل الذي املت من وطرى

انتهى المراد نقله منها .

فلا ندري : اي معنى اختص به الخالق بعد هذه المنزلة من كيفية مطلب او تحصيل مأرب؟ وماذا ابقى هذا المشرك الخبيث لخالقه من الأمر؟فإن كان هذا ، او ما يعطى شيئاً منه « عبارة موهمة بمنزلة لغو اليمين » فعلى السفسطة السلام .

فان المشركين اهل الاوثان ما يؤهلون كل ما عبدوه من دون الله لشيء من هذا ، ولا لما هو اقل منه ، كما سنشرح لك حالهم ان شاء الله تعالى .

ومن غرائب شرك العامة في هذا الباب : ما حدثنا به الثقات الاثبات عن حيّ من الاعراب ، حضرت أحدهم الوفاة . فقيل له : قل لا إله الا الله . فقال : اين الله ؟ قل : يا عمراه . كذا حدث اولئك ذلك سيد الحيّ بمجمع من اهل المحل ، على وجه اليقين المشهور عندهم .

ومن ذلك : ان حياً من اهل البوادي اذا ارسلوا انعامهم للمرعى . قالوا : في حفظك يا فلان ، يعنون ساكن مشهدهم ، وانهم اذا ارادوا السفر الى جهة استأذنوه ، والعمل في الجواب على سادن المشهد ، حتى انه اذا اشتد المرض برجل من العامة . فشد رحاله الى قبر الولي يستجير به ، او عنده من الموت . فهناك هنالك . نسأل الله العافية والوفاة على التوحيد الخالص .

ومنهم من يخاطب الولي بزعمه ، فيقول: ياخالق الولد الذي تخلقه مطهور ،

ومنهم اقوام يخاطبون المقبور من مسافة اربعة بردوا اكثر من ذلك، وينادونه يسألونه المطر، وكثيرون - لايدخلون تحت حد الإحصاء - اذا كان الحلف باسم الله اقدم عليه الحالف بلا مبالاة . حتى اذا طلب منه الحلف بصاحب القبر - وبالأخص إذا الزمه محلفه بإمساك حلقة باب النصُب - فلا يتجاسر قط إن كانت يمينا فاجرة . وقد لا يرضى المحلوف له الا بذلك، دون الرسم الشرعى . ويعتقد انه ان اقدم الحالف، فإن كان بارا ، والا بادره الولى بالعقوبة العاجلة ، والبطشة الكبرى [1] .

وهذا باب عمت به البلوى، واصاب شواظه كثيرا من العامة ، لايرضى من خصمه مثلا إلا باليمين على الشيخ او به وساعدهم في ذلك بعض الذين انتصبوا للحكومة بين العباد ، لجهل بما يلزم الذمة . وكانت منهم تلك المساعدة اوقع في الخطر من جهالة العامة ، لما أنه صورة تقرير ممن يظنونه أخا علم. فيقول ذلك الحاكم: لابأس، أجبه الى الحلف على قبر الشيخ. فإن رجع عن الاصرار على اليمين ظن الحاكم أنه قد اتى على الوجه الأحمد الذي يخرج به الحق ممن هو عليه .

وما علم الغافل ما تضمنه مقامه هذا من تبديل حكم الله تعالى، إذ حكمه الذي لا يلتبس مطلق اليمين إلا ماصح فيه تغليظ بزمان او مكان مثلا: فان كان فبشخصه وشخص دليله، بحيث إن الاجابة الى تغليظ لم يرد به شرع صحيح، والإلزام به بلا وجه بين، واعتبار هذه الجهة : قول على الله بما يصفه اللسان من الكذب،

«١» يغلب على ظني ان المؤلف لم يطلع علـــى طبقات الشعراني ، والعهود المحمديـــة والابريز للدباغ ، وامثال ذلك مما الفه ائمة الوثنيـــة ،والا لوجد فيها ما هو اقبح واشنع من ذلك . فلقد زعم الشعراني في العهود : ان لاوليائـــه« القبض والبسط ، والخفض والرفع ، والعزل والتولية ، والقهر والتحكم في الله » ولقـــد انتشرت هذه الكتب الوثنية الخبيثة في الناس انتشار النار في الهشيم ، فقضت على انسانيتهم وجعلتهم اضل من الانعام سبيلا .

وتشريع في الدين لم يأذن به الله ، وتقرير لهذه الشناعة في قلوب العامة . وقد بعثت الرسل عليهم صلوات الله وسلامه بقلع اظفارها ، واجتثاث ايثار القلوب لغير الله عليه ، والخوف مما سؤاه دونه ، وهدم الوقوف على مطلق رسم ديني بقبح ضده .

ولقد بلغنا ان رجلا من اهل ذمار ولي القضاء بمدينة بيت الفقيه ابن عجيل في زمن قريب من عصرنا هذا ، فتداعى عنده رجلان من اهل الجهة وجبت اليمين على احدهما . فاراد تحليف خصمه على مشهد الفقيه احمد بن موسى عجيل عملا بما في باله وعادة من هناك . فقال الحاكم : والله ما يحلف لك الا في مقامي هذا فألهم الله الرجل حينئذ الفطرة الاسلامية والطريقة الإبراهيمية.

ونمى الينا بطريق قوي أن رجلا حلف لغريمه أن لا حق له ، فبعد ذلك سأله اليمين بمعتقد يسمى شويع . فنكَلَ . وَسلّم الدين .

أترى بعد هذا من يختلق المعاذير السمجة لشرك العوام عاقلا ؟ فإنا ننزه العالم عن أن يقول « هذا كله عبارة موهمة لعدم احسان السالك لذلك العبارة اللائقة »

وبالجملة : فأمر العامة في هذا النحو غريب بالنسبة الى الاسلام . فإن كل من عرف الحقيقة ، ونظر ما صاروا اليه من ذلك : وجد المضادة لله وتوحيده فاشية في كثير من أفعالهم واقوالهم ، وتقلبهم وتصرفاتهم . والطمعُ في حصره طمعٌ في مُحال ، كضبط الريح والبحر ، وهو ظاهر شهير على رءوس الخلائق.

وانما جُهل قدره ومنافاته ، لما دعت اليه الرسل ، لما تعفت رسوم شرعهم عند الأكثرين ، ولأنسهم بكثير من اضدادها ، وبضدها تتبين الاشياء ، فإنه انما فاه بهذه الكلمة ، وهي قوله « قصارى أمرهم التوسل ، وغايته أن يقع منهم عبارة موهمة » لأنه خفى عليه مشارع الحقائق .

وما سقنا هذه الكلمات عن العامة الا على سبيل المثال ، ليعلم غلطه في كون

« غاية امرهم عبارة موهمة » وهذا شيء لا يختص به الواحد والإثنان، ولا البلدة والبلدتان ، ولا القطر والقطران ، بل عم امر المشاهد وعبادة الاموات البلاد من اقصاها الى اقصاها ، حتى آل الامر الى أن عاد غصن الشرك غضًّا طريًّا ، ويبلغنا من ذلك الكثير، الذي لاتحويه السطور ، سوى ما سمعناه وشاهدناه ، ونحن ببلد اقل شيء فيها هذا القبيل بحمد الله – بل لكاد يلتحق بالمعدوم بالنظر الى ماسواها، والافمن سكن بفرس، والخا، وصعدة ، وغيرها من قطرنا هذا خاصة ، كيف سواه ؟ رأى العجب ، ان كان قلبه حيا . والله الهادي الى سواء السبيل .

ومن ذلك : أن امرأة كف بصرها ، ومات ولدها ، فنادت وليها: أما الله فقد صنع ما ترى ، ولم يبق الا حسبك فيّ .

ومن ذلك – وهو من أشهر عجائبهم المعلومة ، في نواحي من البلدان – شراؤهم الأولاد – بزعمهم – من الولي بشيء معين، فيبقى ثمنه رسماً جاريا، يؤدى كل عام لصندوق الولي ، وإن كانت امرأة ، فمهرها له ، اونصف مهرها ، إذ هي مشتراة منه ، ولعله يفقد شيء من هذا في بعض النواحي ، فكم له من أخوات عند التصفح

ومن ذلك – وهومن طرائفهم الشهيرة أيضاً – ترك اشجار ومراع حول المشهد، لمكان قربها منه ، مع الحاجة الشديدة اليها . فتبقى على مر الأزمان سائبة .

ومن عجائبهم : ما حدث به جمع من اهل الدين : أنه وقع في زيارة بعض المشاهد اجتماع خلق كثير من الرجال والنساء والاطفال . فكان هناك من القبائح ما منه السجود للمعتقد .

شاهد ذلك الجمع ما ذكر عياناً .

فلعل هذا « عبارة موهمة » بمنزلة اللغو في اليمين » ؟!

ولو كان المتكلم بهذا في غير مكة – شرفها الله تعالى – لجوزنا : أنه لم يبلغه ، ولم ير شيئاً من هذه الضروب التى سردناها ، أو نظائرها .

ومن ذلك – وهو من غرائب الانحلال من الدين – أنّ جماعة من العامة

خرجوا من مسجد بجوار مشهد ، بعدان صلوا فريضة من المكتوبات . فدخلوا المشهد . فرفعوا وضموا ، وركعوا الى جدار القفص .

ومن ذلك — وهو أيضاً من طرائف مايحكى — ان رجلا سأل من فيه مسكة من عقل ، فقال : كيف رأيت الجمع لزيارة الشيخ ؟ .

فأجابه : لم ار اكثر منه ، إلا في جبال عرفات ، إلاّ أني لم أرهم سجدوا لله سجدة قط ، ولا صلوا مدة الثلاثة الأيام فريضة .

فقال السائل : قد تحملها عنهم الشيخ .

قلت : وباب « قـد تحمل عنهم الشيخ » مصراعاه مابين بصرى وعدن ، قد اتسع خرقه ، وتتابع فتقه ، ونال رشاش زقومه الزائر والمعتقد ، وساكن البلد والمشهد . وهو أمر شهير في العامة ، ولعل هذا عند هذا المخادع الخائن لنفسه وللناس «عبارة موهمة» كما قال .

فقل لي : أي ملة — صان الله ملة الإسلام — لايمانعها كل ذلك ، ولايدافعها ؟ .

قلت : ولقد أذكرني هذا ماسمعت بعض الأفاضل يحدث به : أن رجلين قصدا الطائف من مكة المشرفة ، واحدهما يزعم : أنه من أهل العلم .

فقال له رفيقه — ببديهة الفطرة — : أهل الطائف لايعرفون الله ، إنما يعرفون ابن عباس .

فأجابه : بأن معرفتهم لابن عباس كافية . لأنه يعرف الله .

ويضاهيها : ماحكاه لنا بعض من جاور بالبلد الحرام : أنّ رجلا كان ببعض المشاهد بمكة . فقال لمن عنده : أريد الذهاب الى الطواف . فقال له بعض كبرائها : مقامك هنا أكرم .

وماشئت بهذا الطغيان المجاوز ، وبالله لوذهبنا ننقب عما يحادون الله به من

م — ١٢ — معارج الالباب

هذه الجهالات ، ومايجترىء عليه السفهاء هنالك . لحصلنا على مايفوت الطاقة ضبطُه إلاّ تَكلفاً — ان كان — وفي الناس مَنْ يخـاف الله ، ويستحي من معارضة الكتاب والسنة بالسماجة والقحة ،وفي الناس من يتحاشى عن الإفراط ، واذا لم تستح فاصنع ماشئت .

وأمّا مايقع من العامة عند التطام موج البحر ،ونازلة باغتة ، وجزئيات لاتنحصر من تبادر بوادرهم الى دعاء الولى ، والاستغاثة به ، ونسيان الله ، أو تشريكه فقط : فأمْرٌ أوسع من فج الْبـرّ ، ولقد سمعناه وصح لنا ،بل ماهو الا التواتر الذي هو أجلى الضروريات ، لايكاد يقع مدافعـه قط من أحد من البشر .

ولقد سمعت من بعض الإخوان : أنه كان نازلا بمدينة زبيد في سابق الأيام ، وان بها قوماً يقرأون صحيح البخاري. فإذا فرغوا —امّا أحياناً اومطلقاً— ذهبوا الى مشهد الجبرتي . فيما يغلب على ظنيّ الآن ، ويحتمل غيره. فيظلون عاكفين هنالك ماشاء الله ، وعليهم السكينة والوقار ، وضروب من الخضوع والتأدب لنازل الحفرة . فالله أعلم .

هل هذا عمل بشيء وجدوه في كتاب البخارى او غيره ، أم ماهو؟.
ومن عجيب أمر العامة نداؤهم المقبور :أن ذُبّ عن قبتك ، وافعل مايشيع به ذكرك في الآفاق ، كما حكى الله عن قوم ابراهيم(٢١:٦٨ قالوا :حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) وكما قال عن قريش (٣٨ : ٦ وانطلق الملأ منهم : ان امشوا واصبروا على آلهتكم . إن هذا لشيء يراد) .

وصار كثير منهم وسيلته ، عند حبس القطر : الذهاب الى المشهد ،والعقر فيه وسؤاله ، وربما يقول السادن حرصاً على الحطام : حبس القطر بسبب الإساءة الى الولي ، أو منعكم نذره مثلا . فإن فعلوا —ولم يحصل المطلوب —تحدثوا بأنه غائب في مكة مثلا .

وكل ماذكرنا طامات بالغة ، وضلالات فارغة ، وجهالات باردة ،لايخفى وقوعها وكثرتها جداً ونكرها الأشنع ، ولولا مقالة ذلك القائل « ان غاية مايأتونه عبارة موهمة » ماتشاغلنا بحكايتها،وهي لاتليق إلا بسمر المتعطلين، ولكن الله سبحانه إنما بعث الرسل ، وأنزل الكتب ، وصرف المعالم الدينية : لقلع عروق هذه الجهالات تأصيلا وتفصيلا .

ولقد تجاسر بعض العامة – زَعْماً منه انه صادق الاعتقاد في الولي ،أو ذو دراية بما ينبغي له – فقال : والله ، أما الولي فإنه يحيي الموتى ، أمـا الولي فلان فإنه حي لايموت ، قد والله أقامني هذا الجاثم وسط القبة ،الذي زعمتم أنه لايضر ولاينفع والله إنه يفعل ويفعل .

ولست أقول لك : ان قائل هذه الحوالق واحد . ومقتضى ماذكره ذلك المجيب : ان هذا خطأ في العبارة التي العلم بها علم زائد على العلم بأصل المعنى.

ومن عجيب أمر العامة : تصريحهم في كثير مما يحدثه الله من أمره وشأنه في عباده وبلاده وملكه ، وتقليبه للدهر كيف يشاء . فيقول أحدهم :فعل الولي . هذا أمرشهير بينهم،لايستطاع جحده إلاظلماً وعلواً ، ومحض المكابرة الخالية عن شبهة لاتعذر ، أو جهلا بالواقع .

ومن قولهم في أوليائهم : رد الجراد ، وعلق الهرة في رأس الشجرة ،يشفى المجانين ، يقطع الحمى ، يزيل الامراض المؤلمة ، حتى إنهم يقولون إذا قصـد البلد الذي معتقدهم فيها فئـام من الناس للافساد فيها ، ثم رجعوا عنها ، أو توقفوا عن دخولها : ردهم الشيخ ، وان فعلوا بغيتهم قالوا مثلا : كان غائباً، او ساخطاً عليهم ، او اية علة اعتلوا بها مما يوحي بها شياطين الإنس والجن.

وأما الله عز وجل الذي يقول: (٣٠:٤٢ وما أصابكـم من مصيبة . فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير) ويقول (٣٢ : ٢١ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ،لعلهم يرجعون)ويقول (١٢٦:٩ أولا يَرَوْنَ :

أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ؟ ثم لايتوبون ، ولاهم يذكرون) .

الله الذي يقلب الدهر ، ويدبر الامر ، وبيده الملك والملكوت . فما كأنه موجود . فضلا عن أن يكون سَيَّرَ فيهم هذه القوارع .

وربما يقول القائل منهم بالجهة الصادقة ، من دون روية فيصادف ما أمر به ، ويوافق المنبع الإسلامي ·

ومن طريف أخبارهم : أنَّ منهم من يمرض ، فيلازم المشهد ، يستجير به من ذلك المرض ، ويتوصل الى زوال مابه من الداء الذي أضناه ،وخصوصاً اذا كان من نوع المانيخوليا ، أو أمراض العقل ، قائلا بلسان الحال والمقال أيضاً (واذا مرضت . فهو يشفين) أدام الله لدينا عوارف فضله .

ومنهم من يمكث في المشهد أياما محبوساً بلا صلاة قط ، زاعماً أنه في حبس الولي وقيده ، لايطلقه إلا لحاجته ، ومافي عقله الذي تقوم بــه الحجة عليه اختلال وإنما فسدت فطرة الأغلف بطارىء العوائد ، حتى كأنه لايعقل من طريف أقوالهم في أوليائهم : أنه يضرب من تُظُلِّمَ منه ،أو شُكِي به اليه — بصيغــة المبني للمفعول فيها — ويعزل الوالي اذا لم يزره ، ويهب الولد اذا جومعت المرأة عندَ مشهده ،ويسلب السلاح ،ويقيد ويفك الأسرى والمحبسين ، ويهدي الضالين ويجير القوم ، ويترك بنادقهم قصبا ، وعاقلهم خنثى ،لاأنثى ولا ذكر ، ويعاقب من أخذ من ضريحه ورقة للتبرك بها في الحــال ، حتى صار في بعض الجهات : ان المرأة لاتدخل عند زوجها ، حتى تزور الولي . وأن رجلا زعم ان وليا نبه عليه في النوم :ان يبني عليه قبة ، قال : فبنيت خوفاً منه .

قلت : وباب تنبيه الأموات — اي بإضافة تنبيه الى فاعله — كباب «تحمل الشيخ الصلاة وغيرها » في السعة والشيوع . والله يغلقها كلها بنصر دينه .

ومن عجيب أمرهم : ان امرأة جاءت قبرا . فجعلت تقول :ياسيدى بعت

مالي ، ورحلت اليك من مسافة كذا ، سألتك بالله ان تشفي ولدي ، فإني جارة الله وجارتك .

أهذه يامعشر المسلمين مجرد «عبارة موهمة »؟.

القوم قد سحبت عليهم العادات والخيالات ، وتعفى في قلوبهم رسوم الفطر والأديان ، وجَرّ الشيطان أذياله عليها. ماهم بالمحل الذي يزعمه لهم الخابطون.

ومن أذيال مصيبة المشاهد – التي أصيب بها الإسلام وشعائره – ماظهر وانتشر في العامة في جهات كثيرة . كما هو معلوم مشاهد : ان المساجد ربما تكون متروكة مهجورة . وفيها من التراب والعيدان والأوساخ ، وزبل الأنعام ، وحراق التمباك وغير ذلك مايجعلها مزابل . ومشاهد الأموات : محترمة مكرمة ، مجمرة بالظفر والعطور ، مفروشة بالسجاد الفاخر ، وعلى القبور ستور الحرير الثمينة ، وبها الشمعدانات الفضية ماجعلها مرعية مقامة متحاماة .

أيقول أحد ممن تحقق بهذا الدين : إن كل ماحكيناه « عبارة موهمة بمنزلة اللغو في اليمين ؟ » فبعداً للقوم الظالمين ، وسحقاً لمن بدل حكم رب العالمين .

ماذا ترى أيها المؤمن بالله ، والمتحقق بتوحيده في كل ماسلف تحريره ؟

ومن عجائبهم : أنه أخرب بناء على معتقد من الأموات ،فصاحت امرأة: من يشفي لنا مرضانا ، من يحمي لنا حمانا ؟ آها عليك ياشريف . ولماغيرت بعض المعتقدات صاحت العامة ههنا سادة غيروا أربابكم – بهذا اللفظ ، أو نحوه – ثم اقبلوا يزفون ، يقولون : أهكذا فعلتم بأربابنا ؟ فنحن الآن نتقرب اليهم بقتلكم ، وإنهم أربابنا ولا نعرف لنا غيرهم ، ولا مقعد لنا في هذا المكان إلا بهم .

فهذه قطرة سردناها ليعلم الأغبياء ماصار عليه الحال مما لايحصى كثرة ، وجميع سكان البسيطة – إلا من أنقذ الله – قد مسهم هـذا المرض المضني ، وعمهم هذا الداء العضال ، وإن تفاوتوا في الإيغال والإغراق في هذه الضلالة،

فكلٌ – إلا من شاء الله – قد أخذ بحظه ، وشارك في اصل المعنى ، من تعليق أمرهم بسكان القبور في جملة أمرهم ، واما تفاصيلها : فغير مقدورة ، فلقد أحيوا هذه المشاهد بالتردد والدعاء ، والنداء والعكوف ، والمثول والتأدب ، والتوقير والخضوع ، مما لايحصل بعضه في بيوت الله والصلاة المكتوبة ، إلا مالانسبة بينه وبين مافي عرصات المشاهد، بحيث ينتابها ويهبط اليها ويحبها ويسمح بالبذل الكثير لها ، ويضيع لأجلها ولده وأهله .

وكثير من الناس من لايقوم في حق الله تعالى برائحة من ذلك .ولايعرف الصلاة ولا المساجد ، وهو اللائق بمن سلك تلك السبيل ، ثم يتكلمون بما يناسب حالاتهم هذه ، من مثل : أكرمنا الشيخ ،او بين لنا إشارة،اوحصل لنا مانطلب ، ونجانا مما نهرب ، وشفى مريضنا ، وأنزل الغيث لنا ، إذ قصدناه وسألناه .

هذا مذهب عامة المقابريين ، ومبلغ إدراكهم لهذه النحلة، ومنتهى فهمهم وحذقهم بها ، وغاية مقامهم فيها . فأين هو من التوسل الذي سنعرفك ان شاء الله ان التشبث به – على فرض حصوله ، او اطراده – فرق من وراء الجميع ، وان اضماره على فرضه ايضاً – لايمانع مقاربة المحظور في هذا الباب، من منافاة نفس المقترف لشعار التوحيد ؟.

والكلام في النية : كالكلام في اجنبي عن القدر المعتبر .

وهؤلاء اشبه شيء بالمقلدة في الديانات ، يرون صورا وآثارا يعملون عليها لايدرون منشأها ، ولا ماتولدت منه وانبعثت عنه .

وحاصله : ان في اذهانهم فرعا ومعلولا .مقصورون على ذلك من دون حذق بتحقيقه واصله وعلته . اي لانهم عامة مقلدون في هذه الطريقة غير حاذقين فيها ولا مرتبين فنونها ، وكيفياتها وتسويلها ، المعمول على الكيد والإذلال .

واما الحاذقون بها ،الصادقون في المعرفة فيها : فهم طور آخر يليق بمرتبتهم ومقامهم في هذا الباب .

فهل أتتك انباؤهم ؟ انهم يقولون : هؤلاء المقربون هم المخصوصون من الله

بالإمداد والمُلْقَي اليهم مقاليد التصرف والتصريف في عالم الإيجاد ، ومن حُبي بهذه الحبوة بذلنا له محض التأليه والصبوة ، وماسألناه ودعوناه الا امرأ مُكّنَ منه ،وصُرّف فيه، ووُلّي نظره وتدبيره بولاية عامة تمكينية.

فالسؤال والاستغاثة ، وماهومن واديها هومن ذي اهلية تامة قائمة صالحة لتأهيلنا اياها جميع ماانكر منا من معاملتها .

والواقف بنا على مجرد التوسل فقط – كما قيل ايضاً على عامتنا – هو في القضية عاميّ ، او واهم ، وللحقيقة التي نحن بها غير محقق ولافاهم . انتهى.

فهذه الدسيسة هي – فيما علمنا – روح البحث –وسر المسألة عند حذاقهم السابقين في الصناعة . وقد شافهني بذلك احد خواصهم الموسومين بالفقه والفطنة في هذا الباب زعماً منه انه قد امتطى صهوة التحقيق ،وارتقى ذروة التدقيق . اترى هذا من محاسن الكلام ؟الا تقول :برأ الله عنه ملة الإسلام، وقدسها عن وضر هذا العار والملام ؟ .

واذا فقهت هذا : انتقلت منه – ان شاء الله تعالى بلا تاخرولا استرابة– الى فهم مايؤثر عن قوم ممن يدعي المحبة والقرب والولاية، ودعاويهم الطويلة العريضة المشروحة في مؤلفاتهم ومنظومهم ومنثورهم .

وممن شرح عنهم بعضا مما أشرنا اليه مانقله تقي الدين الفاسي في تاريخ مكة ، والمحقق الاهدل في شرح دعاء أبى حربة ، وقبله القاضي إسماعيل بن ابي بكر المقرى الشاوري الشرحي الزبيدي الشافعي ، وقصيدته الرائية مشهورة في هذا المعنى . وغير ماذكرنا أيضا كثير يفوت حصرهم ، لما أنهم اهل الجادة ، وربك يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

فليس للمؤمن غرض في عيب او سباب ، وإنما الذب عن دين رب الأرباب أوجب لنا ولمن قبلنا من علماء الملة الإسلامية التكلم في هذا الباب ، نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ،ولأئمة المسلمين وعامتهم مع محبتنا الصلاح لنا وللمسلمين،

والمغفرة الشاملة ، حتى نكون من أصحاب اليمين . ولا نحب بحمد الله إلا مايحبه الله من العباد . ومالنا في شقاء احد من الناس بالوقوع في مكروه بغية ، أو مراد .

نعم . بعد ان قرروا تلك الدسيسة التي عرفناكها : عملوا بمقتضاها من سؤال أهل التصرف والنزول بساحاتهم ، والتوجه اليهم ، وقصدهم لمرهوب أو مطلوب ، وأضافوا الى ذلك إجلالا وتأدبا وخضوعا ونحوهن ، كشأن الخلق مع خالقهم وبارئهم ، بل نَيَّفوا بهم على ربهم .

فكيف ترى ماهو خاص حق الله ، وماصفته التي يمتاز بها عما كان من هذه الأودية جعلوه لسكان التراب ؟.

ولقد سمعنا في هذا المقام حكاية شنيعة ، وهي : ان بعض كبراء الصوفية ركب البحر ، ومعه مريده ، فهاجت ريح خيف منها .فجعل الأستاذيقول: ياالله . فطفق المريد يقول كذلك . فكاد يغرق . فأشار اليه الأستاذ ان يهتف باسمه ففعل . فنجا . وهي مشهورة عند كثير من الناس ، ولاأعرف الآن موضعها فأنقلها بصفتها وان لم تصح فغير ضار[1].

وهذه آيات من كتاب الله نتلوها عليك للوعظ والتحذير ، والإنذار ، والتبصير وليعتبر المعتبر ، ويتصفح المتدبر . فالمقام عظيم ، والخطب جسيم. وقد وقع فيه ماأنسى حديث تلك الأمم الهالكة ، وماهو دونه . ولاعبرة بمن عمم الخطب ، وقال هي«عبارة موهمة لعدم إحسان العامة العبارةاللائقة» والمعنى محفوظ الى آخر ماذكره من ذلك النمط الساقط .

وكتاب الله هو الكفيل بالبيان. إذ منه يستمد الفرقانبين الموحد والملحد

(١) نقلها الشعراني في الطبقات عن الحنفي الذي ضمه بمصر وانه كان يذهب كل يوم بعد العصر ، فيجتاز النيل من الشاطىء الشرقي الى الغربي مشياً على الماء هو وتلاميذه . ويقول لهم:قولوا : ياحنفي .فقال واحدمنهم: ياالله : فغرق . فأخرجه الحنفي وأنبه على ان دعا الله .

والمشرك والمفرد ، ومنه مناهج الرسل واتباعهم . وبيان ما عليه مقابلهم ،وبما فيه هدوا واهتدوا واعتدوا لتفليق هام الغاوين ، وتمزيق اوهام المناوئين ، جعله الله وسائر كتبه الكريمة القوة المانعة ، والعدة القاطعة بيد انبيائه ورسله ، الذين بعثهم واختصهم واصطفاهم لهذا الشأن .

فأخلق بشيء يكون بهذا الصدد من حكيم عليم ، قوي احد صمد : أن يكون قائماً بأعباء الأماني من الشفاء والهداية والبيان ، والنور والرحمة ، والتفصيل والتصريف والتبيين ، سيما في هذه الجهة الخاصة التي هي اقعد الجهات به ، وهي تمييز ما دعا اليه من الايمان والتوحيد ، ونهى عنه من الشرك والكفر والتنديد وهو الضلال البعيد . فإنه اس امر البعثة والانزال . فقال الله تعالى : (٤٥ : ٢٨ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ؟) والقربان : ما يتقرب به الى المعبود ، كما هو معروف . وفسره به في الكشاف والقاموس وغيرهما.

وانما قيل : للآلهة « قرباناً » لما انها غير مقصودة لذواتها . ألا تراه يقول في غير هذا الموضع : (شفعاء) ويحكى (ليقربونا الى الله زلفى) .

وقال الله تعالى (٧ : ١٩٤، ١٩٥ ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين . ألهم ارجل يمشون بها؟ ام لهم ايد يبطشون بها؟ ام لهم اعين يبصرون بها؟ ام لهم آذان يسمعون بها ؟ قل: ادعوا شركاءكم ، ثم كيدون فلا تنظرون) .

فتأمل هل ترى معنى لذى التوسل باهل المقابر اذ يدعوهم ، ويأمل حصول مطلوبه ، ونيل ما عند الله الذي هو غاية من غايات التقريب ، او الثمرة المجتناة من غير ما تضمنته الآيتان الكريمتان . فوازن بين الحالين ودقق الفرق بين القبيلين .

وسنذكر إن شاء الله تعالى مالعله لا يبقي ريبة قط : ان نية عدم استقلال الأوثان بالنفع وانفرادها بتحصيل المطلوب ، و كذا عدم تشريكها مع الله في ذلك

عند دعائها ، على تنزيل المقابريين هذه المنزلة الذي قد سمعت ما يأباه : فرق من وراء الجمع الذي هو التهيؤ لها بهيئة العبودية وتهيؤها بهيئة المعبود ، التي منها أن يدعى ، وأنّ عقدَ القلب على ذلك غير نافع بعد ما ذكر .

وحاصله : أن العبرة بالكيفية لا بالنية . فالنظر فيها واعتبارها : غير محل النزاع هذا ، حيث يقال – وسياتي ما فيه –: أن دعاة الاوثان يفارقون دعاة المقابر بكون التأليه ، قصد الى الله في الجملة ، ان سلم هذا ، او ان لا قصد له باعتبار النية التي هي وراء التوجه بالدعاء في ربط حصول المطلوب الا الله ، ان سلم ايضاً ، بخلاف الاول . فلا نعلمه كذلك ، ولا يعلم بشر يدعى على مشركي العرب ، ومن ضاهاهم من الوثنيين غيرهم : انهم في دعائهم او ثانهم زاعمون أن لهـا التصرف والتصريف بغير نحو الشفـاعة والتقريب ، حتى يسألونها المطر وشفاء المريض مثلا الا بالحالة الدعائية . كما ستعرف ، دون القصد الثاني المسمى : بما وراء التوسل .

فافهم ذلك وتقيد به في هذه المباحث راشدا نحو ما يزعمه ائمة اهل المقابر فيها بل اعطوها حق الله من الدعاء الذي هو العبادة ، او مخها ، وما يستتبعه من الوسائل الى الغاية التي هى حصول المطلوب ، وافعال الوثنيين وعباداتهم ، وان انتشرت واختلفت وتصنفت وتنوعت ، فكلها في الغاية متحدة النوع ، وهي حصول المطلوب . وهذه جهة اتحادها ، وليحصل التقريب ، كما ينفع المقربون عند الملوك من لاذبهم وتوسل بجنابهم بالشفاعة ، والتقريب الذي يستثمر منه الإنعام وذلك لما لهم عندهم من الجاه والمنزلة والرعاية والاستخلاص .

وسيأتي ان شاء الله تعالى ذكر فساد هذا القياس . وانه بمحل من الضعة والسفاهة والإيغال في التلف والهلاك .

ومن عبد المسيح والملائكة واتخذ الاوثان والاولياء والشفعاءَ المترجم عنهم بالشركاء والآلهة : وقع منهم القصد لذلك المعنى الناشىء عن القياس ، كما قال تعالى :(٣:٣٩ والذين اتخذوا من دونه اولياء ، مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله

زلفي) فحينئذ يحصل من المتقرب اليه المنة والإنعام، والإدخال في حماه، ورعايته وحفظه، وما أشبه ذلك. لانهم اعتبروا: أن المطلوب غاية صار رهيناً في أيدي الوسائط والشفعاء، وانهم مسلطون على الرفع والوضع، والنفع والدفع، والعطاء والمنع، كما زعمه خواص اصحاب المشاهد في سكانها، كما حكيناه لك. فاعرف كم بينهما من بَوْنٍ، وأَيقِنْ أنَّ مشركي العرب واشباههم، ما جاوزوا بعيداً عن عتبة الباب، وهؤلاء الذين وَلَجُوا باحة بحره العباب.

اللهم إلا ببرهان صحيح، يرشد الى انهم سألوا من اوثانهم: ما يبتغون في دعائهم إياهم، كما لعله المتبادر من التشريك – اي: ولا كذلك اهل المقابر لكن التعبير عنه باتخاذ الشفعاء مع قولهم « ليقربونا » ومع كون مصب موعظة الرسل اقوامهم: هو الأعمال للأوثان – فيه اكمل بيان.

ومن هنا يستنبط عرق البحث، ولب المسألة، وان التوحيد الذي اتت به الرسل، وأُنزِلَتْ به الكتب، وقامت عليه الأديان: هو ان يُعْبَدَ الله وحده ولا يُشْرَكَ به شيء.

والاحكام التي أضيفت الى هذا الاصل، إمّا لأن عبادته تعالى كل لها، وانها معنى جامع. ومنها: صلاة، وحج، وإنفاقٌ على مطلقة حامل، وتطليقٌ للعدة وتجنب الزنا، والخمر. وإمّا لانها – اي تلك الاحكام – توابع ومتممات، وسيأتيك ان شاء الله تعالى ما يرشدك الى الحقيقة في هذا.

وتأمل. هل سَجَّلَ الله تعالى على الوثنية بالسجود لغيره بنحو (٤١: ٣٧ لا تسجدوا للشمس، ولا للقمر، واسجدوا لله) كما سَجَّلَ بدعائهم غيره؟ وهل دار ذلك المعنى في كتابه العزيز كما دار هنا؟ إي والله، لا احسب هذا.

وكأنه – والله أعلم – لما كان الدعاء هو العبادة اومخها، والسجود إنما هو كأنه عبارة عن بعض معاني الدعاء، وهو المعنى الأشمل الاكمل في هذا الباب، كان قِبلة القصد، وعمدة المنتحى، وقاعدة المرمى.

ومع التأمل أيضاً : كأن الدعـاء بعض معاني السجود ، وكأنهـما ايضاً لتلاقي حاصلها فرسا رِهان .

ومعنى عبادتك الله تعالى وحده : هي وقفك النفس على مطلوب حكمه فيها ، تركا وعملا واعتقاداً ، اواستعمال نفسك له وحده تركا وعملاواعتقاداً على مقتضى حكمه ، وإن قيدته بالطلبي فتحرير ان شاء الله تعالى .

ولهذا أنزل الكتاب بالثلاثة (٦٥ : ١٢ لتعلموا ان الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) (٢ : ٢٦ واعلم أنّ الله عزيز حكيم) (٤٧ : ١٩ فاعلم أنه لا إله إلا الله) .

والعمل ظاهر ، ومنه (٢ : ٤٣ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)(٣ : ٢٠٠ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا)(٢٢:٧٧ وافعلوا الخير)(٢ : ٢٥٤ أنفقوا مما رزقناكم) وما لا يأتي عليه العد الآن .

والترك غير خفي ، ومنه (٦ : ١٥١ ولا تقربوا الفواحش) (١٧ : ٣٢ ولا تقربوا الزنا) (٤ : ٢٢ ولا تنكحوا ما نـكح آباؤكم من النسـاء) (٥ : ٩٠ إنما الخمروالميسروالانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) (٢٢ : ٣٠ فاجتنبوا الرجس من الاوثان) وغيرها .

ومن هنا تدري تسمية الرياء شركا ، وقوله (٤٥ : ٢٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟) (٣٦ : ٦٠ ألم أعهد اليكم يا بني آدم : أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

فترك مأمورٍ ، وارتكاب منهي : تضييع من العبادة ، وحل من عقد الامر بها (٢ : ٣١ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم ، والذين من قبلكم لعلكم تتقون) . تأمل خاتمة الآية .

وكثيراً مـا يذكر العبـادة في جملـة عدد ، كأنهـا حينئذ لا لمعنـى الكل الشمولي ، المراد من مثل الآية السابقة آنفاً ، وآية (٥١:٥٦ وماخلقت الجن

والإنس ، إلا ليعبدون) وذلك مثل (٢٢ : ٧٧ ياايها الذين آمنوا اركعوا، واسجدوا ، واعبدوا ربكم وافعلوا الخير ، لعلكم تفلحون) ومثل (١١٢:٩ التائبون العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله) ومثل (٥:٦٦ مُسْلِمَاتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابدات سائحات) .

ولا كلام : ان العبادة إما تستجمع او تتفرق بمعنى الطاعة والامتثال ، وحفظ العهود ، والوقوف عند الحدود ،ومراعاة الأمر والنهي، وإيثار الحكم والرضا به ، والتسليم والانقياد له ، والانقطاع عمن سوى المعبود في سؤالٍ وأملٍ ، وخوف ورجاء ، واستنادٍ واعتماد ، وعلى نحو خاص فيهن (٢٣:٥ وعلى الله فتوكلوا ، ان كنتم مؤمنين)(١٧٥:٣ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) . وما أدى هذه المعاني المسماة .

وغير خافٍ عليك : ان الطاعة تستجمع هذه المعاني .

وهذا وجه اقتصاد ، وصاحب القاموس ، ومن وافقه على تفسير العبادة، والعبودية ، والعبودة : بالطاعة .

وأما الكشاف : ففسرها في تفسير سورة الفاتحة : بأقصى غاية الخضوع والتذلل ، ومثله ذكر ابن القيم صاحب « الجواب الكافي . لمن سأل عن الدواء الشافي » .

وأما في تفسير سورة البقره ، في قوله تعالى (٢١:٢ ياأيها الناس ، اعبدوا ربكم) الآية . فذكر مايفهم : ان معنى العبادة لاينحصر في أقصى غاية ،بل يشمل مادونها ، وربما يفهم أيضاً قريباً من تَناسِي الاول وجانبه ، وكأنه حافظ سابقاً : على اللصوق باللغة ، ولاحقا : على اللصوق بالشرع .

وإنما ذكرنا كلام هؤلاء ، لكونهم يخدمون مؤدى اللفظ وَضْعا واستعمالا، وقبول نقل الثقة طريق نظرية ،وليس ذلك مذهباً له،حتى يجب ترك تقريره

إلا ببرهان صحيح ، وكأن الله سمى السجود مثلا للوثن شركا ، والحال : أنه ليس له تعالى منه شيء ، لما كان في الجملة — من دون ملاحظة الشخصيات — لايمكن للخلق الانفصال من العبادة البتة ، حتى يتفق في فرد من الناس أنه لايصدر عنه شخص منها قط . فهذا مستبعد جداً ، اي فقدان كل شخص من معنى العبادة في احد من البشر «أسلمت على ماسلف لك من خير » .

ويحتمل : ان الموسومين بالشرك في كتاب الله : كان شأنهم عدم التعري من العبادة ، أصلا (٢٩:٦٥ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر إذاهم يشركون) وربما يفسره مطلق العبادة على سبيل توسع المحل ، ولو تقريباً ، بإعطائك نفسك ، او منها ذاتاً ، او تعلق غيرك ، أي : فلا تجعله إلا لله ، وهو التوحيد .

وبعبارة أخرى : عملك ظاهراً ، او باطنا ، كالرضا بالمقدور لغيرك ، أي : فلا تجعله إلا لله ، وهو التوحيد .

وبعبارة أخرى : جعلك لغيرك شيئاً من الامر فيك دأباً او تعلقاً ، اي : فلا تجعله إلا لله ، وهو التوحيد .

وبعبارة اخرى : جعلك لغير الله شيئاً من امره الخاص ، أي : فلا تجعله إلا لله ، وهو التوحيد .

وسيأتي ذكر الاستعمال المنادى : بأن العبادة : هي العمل ، واليه يومىء قوله صلى الله عليه وسلم « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له فمنكم من يعمل بعمل أهل الجنة — الحديث » وقوله في الحديث القدسي « إنما هي اعمالكم احصيها لكم » (ونعم اجر العاملين) بعد قوله تعالى(٣:١٣٣، ١٣٤ وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض ، اعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين) .

وكل ماذكرنا صريح في ذلك المعنى ، لامشيرا اليه فقط .

وبعبارة أخرى :مايتدين به المخلوق،اى :فلا يكون إلالله، وهوالتوحيد.
والمراد بقولنا : يتدين به ، أي : يجعله أمراً لاصقاً بذمتـــه ، ووجوده وسعيه . صحة ولزوماً .

وكل هذه العبارات : إنما هي لتلخيص معنًى يكون أقرب الى الانضباط والتحصل ، والتعين في الذهن ، مع اعتبارنا في جميعها قيداً ، يخرج الترويح عن النفوس — مثلا — بجزء من الراحة ، ان احتيج الى هذا الاعتبار ، وإلا فربما مع التأمل الصادق تفترق الجهتان بلا تَجَشُّم احترازفي العبارة،فتلمحه.

وتلاحظ مع ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ؛ ولزَوْرِك عليك حقا ،ولربك عليك حقا . فأعطكل ذي حق حقه » . وكل مايلحق بذلك في الحكم والاعتبار ، من هذه الجهة والعادات ، التي لايمانعها التوحيد : تعرف بمعرفته .

وبالجملة : فقد سَبَرنا قصص الرسل ، وقضايا الأنبياء . فوجدناهم أطلقوا طلب العبادة لله وحده ، وأرسلوهـــا من غير تفسير وشرح ، وما ذلك إلا لوضوح المقصود ، وسرعة حصوله في الخاطر عند الطلب ، وتبادر انفعاله للفهم ، وعدم تعصيه على البديهة .

ونحن في خوضنا السابق بمنزلة من يفسر لمن صـــار الجلى عنده خفيا ، او المأنوس وحشيا ، او الملابس غريباً ، او بمنزلة من يجمع متفرقا ، ويلخص منتشرا ، او يبالغ في الإيضاح ، لمن لم يكن بتلك المثابة ، التي خوطب بها أقوام الأنبياء ، وإلا فخلو بحثنا عن غرض صحيح شرعي مطلوب :ابتداع ، برئنا الى الله من ذلك ان كان ، ولابأس بتعريف الشيء بلوازمه وآثاره .اذ المراد : الانكشاف والظهور للمعرَّف— اسم مفعول—وان خفي بعض أبحاثنا في كتابنا هذا على أقوام . فنحن لم نلتزم ان كل مافيه ظاهر للخاص والعام.
وهذا كتاب الله ، الذي شأنه أجْلَى من شمس النهار : قـد عرف مافي

أساليبه ، وسُبُلهِ وتراكيبه البديعة الشريفة ، أهل البصائر والاستبصار .

ومن العبارات المنخرطة في سلك نظائرها المارة في معنى العبــادة : عبارة مبسوطة غير مرتبة ترتيب التعاريف ، ومنها يؤخذ للعبادة معناها ، فنقول :

لما كان المخلوق مِلْكا لخالقه ، ومن شـأن المملوك المنعَم عليــه بالإيجـاد ومقتضياته الفقير إلى منشئه : أن يترك نفسه وتصرفها وتقلبها تحت إشارة ربها وبارئها،إذ هذا هو المقصود بالإيجاد (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ويذرها ذليلة مسخرة ، واقفة على حكمه ، وأمره وتدبيره ، مسلمة إليــه بلا منازعة ولا جــدال ؛ وان لم يكن هذا مقصود الإيجاد : فهــو الأمر الصالح اللائق ، المناسب الملائم ، وغيره فاسد ، منافر مضاد .

وأمره تعالى بإخلاص العبادة له ، وتوحيده بها ، وامحاض وجهه بالقصد : اشارة الى هذا المعنى المقصود واللائق .

ولهذا توسل بذكر الخلق والرزق ، والإماتة والاحياء ، وغيرها : للتنبيه على العلة القاضية .

ولما كان هذا التعبير السابق تصوره وأنواعه ، انما هو بمنزلة اللف والضابط ، اذ من المعلوم : أنه ليس الأمر مطلقاً في هذا الباب عن تغيير رسوم ووظائف ، وطرائق مخصوصة منحصرة ، جاء تفصيل الأحكام ، وتنويع التشريع بمثابة المفصل لمجمله والمسمى لأعيان جماعته . دَلّ عليهم بكلمة جامعة ، والكاشف للمقصود من ذلك ، لانه ربما ينقاد السمع عند شعوره بمبدأ المطلوب ، لاان يُعَدّ منه ماليس منه ، او يخرج منه ماهو منه ، للجهل بالكيفية والمقدار . فأتت له التراجم المفصلة بالبيان الشافي .

ويحتمل ان يشار بقوله « اعبدوا الله » الى هيئة وعادة وصفــة استقرت للمخاطب . فقيل له مثلا : اصرف هذه الآثار الى هذه الجهة ، لكنا نقرر لك الآثار على وجوه أخرى بالصلاح فاسمعها .

ويحتمل أن تكون الإشارة بذلك الى هذه التفاصيل، كما يشار الى ما في الذهن وبحمد الله لا تضاد بين شيء مما ذكرنا . إذ جميعها تحوم على محط واحد ،

واذا تقرر لك أن « الدعاء » هو المعهود عند الرسل واتباعهم من المسلمين، وهو على نحو خاص معناه بوضعه وطبعه وهيئته اللازمة التي هي بمنزلة الخلقة، لاباعتبار سواها ، حتى يقال : دعاءُ غير الله – للذى انت باحث فيه الآن – خارج عن التعريف . فالدعاء باعتبار ذاته لا أنه يلزم متعلقاً كذلك لايصدق معنا ، الا اذا ارتبط به طلب حصول المطلوب المتمكن منه ، والقدرة عليه بالذات من المدعو وتوجيه المسألة ، نحو قدير متمكن ، ولا يتوقف حصول المطلوب الا على تعلق ارادة المدعو إياه وإقبالها عليه ، وان من معناه عجز المخلوق عن تحصيل متعلقه ، واختصاص ذي القدرة الشاملة به . وصلاحية المحل الذي تستقبله به للقيام بسؤالك ، والعلم بما فيه الخير لك ، من سرعة الإجابة الى ذلك او تأخيره ، او صرف ما هو اعظم منه او مثله ، اوادخار اشرف منه ، الى غير ذلك .

وهذا التفسير لمعنى الدعـــاء – كما أشرنا – باعتبار وضعه والهيئة التي تكوَّنَ بها، وتتجلَّى أصالة صورته طبيعية ، بمنزلة الخلقة للانسان .

فحينئذ : علمت إن شاء الله تعـــالى بالبرهان الصحيح ، واليقين الذي لا يخالطه ادنى ريبة ، ولا ينتابه او يتصور عليه وهم ، اويتطفل عليه شك: أن دعاء المخلوق ، وقصده بذلك : من متفاحش الظلم ، ومتبالغ الشـرك ، ومنازعة في خاص حق الله ، وخضوع وتذلل بخالص عبادته لسواه . اذروح كونك عبدا له تعالى : هو هذا المقام .وهذا التكيف والتصور بهذه الحالة .

ومن هنا تلخص لك وجه التسجيل على المشركين ، اذ يدعون الأوثان . وسببه ومنشؤه التكثير بأنواع التسفيه والتضليل والتتبيب . وظهر لك وتبين محل دعاء غيره تعالى من السخف والبطالة ،وضلال منتحيه وغلوه في الاضرار بنفسه ، وتحميلها ظلما كثيرا بوضع الشيء في غير محله ، وصرفه في غير اهله ، والتباعد من

الرب الذي لا يسوغ ولا يصلح لك إلا التقرب منه والتذلل له ، وله الخلق والامر والملك والملكوت والقهر والعزة ، وصفات الكمال ونعوت الجلال .
واما غيره : فلا يملك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا غيرها .

وغير بعيد ايضاً : أن يكون منشأ ذلك التسجيل ، والتسفيه : هو الخطأ في المتعلّق ، وإبدال الصالح منه بسواه ، بمنزلة مهنّدٍ مصنوع للضرب به في سبيل الله . فاتخذ لسفك الدماء بغياً ، ولقطع الطريق . فهوالمهند بذاته :إنما كان سواء ورشداً لمكان المتعلّق وانعطافه عليه وانما كان عدوانا وظلما لمكان المتعلّق .

وبهذا كله تعرف انفصال ما سنذكره من هذه الامور الآتية عن جهة الدعاء ، ومباينتها لها ، وإن كان الامر ظاهراً . فلايضر تعدد جهات المعرفة.

وتلك الامور : كسؤالك زيداً درهما ، اونصره لك على العدو بسيفه ورمحه ، او دعاء الله تعالى لسقيا وغيرها . أتظن الامر كما زعم الواهمون ، واستنبطوه من خروج عمر بالعباس رضي الله عنهما عام الرّمادة ؟ كلاّ – وضل سعيهم – والا لو كان الامر كذلك لكان للمسلمين في العدول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مندوحة . وأيُّ معنى للعدول الى الدون مع وجود الافضل منه والانفع والاجدى ؟ لو كان المعنى ما توهمه اولئك الذين جعلوا لأهل الاجداث من امر الله وتدبير ملكه ما جعلوا ، ويعدلون الى مقابرهم عن التماس دعاء الاحياء وتوجههم الى الله بالمسألة . كما صنع عمر رضي الله عنه – وحماه الله – أن يلاط به رجز الشيطان وهو يسلك غير فجّه .

فتنبه كيلا يلتبس عليك الامر ، فلا تفرق بين النور والظلمة ، والجهل والحكمة ، وما عليك من بأس أن تلتمس من أخ في الله دعوة صالحة ، سيما إذا توسمت اسباب الإجابة .

وقد شاع في ديننا حسن التماس الدعاء من المؤمنين وعلى الاخص بظهر الغيب .

فجعل ما صنعه عمر من قسم صنع القبوريين تخليط فاحش، وتلطيخ له بما لا يليق به . والله المستعان .

فالأحمق يضرك بعين ما يزعم أنه لك نافع .

وهل تَخَيُّرك داعياً: الاكتوختي خير الاوقات للاجابة ،وحالات الدعاء؟ ذهاباً منك الى أن ذلك اسرع تحصيلا وأنفع توصيلا . وإلا فكان التوسل من عمر برسول صلى الله عليه وسلم ، وبسائر الانبيـاء والملائكة والاصفياء عليهم صلوات الله وسلامه اجمعين : أحق واصدق .

إذ لا عاقل يتخير من ذلك المعنى الذي يقصده : ما هو ادنى ، ويجتنب الاعلى .

فالداعي سوى الله والملتجيء الى غيره ، وصارف اضطراره وافتقاره عنه الى من دونه بهيئة ما ينبغى أن يكون لله — كما أشرنا اليه في ذكره انفصال تلك الامور المارة قريباً — ومثبت ما لله من التأثير لخلقه على جهة اتصاف المحل ولو في الجملة ، إما بالإعتقاد أو بالتهيؤ — كما تترجم عنه الحالة الدعائية وحكم صورتها — والواقف نفسَه تحت حكم من لا خلق له ولا امر ، والضّان بنفسه عن تسليمها له تعالى ، بريئة عن المشاقة والاستنكاف عمـا طلبه منها ، وألزمها إياه —: مضيع لمعنى العبودية ومقتضيات الربوبية ، التي لا انفكاك عنها .

وهكذا — كما قدمنا — خوفُك واملك ورجاؤك من سواه ، على المعنى الذي يكون عن الذات المستجمعة لتلك الصفات . وهو معقول متصور عند ذوي البصيرة ، بمنزلة الاشباح عند البصر (٥ : ٤٤ فلا تخشوا الناس واخشون) (٣ : ١٧٥ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) حيث كان النهي والامر منصرفين الى نفس الفعل المذكور لا الى متعلقه وهو الايثار له واعتباره عملا واقتضاء . لقوله تعالى (٢٨ : ٢١ فخرج منها خائفا يترقب) وقوله (٣٣ : ١٠ وبلغت القلوب الحناجر)وقوله (٢ : ٢١٤ مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا) .

والمعنى الاول : صحيح بلا ريب، حيث يلاحظ افتراق ما منجهة الخالق عما هو من جهة المخلوق .كلبسك الدرع للحرب ، واتقائك ظلم جبـار عنيد . وكذا قصدك احداً او بلداً للانتفاع بما آتاه الله من علم دين ، او طب ، او قدرة على استخلاص حق لك ، او إيوائك من ذي سلطان ، أو لخصب في الارض وسعة ، ونحو ذلك كله .

فأنت تُجوِّز في هذا كله التخلف لعدم الامكان التام ، الذي لأجله تسأل الله ، ولم تتلبس بهيئة ممنوعة . فالمعنى الذي هو راجع وضعـــاً لاقصداً الى القوي القادر ، بحيث لا يصلح إلا له ، ولا يتحصل الا به او عنه : اسم طلبه والتماسه ، واللفظ الذي يكون له : هو الدعاء وَضْعاً وشرعاً .

والدعاء في لسان انبياء الله ورسله وكتابه : اسم لطلب ذلك المعنى ،ولهذا اطلق الله في كتابه دعاء المشركين لسواه وساقه مساق المتعين المعلوم، واورده مورد ما تنساق بالبديهة اليه الفهوم ، وسجل عليهم : أنْ نَحَوْا به خلاف جهته ، واخرجوه عن محله ، ومن أمثلته (٧ : ١٩٤ ان الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم . فادعوهم فليستجيبوا لكم ، ان كنتم صادقين — الآية) فَوَصْفُ العباد به : هو المانعُ من التأهل للاستدعاء منهم ، واسناد الطلب اليهم .

والحاصل : أنه تعالى نعتَ نفسه بنعت مقتض لتخصيصه بالدعاء . وهو نعت ذاتي او فعلى ، كما أنه سبحانه نعتَ الدعاء بنعت وضعي ، مقتض لأن يكون به من خاص حق الله الذي هو منعوت بذلك النعت الاول،وذلك النعت بعينه هو المانع من دعاء غيره ، أي لان الدعاء لا يجوز توجيهه الا لمن كان بذلك النعت ، ولايجوز أن يكون محل قصده الا من كان به ايضاً .فدعاء سواه تعالى : ضَلَّةٌ في الرأي ، بداية ونهاية ، ومنشأ ومقصداً ، ووسيلة ومنتحى ، ولفظاً ومحلا ، وسعيا وغاية .

وبينه وبين سؤالك من مخلوق متاعاً او انتفاعاً : بَوْنٌ متميز بالصفة والاسم ،

والمحل والنية والكيفية ،مصدراً ومقصداً وتعلقا ،لايلتبس ولايخفى مايليق بكل جهة كيفية وحقيقة .

وأما الجاهلون : فعَزَب عنهم هذا الانكشاف الذى لوضوحه كان التعبير عنه تحصيل حاصل ، وإنما فساد الفطر هو الذى أوجب هذا التبيين .

فقالوا : نَظرة ياولي الله، أقحطت الأرض،وهلك العيال،وتسلط العدو، وعقمت المرأة ، وعصفت الريح ، وجُنّ الابناء . فالغارة الغارة ، والعجل العجل ، أغثنا أدركنا . مددك .

وهو إذ ذاك رهين التراب في انتظار الحشر، الذي لايدري متى يكون وإلا فلو قالوا : ياعبد الله — أي : وهو حي يخاطب — أعطنا من طعامك ، وأحسن كما أحسن الله اليك،وسل الله لنا:ماجاوزوا اللائق خطاباً ومخاطباً، لانه شيء أناله الله اياه ، وأمره ان ينيل منه ، فهو بمنزلة الخازن الامين ، المؤدي مااستودع . ماحصل مفقودا ، ولا كَوّن مالم يكن موجودا . ولا ريب أنه فعل فعلا أُمِدّ بقواه ، ومُكّن منه بإفاضة محله . فهو حينئذ في كل ماأعطي وفعل ليس إلا في الصرف والوضع في ذلك المحل المعين ، وفعل ماهو من شأنه ، كصلاة ، وصيام ، وذكر ، وجهاد ، وإخراج زكاة .

وبالجملة : فإنما يسأل منه ماهو من شأنه وصفته المعلومة المحسوسة ، المُمَدّ هو بقوتها التي ينسب اليه بها الفعل . فهو كأقيموا الصلاة ، وجاهدوا في سبيل الله ، وافعلوا الخير ، وأنفقوا مما رزقناكم ، وتعاونوا على البر والتقوى .

كل ذلك هو فيه صارف لأفعال منه ،أو أعيان عنده في مصارفها، والفعل بعد إمداد الله له بقواه . يتنزل منزلة الدرهم المأمور بإعطائه زيدا ، لافرق.

وهذه القوى بمنزلة الأمتعة ، كل منها مأمور بوضعه في محله ، لافرق بين قولك : خلق الله السمع والابصار والأفئدة لشكره ، والسلاح للجهاد به في سبيله ، والدرهم لإنفاقه في مرضاته .

فالشكر والجهاد والإنفاق من واد واحد،بل ليس الشكر إلا وضع كل نعم الله في موضعها ، من الانفاق والجهاد ونحوها . فكلها مطلوبة من العبد ، وهي فعل من أفعاله.تصح منه عقلا وشرعاً وضرورة، وهي من كسبه منسوبة إليه، وهو عامل لها قائم بها يَجْزِي عليها، كما كرر الله ذلك في كتابه فما جرى هذا المجرى : هو الذي يلتمس من المخلوق على هذا الوجه حسبُ ، وعلى هذا النحو خاصة.ويطلب منه ما طُوِّقه ومُكِّن منه ، وأفيد علته، مع فقره كل لحظة الى ربه الذي أفاده اياه .

فما سِرّ التخصيص « بإياك نستعين »

ولُبَابُ الباب : ان الذي استقرت عليه الفطر والبديهيات ، فضلا عن العقول السليمة والأديان المنزلة من عند الله، وقضت به الضرورة :هو انفصال شأن المخلوق عن شأن خالقه وبارئه . في المبادىء والآثار ؟ فالذاهب بشأن إحدى الجهتين ، الجاهل مايختصها، الواضع لإحداهما مكان الأخرى .بالغ في السفه والحماقة .

فالمخلوق قد استقر في المدارك المذكورة ، بحيث إننا إنما نترجم عما حل فيها لفساد كثير من الفطر — ان أفعاله وتأثيراته،ماهي إلا عن ذات مصنوعة مخلوقة مكَوَّنة ، تفضل الله بإيجادها واطلاقها من أسْرِ العدم ، محدثة عن تصرف خالقها . وتدبيره وتكوينه ، بلا حيلة منها ،ولاصنع ولا تدبير ،ولم يتوقف شيء من ذلك على إرادة او إذن منها ، او اختيار ، بل هي مسخرة مقهورة تحت حكم منشئها ، القاضي عليها بما شاء من ذلك . ثم عن قُوًى مفاضة ، وأيادي مفادة ، ومبادىء موهوبة ، وصنائع تفضل بها ربه عليه ، وهو يعجز عن ذرة منها ، وكل ذلك أيضاً واقف على قضاء الصانع بالسلب والإبقاء ، ثم عن مزاولة مشاهدة ومعاناة عملية ، وعلاج ظاهر ،واضطراب وانقلاب ، وحركة وسكون ، وسعى ينادي بالعجز والقصور والكلال ، والاشتغال وتشتت البال .

ومع هذا كله . ففي قضايا خاصة ، ومتفقات جزئية ، وأحوال معدودة، ومحال محدودة ، ومعرفة حاله وظهورها : مغنية عن الإيعاب في شرحها ، وماتصلح له ويصح منها بيقين لايشوبه شك ، ولايتوقف على الاختيار ، ولا هو محتاج في معرفة قصور علمه وتدبيره ، وأنه بمنزلة لاشيء لولامولاه ،وكل ذلك بغير حاجة الى شرح .

أفمن هو كذلك كمن تصرفه ، وآثار قدرته عن ذاته وبذاته وكمال صفاته، بلا لغوب ولاقصور ، ولاتأخر عن سنن كمال العلم والقدرة ،والقوة والحكمة، وماشئت من معاني أسمائه الحسنى وصفاته العُلَـى ، ولا يختص بالنسبة اليه جهة دون أخرى ، بإمكان وإذعان وانقياد لأمره وإشارته ، ولا احتياج له الى معين ، او ظهير في تصريف أمره تعالى وإنجاحه وإيجاده، وتأثيره يكون أيضاً من حيث المعنى وعاما وباطناً وكاملا ، وعلى نهايـــة من بلوغ متعلق الإرادة — الى غير ذلك من جهات الانفصال والتمييز (١٧:١٦ أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكرون) (٦٧،٦٦:٢١ أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولايضركم ؟ أفٍ لكم ولما تعبـــدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟) (٤٢:١٩ لم تعبـد مالا يسمع ولا يبصر ، ولايغني عنك شيئاً ؟) (٣:٢٥ واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئاً ، وهم يخلقون ،ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشوراً)(١٨٨:٧ قل:لاأملك لنفسي نفعا ولاضراً إلا ماشـاء الله)(٧٢ : ٢١ قل : إني لاأملك لكم ضَراً ولا رَشَـدا) .

فإن سأله اي عبد مِنْ كلّ ماهو أهله ؟ فلاريب أنه مادعا غير الله.

وفي هذا الاستثناء ، وهو (إلا ماشاء الله) سِرٌ بديع ، ومعنى نفيس ، محل تحقيقه في غير هذا الموضع [١].

---

(١) معنى «إلا ماشاء الله» اي إلا ماأعطاني ربي ومكنني بالقدرة على فعله او تركه،والسعي في نفعي،وفي دفع مايضرني .فان كل ذلك وغيره:هومما شاءه الله لي ومكنني منه بقدرته هو وبرحمته وعلمه وحكمته ،فلولا ماأعطاني من الأسباب والقوى الكونية والعلمية ماقدرت ان افعل شيئا . والله اعلم.

وفي الحديث « واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله » مناسبة له .

وبالجملة : فاختصاصه تعالى بكونه القوي القادر القاهر، يدبر الامر وحده، وغير ذلك من أسمائه وصفاته : امر ظاهر منكشف .

وحذار من الاستدراك عليه بقولك : إلا من جعله الله قاهرا مدبرا للأمر، كما تجاسر خواص عُبَّاد الموتى . فإنه زيادة مضادة للمعـــاني المقصودة بتلك الاسماء والصفات .

وإن زعمت : ان اول ذلك الاستدراك ، وعقد القلب عليه: يمانع المضادة المذكورة . فقل لي : هل أتاك بــه عن الله من سلطان صحيح ؟ بل هل هو موافق للفطرة السليمة والعقل الصحيح ؟ وبماذا تجيب السريع الحساب بعد نزولك دار الملامة ؟ فإياك والـهـوىً في مزالق التقليد الأعمى ومتالفه المهلكة، بنسبة خصائص الفقير العاجز الى القوى الغني الحميد . فما اشنعها من فريـة وتعطيل ، وماأقبحه من جهل بما للعلى الجليل .

هذا الله (٣١:٩، ١٠ العزيز الحكيم . خلق السموات بغير عَمَدَ ترونهـا وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة . وأنزلنا من السماء ماء . فأنبتنا فيها من كل زوج كريم .هذا خلق الله فأروني :ماذاخلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون في ضلال مبين)(٣٠:٤٠ الله الذي خلقـكم ثم رزقـكم ثم يميتـكم ، ثم يحييكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلـكم من شيء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) تعالى الله وتقدس ،وجل الله العظيم (هوالأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم)(١١:٤٥ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(٢٢:٤١، ٢٣ ولكن ظننتم ان الله لايعلم كثيراً مماتعملون، وذلـكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين) (٣٨:٥٠ ولقد خلقنا السموات والارض ومابينهما في ستة أيام. ومامسنا من لغوب)(٢:

٢٢٥ وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما .وهو العلي العظيم) .

وكذلك إخراج شيء من مقتضيات اسماء ربنا سبحانه وصفاته عن محله ، لآيات (٧٤:٢٢ ماقدروا الله حق قدره) ونسبة ماللقوي القادر الى الضعيف العاجز من ربوبية او إلـهيـَّة ومعبودية او مقتضاتها، حسب اومثلا ،ومافي معناهما :اقبح شرك بالله وتنديد (١:٦ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)(١٦٥:٢ ومن الناس مَنْ يتخـذ من دون أنداداً ، يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حُبّاً لله) .

ولكنا لانعلم ان الله سبحانه وتعالى جعل شرك القوم وتنديدهم : هوذهابهم الى اتخاذ الند والشبيه له صفات ربوبيته من حكمته ، وعلمه وقدرته وقوته ، وصفة الخلق والرزق ، والإحيـاء ، والإماتة ، وغيرها ، فأضافوهـا الى أندادهم ، وجعلوها مثلا له في ذلك ، متصفة بتلك النعوت ، او ان المسألة لها – اعني الأديان منهم - كانت شركا بأولئك الآ لهة ، لأن لها التصرف والتصريف استقلالاً ، او نيابة ، او لان لها بالتعبد لها والاستشفاع بها اثراً مقطوعاً بحصوله ونيله ؟ كما ترى عليه اليوم بعض عُبَّاد الأموات، اوعامتهم فيما يصنعون لها ، بل غاية ذلك – فيما قص الله علينا–ان شفاعتهن تُرتَجَى .

وحاصل الأمر : ان القصدالاول –وهو الحاصل بالتوجه والمسألة ، إذهما عينه – واقع ،لاماوراءه ، من نية انها هي المحصلة لما سألوه ، لنأهلها وصحة انبعاثه عن تأثيرها ؟ فلا نعلمه .

ولكن القوم عمدوا الى ماتقتضيه تلك الصفات العلى،وتستتبعه وتنادي به : ان يكون من الآثار والتعلقات المعمولة بحسب ماينبغي،ويتجه لتلك الصفات، فنقلوه عن هذه الجهة . وقطعوه منها الى غيرها،وصرفوه لذلك الغير ، كدعاء الأوثان ،والتأليه لأحد من الاغيار ثانٍ ،وحكمٍ بسوى مارسمه مُنـَزّل القرآن، وسَوْق الهدايا الى مالم ياذن به والقربان ، والتعلق في نفع اودفع بعبدميت،

او مكان او زمان ، على النحو الذي سمعت فيما مرّ لك ايها الإنسان ؟.

وشائع شركُ الوثنية ، وعامته : هو فيما يعلم كل عاقل من هـذا القبيل ، ولقد تتبعنا في كتاب الله من فصول تراكيبه واصول اساليبه ،فلم نجده تعالى حكى عن المشركين ان عقيدتهم في آلِهَتِهِم وشركائهم التي عبدوها من دونه : انها تخلق ، وترزق ،وتحيى ،وتميت، وتنزل من السماء ماء ، وتخرج الحيّ من الميت ، والميت من الحي ، وتاتي بالضياء والظلمة ، وتنبت حدائق ذات بهجة ، او انها جعلت الارض قراراً ،وخلالها انهاراً ، وجعلت لها رواسي، وجعلت بين البحرين حاجزاً ، او انها تجيب المضطر إذا دعـا ، وتكشف السوء والبلوى ، او تؤتى الملك من تشاء ؛ وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ،وتهدي في ظلمات البر والبحر ،وترسل الرياح بين يدي المطر؟.

بل إذا ضاق عليهم الامر ، واشتد بهم الكرب : فزعوا الى الله وحده . فإذا سئلوا عن حقيقة دينهم : هل هو شرك في الربوبية ؟دانوا واذعنوا للرب وحده بالاختصاص بكل ذلك ، والانفرادوهذا واضح لمن القى السمع للقرآن فيما حكى عنهم بقوله (٢٣ : ٨٤ — ٨٩ : قل لمن الارض ومن فيها، ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله قل : افلا تذكرون ؟ قل: مَنْ ربُّ السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله ، قل : افلا تتقون ؟ قل : من بيـده ملكوت كل شيء ؟ وهو يجير ولا يُجار عليه ، ان كنتم تعلمون ، سيقولون : لله ، قل : فانـّى تُسْحَرون ؟) .

فتامل ذلك ، وتصفحه بفكر صاف ، ونظر ثاقب ، وعقل سليم ،وتدبر صحيح ، سِيَّما مَنْ بيده كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه .

واعتبر عقائد عباد الموتى ، وصرفهم التدبير الإلهي بالملاحظة لما لم يقع ، ليقع ، والنسبة لما وقع اليها (٣٥ : ٣ ياايها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ،هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض؟ لاإله إلا هو ، فانـّى تؤفكون ؟).

(٣٠ : ٤٠ الله الذى خلقكم ، ثم رزقكم، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، هل من شركائكم مَنْ يفعل من ذلكم من شيء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) (٣٠ : ٣٣ وإذا مَسَّ الناس ضُرٌّ ، دعوا ربهم منيبين إليه، ثم إذا أذاقهم منه رحمة ، إذا فريق منهم بربهم يشركون) (١٣ : ١٦ قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله . قل : أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل : هل يستوي الاعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور، ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابَهَ الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء . وهو الواحد القهار) .

تأمل دين عباد القبور اليوم ، خصوصا الغالين منهم فيها ، اذا مسهم الضر أنابوا اليها . ويروون — قاتلهم الله أنى يؤفكون — :اذا دهمتكم الامور ، فعليكم بأصحاب القبور، ثم يذوقون الرحمة من الله مع كفرهم هذا . فيقولون: كرامة الشيخ وبرهانه واذا اخفق سعيهم يقولون : هو غائب او ساخط .

وهذه قضية واقعة فاشية في الكثير ، او الأكثر ، او أن السالم من حُمَّاها نزر لا يكاد يذكر .

والاستفهام في قوله تعالى (هل من خالق غير الله) (هل من شركائكم من يفعل مــن ذلكم من شيء ؟) (من رب السموات والارض ؟) يؤتى بمثله للتقرير على المخاطب بما يعلمه ، وهو امر ثابت عنده .

ومن المعلوم : أن فالق الحب والنوى وباريء النسم عندهم: هو الله العلي الاعظم. فانظر— هداني الله واياك — بعين الاعتبار . وتأمل بقلب شهيد قول الله تعالى (٣٠ : ٢٨ ضرب لكم مثلا من انفسكم ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم، فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم)(١٠ : ٣١—٣٥ قل : من يرزقكم من السماء والارض ؟ ام من يملك السمع والابصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؟ ومن يدبر الامر؟ فسيقولون: الله، فقل : أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

فأنى تصرفون ؟ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا : انهم لايؤمنون، قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ؟ قل : هل من شركائكم من يهدي الى الحق ؟ قل : الله يهدى للحق ، أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع ، ام من لا يَهِدّي إلا أن يُهْدَي؟ فما لكم كيف تحكمون؟) . (٢٢ : ٧٣ ، ٧٤ يا ايها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره . إن الله لقوى عزيز) (١٦ : ٧٤ فلا تضربوا لله الامثال . إن الله يعلم وانتم لا تعلمون) (١٦ : ٢٠ — ٢٢ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . اموات غير احياء ، وما يشعرون أيان يبعثون إلهكم إله واحد. فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) .

هل ترى في جميع هذا الذي حكاه الله عنهم : أنهم زعموا منه قليلا او كثيرا ، حقيراً او خطيراً ، لآلهتهم التي هم لها يعبدون ، وحولها يعكفون؟ بل صيَّروا هذه الصفات عُطلا عما تستتبع وتستلزم وتقتضي أن يكون لاحقاً لها ، ومتعلقاً بها ، ومنضماً اليها من التوحيد والتفريد ، وعدم التشريك والتنديد ، بالدعاء ، والعكوف ، والقرابين ، وغيرها .

فهذا شرك القوم واتخاذهم الآلهة ، الذي كان سبباً : أن سجَّل عليهم ربهم القاهر فوق عباده : بالشرك والغي ، والضلالة والكفر ، والظلم والجهالة ، ومنعوا صفاته حقها ، الذي مَنْعُهُ غايةُ السفه والإجرام . ألا ترى قوله تعالى (فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون؟) يترجم: بان مقتضى هذا الوصف العلي ، والنعت الكريم ، والشان العظيم : أن لا يُهمَلَ ولا يُضيَّع حقه الذي يستلزمه ، ويقتضي انصرافه اليه ، ولصوقه بجهته فكيف أيضاً يعمد عامد اليه . فيصرفه الى سواه ، ويضعه في غير محله اللائق به ، والمناسب له مناسبة لزومية ؟

واعلم : اننا في هذه الابحاث إذ نذكر الصفة ، قد نقصد بهـــا : الخالق ، الرزاق ، العليم ، القدير ، مثلا فاعلمه .

واعلم انّ ذكرنا لهذه الآيات الكريمة عظة لمن يقول : إنني من المسلمين ، وإيقاظاً له ، ان كان ممن عَمَّهُ داء عبادة المقابر . فيتفقد نفسه ، ويحذر من كيد عدوه ، ويعرف لماذا قص الله من أنباء من قـد سبق ونـَعَـى أفعالهم ، وجعلها آيات تتلى ، وبثها في العالمين ، وكَـرَّرَهَـا في كتابه الحكيم المبين ؟ ليعلم ان الشيطان الذي أضل السابقين . وأوقعهم في الشرك الوبيل : لم يسالمه ، ولم تضع أوزاره بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان امة محمـد : لم يتغير سنن الله فيها . ولاطبائع البشرية المعرضة للغفلة والنسيان ، والجهل والكفر والفسوق والعصيان ، فمن علم ذلك أخذ حذره دائما . وكان على بصيرة من أمره . فلم يقدم على عمل إلا على هدى من كتاب ربـه ، ونور من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

فلينظر العبد : أي شيء هو في هذه المقامات ؟ وهل دَبّ فيه غائلة هذا من داء الأمم وهو لايشعر ؟.

ثم إنا لسنا بصدد ذكر من كـُفْرُه بالدعـاء لنفسه ، كالقائل : أنا أحيى وأميت كالذي حاج إبراهيم في ربه ، وفرعون القائل : أنا ربكم الأعلى ، فإن ذلك نزاع في الحق ، ومقتضاه طور أشد دَرْكاً ، وأخبث مما اشرنا بكثير (٢:٢١،٢٢ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الارض فراشاً ، والسماء بناءً . وانزل من السماءماءً. فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وانتم تعلمون) .

وهذا التنديد : هو صرف حقه سبحانه وتعالى الى الأنداد– وهذاالحق هو العبادة – ألا تراه يقول سبحانه (اعبدوا ربـكم الذي خلقـكم والذين من قبلكم) وأتى بالفاء المشعرة لاقتضاء تلك النعوت الاختصاص بالعبادة .

اتدري ماحق الله على العباد ؟حق الله على العباد :هو ان يعبدوه ولايشركوا

به شيئاً ، وليس تنديـدهم إلا بذلهم ماهو حق ربهم منهم للسّوى والغير ، دون خلع الصفات الْعَـلِيـَّةِ ، التي لأجلها كان الاختصاص بالعبادة ، اوإلقاء مالايصح له من سواها عليه ، إلا ماستتبعه ذلك البـــذل والصرف ، من توصيف الندّ بالالهية والعبودية . فإنه يقتضي مالا يخفى ، من خَـلْـع والقاء لكن ليس بذلك الاعتبار المار ، وإنما هو في معنى الترجمة عن فعلهم الشنيـع والتسوية في التعلق ، لاالتحقق والتمثيل هو بالإضافة لجهتهم وجهة صنعهم ، لابالإضافة الى المصنوع له (٥٢:٢، ٥٣ولقد جاءكم موسى بالبينات ،ثم اتخذتم العجل من بعده ، وانتم ظالمون) (وَأُشْـرِبُوا في قلوبهم العجل بكفرهم) (١٤٨:٧ اتخذوه وكانوا ظالمين) (٣١:٢٠ قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى).

اتراهم ماذا صنعوا هنالك ؟ ادانوا بأنه الخالق الرازق المالك.ام اعطوه من انفسهم تأليه المريد السالك ؟ ام زادوا على هذا القدر طوراً وراء ذلك؟

وقد ابـــان .كثير من الآي الكريم واعرب : عن ان قصارى شركهم ، المذكور فيه ، ومنتهى امده:هو معاملتهم للأنداد بمالايستحقه منهم إلاالرب الكريم الجواد (١٦٥:٢ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبّاً لله).

أعلمته : حكى عن هذا أنه لايحب الله ، أي على ان المعنى : كحبهم الله (٣٩:٨ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ، ويكون الدين كله لله) أي : وهو العبادة (٣:٣٩ ألا للهِ الدين الخالص)(٥:٩٨ وما أمروا إلا ليعبدوا الله؟ مخلصين له الدين حُنَفَـاءَ)(١٩:٣ ان الدين عند الله الإسلام).

وقد عُلِمَ أنّ الدين ذوأحكام،وتحليلٍ وتحريم،وتوحيدٍ وتفريد،واعتقادٍ وسرائر وأعمال ، وظواهر وسرائر .

وهذا وجه قولنا في العبادة : إنها مايتديّن المربوب لخالقه وربه . ووجه قولنا :العبادة،إشارة الى جملة عَـيَّنت أفرادهاهذه الأوضاع الشرعية المفصلة،بل

مع التأمل الصادق يكون – إن شاء الله تعالى – شرحاً لكل ما سلف لنا من ألوان التعبير عن معاني العبادة (٣ : ٦٤ قل : ياأهل الكتاب تَعَالَوْا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : أن لانعبد الا الله، ولا نشرك به شيئاً ، ولايتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله) أي كما كانوا اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، يشرعون لهم مالم يأذن به الله .

أعلم بشر : أنهم سجدوا لهم، ودعوهم ، وصلوا لهم ، وصاموا ؟ بل هل كان لهم اليهم حجٌ ونحر ، وقربان ؟ كما صنع عباد المقابر .

وإن قام البرهان الصحيح بأنهم عبدوهم بأمثال ماذكرنا : خلاف ما دل عليه حديث الترمذى في تفسير قوله تعالى : (٩ : ٣١ اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا إلـهاً واحداً ، لا إله الا هو ، سبحانه عما يشركون) من جامعه وحسنه ، وستأتي الاشارة اليه ، ان شاء الله تعالى .

فالعبادة : ذات تنوع لا ينحصر في ذلك ، ولا يكاد عباد المقابر ينفصلون عن اي صنوفها ، أعنى من لم يجاهر من ذلك باقصى غايات الشرك ، كمن شرحنا مقاله فيما سلف ، (٣ : ٨٠ ولايأمرَكم انتتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ؟)أي: لن يكون من الله هذا.

وقد جعل الله لهم اسماعاً وابصاراً وأفئدة ، لينتفعوا بها ويقدروا نعمة ربهم فيها ، فيتفكروا في سننه وآياته الكونية ، ويتدبروا ويتفقهوا آياته القرآنية فيخلصوا عبادته تعالى (٤ : ١١٧ ، ١١٩ إن يَدْعون من دونه الا اناثاً ، وان يدعون الا شيطاناً مريداً ، لعنه الله ، وقال: لأَتَّخِذَنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً ، ولَأُضلَّنهم ولَأُمَنِّيَنَّهم ، ولآمرنَّهم فليُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليُغَيِّرنَّ خلق الله) .

ومن تغيير خلق الله تعالى: الوشم والتفليج للأسنان تحسينا، كما أشار الحديث

الصحيح[1]، وانحصار دعائهم في الشيطان، لكونه الدال والداعي إلى هذه الضلالة

ومن عمل ما يحاول غيره حصوله، ويحرص عليه، ويسعى إليه، ويتشوف له، فهو له عامل بالعمد لا بالقصد، وفي الحاصل والغاية والعاقبة، لا التوجه والانبعاث والغاية (٤:١٤٦ الا الذين تابوا وأصلحوا. واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله، فأولئك مع المؤمنين) والاعتصام به، والإخلاص له ظاهر، والتوبة مما كانوا عليه والإصلاح لما فسد كذلك (٦:٩٤ ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) (٦ : ١٢١ وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم، وان أطعتموهم انكم لمشركون) (٦:١٣٦ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً. فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم. ساء ما يحكمون).

ومما يوضح ذلك ويدل عليه أن كثيرا من العامة يتخذ قسطا من مزرعته، أو من غنمه لابن علوان ويقبضه قوم يقال لهم: المناصيب، هم من الدعاة الى الشرك بالله أو رءوسهم، فيحملون العامة بعباراتهم وتهويلهم ومسالكهم الشيطانية، التي ان لم يكن شيء منها شركا بالله، فما يوجد بهذا اللفظ معنى يدل على المسارعة وبذل المطلوب من الحطام، لأن المقصود بتلك المقدمات من ذكر البراهين والإفك المبين. ومن تأخَّر فليحذر هجوم رسول الشيخ في الليل، حتى

---

١ ـ واذا كان الوشم والتفليج للاسنان من تغيير خلق الله، فأولى أن يكون التقليد الاعمى أشد تغيير خلق الله. لانه قلب الانسان ونكسه. وجعله أضل من الانعام، ومثله كمثل الكلب، كما صرح الله سبحانه بذلك في كثير من آي الذكر الحكيم، وبهذا التقليد غير الشيطان في المقلدين خلق الله. فصار الميت عندهم حيا، والخشب والحجر والحيوان آلهة تعبد وتلتمس منها البركات، وصار خلق الله في الايام والليالي على غير ما خلق وفطر وكل ذلك من ثمرات افساد الفطرة، وتغيير خلق الله فيها. والحمد لله الذي عافانا وأنقذنا من هذه الظلمات الى نور هداية الفطرة والاسلام.

يذرون القوم بلا قلوب ولا عقول ولا أديان، ولا نظر أصلا. بل أشباه الأنعام والمجانين ، يصدقون الكذب ، ويعتقدون المعدوم ، ويعطون من حرم الله ، ويمنعون من أمر الله بإعطائه من الآباء وذوى القربى . فهم بكل هذا يسلخونهم من شعار التوحيد إلى لباس الشرك والتنديد، والإعراض عن الله الحميد المجيد، حتى إنك لتجدهم يحاذرون ويرجون من جهة الشيخ ما لا شيء منه مع باريهم وفاطرهم، لجهلهم بحقه، دون ما اتخذوه من رسوم الشيخ، ويحرصون على براءة نفوسهم من نذره وإتاوته، والقيام في طاعة وبر وإرضاء من يأتي من قبله من منصوب، أو مجذوب، أوغيرهما، ويطوفون نحو الراية ويتمسحون بها، ويرجون من كل ذلك نفعاً ودفعاً .

وإذا أتاهم لجهة الله من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويدعوهم أن ينفقوا في سبيل الله، ويصلوا أرحامهم ، ويقيموا الصلاة ويجمعوا ماقدروا عليه ـ أقل مما يدفعونه إلى المنصوب بكثير ـ لفقير أو أرملة ـ وبالجملة: يأتيهم بما أتى به الرسل الذى سيسألون عنه بين يدى أسرع الحاسبين ـ أجفلوا وفروا، أوقابلوه بمقابلة مريضة أو كالميتة ، بلا نشاط ولا رغبة ، ولا رعاية ولا اقبال قلب ، ولايقومون لله في براءة ذممهم، وما علقه تعالى بها من مال وغيره بعضاً مما يقومون به للشيخ حتى ان كثيراً منهم ينفق في الزيارة واسع النفقة، ويثابر على أن لا تفوته في مواسمها، ويتهيأ لها برغبة ونشاط أكثر مما يكون الى بيت الله الحرام، بل ربما لايعرف الحج قط مع الاستطاعة ، بل ربما كثيرا مايضيع الصلاة المكتوبة وعدة فرائض، امالاشتغاله بفرض الزيارة الشركية، واما مطلقاً، واما رسوم الشيخ وعاداته فالوفاء حتم لافكاك منه، فبيعة العقبة للشيخ في أعناقهم خوفا وطمعا، بحيث يهدرون مالا يحصى من أوامر الله، وحقوق الخالق، وما ألزم به ذممهم لحلول ما يضادها في ساحتهم ونزوله بمنازل اعتبارهم .

وشرح هـذا الباب يطـول ، حتى كاد يستأصل منهم جميع شرائع الأديان

والعقول . — بل لقد استأصل — كما قد صنع ذلك في عدد لايسعف الحاصر، ولا يلم به الخامل .

وأما باب ذكر الله تعالى للمذاهب التى كان عليها المشركون ، وهي من فروع اصلهم المضلل فهاوية بعيدة القعر، كما في قوله تعالى (٦ : ١٣٨ ، ١٣٩ وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وانعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه. سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا . وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء. سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم) .

وفي هذا إشارةواضحة وتحذير بليغ ، وعظات قوية : أن كلما يحدث أي محدث فى اي عصر، في دين الله ما لم يأذن به الله : من تحليل اوتحريم ، فإنما هو افتراء الكذب على الله، الذي سيعاقب الله عليه اشدالعقوبة بالنكال والخسران في الدنيا والآخرة (١٦ : ١١٦ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام، لتفتروا على الله الكذب . إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) (١٠ : ٥٩ ، ٦٠ قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق، فجعلتم منه حراما وحلالا قل : آلله أذن لكم ، ام على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة . إن الله لذوفضل على الناس ، ولكن اكثرهم لا يشكرون) .

فإن ما ذكر هل تراه الا في وزان الاختيارات الباطلة ، واستحسانات بالآراء الجاهلة ، والأقوال في ديننا بغير دليل ولا حكم من الشارع بلا تثبت ولا حجة ؟ .

وغير خاف عليك أن الله تعالى سجل على القوم بذلك في معرض بيان صنوف إفكهم وضلالهم وشركهم به . كما قوله تعالى (١٤٨:٦ لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فعطف التحريم على الإشراك، اما لنوعيته،

فيكون تنصيصاً بعد شمول، وإما لغيريته وعدم دخوله انلم يعكرعليه قوله (٦: ١٥٠ قل : هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حَرَّم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون) .

ولا ضير في تعاطف ما تتداخل فصوله او بعضها، كقوله (٧: ٤٤ انما حرم ربي الفواحش ما ظهرمنها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) وقوله (٤٠ :٦٩-٧٦ ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله ، أنى يصرفون ؟ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون، اذ الأغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ، ثم في النار يسجرون ، ثم قيل لهم : أينما كنتم تشركون من دون الله؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً . كذلك يضل الله الكافرين ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون . ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) .

تأمل قولهم : (بل لم نكن ندعو من قبل شيئا) في جواب (أينما كنتم تدعون من دون لله ؟) وقوله (٤٠ : ٧٥ تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) ما أشده ! (حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أينما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا ، وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين) اعتبر قوله (أينما كنتم تدعون ؟ من دون الله) وشهادتهم على انفسهم (انهم كانوا كافرين) .

فحذار من فتنة المقابر حذار ، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر (٧:٥٩ لقد ارسلنا نوحاً الى قومه . فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

وضبط منشأ أخبارهم في قوله تعالى (٢١ : ٢٥ وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه : أنه لا اله الا أنا فاعبدون) .

تأمل هذه المقامات وما مَثّله لك ربك بأولئك الاقوام ، وما الذي نهوا عنه وسموا مشركين لأجله : ألكونهم جعلوا لمعبوداتهم الخلق والرزق ؟ ام غاية امرهم : التسمية والدعاء، والعمل لها وبذل حق الواحد الخالق لسواه منها؟ والمدار على المعنى أو التسمية لأجله ومكانه لالذاتها؟ فهي بمنزلة الفرع المتولد.

بالطبع ان أيقنت أن حصول ذلك المعنى كان في الاعتبار هنا — وامره ان شاء الله تعالى لديك ظاهر — اذ ليست هذه جهة تَعَبُّد وربط شرعي للحكم والعبارة والاسم، ان كنت مستوضحاً هذا ، ومحيلاً لسابق فكرك فيه . حتى لا يبقى لك ريبة .

وحاصل الامر : أن العبادة ليست صالحة محمودة الا اذا كانت عن سبب صحيح ، ومقتضى حق، ولمحل هو حقيق بها كذلك. والا فهي فاسدة ذميمة. إذ مجرد اقامة صورتها من دون اعتبار صحة ماهي عنه وله: جَهْلٌ فظيع او عبث جنونى، او شرك وثني ، اوفرعونية نمروذية ، لدعائها ودعواهما. فهما طور منتهى الاطوار لجمعه بين التعطيل والشرك .

فالمشركون أضاعوا النظر في السبب والمحل ، وهو هو بالآخرة : انما يفترق بالاعتبار ، او بالصفة والموصوف فيغايره. ولهذا نادوا على انفسهم — اذعبدوا أحجاراً نحتوها بأيديهم صوراً وتماثيل لمعظميهم — بالإيغال في الضلال والسخف والسفه . لأن هذه سمة من لا يعقل ولا يميز قط، ومالها ولا لغيرها مما سوى الله من سببية ، او صلاحية .

(٤٠ : ٤١ — ٤٤ ويا قوم ، مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعونني الى النار؟ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم . وأنا ادعوكم الى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ، ولا في الآخرة وأن مَرَدّنا الى الله ، وأن المسرفين هم اصحاب النار . فستذكرون ما اقول لكم . وأفوض امري الى الله . إن الله بصير بالعباد) .

قنعوا في دينهم بإقامة صورة العبادة ، ورضوا بمحل باطل . ولهذا كانت مساعيهم على أوضاع سمجة . ونمط سخيف . فنبهتهم الرسل على ذلك . ودلتهم على خلاصهم من هُوّة [1] المهالك (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بمالايعلم في السموات ولا في الارض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون)(١٠–٣٨ ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم فزَيَّلنا بينهم . وقال شركاؤهم : ماكنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم . ان كنا عن عبادتكم لغافلين).

ثم انحدر الى اعتبار درجة أدنى من عبادة غير الله بعمل وسجود وتقرب بنحر وغيره ، وتصفح مااشتمل عليه قوله تعالى (١٠ : ٥٩ – ٧٠ قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق . فجعلتم منه حراماً وحلالاً ، قل : آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون . وماتكون في شأن وماتتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه . ومايَعزُب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لاتبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم . ولايحزنك قولهم . ان العزة لله جميعاً هو السميع العليم . ألا ان لله من في السموات ومن في الارض ، ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء . إن يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون . هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، قالوا : اتخذ الله ولداً سبحانه ،

---

(١) بهامش الاصل «الهوة» المكان المنهبط عن الارض . أفاده شيخنا عبد العزيز بن صالح بن مرشد . نفع الله بحياته .

هو الغني ، له مافي السموات ومافي الارض . ان عندكم من سلطان بهذا . أتقولون على الله مالاتعلمون ؟ قل: ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون متاع في الدنيا ، ثم الينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

ومن أمعن النظر في آيات الكتاب ، وماقص من محاورات الرسل مع أممهم وجد ان أس الشأن ، ومحط رحال القصد ، شيوعاً وكثرة وانتشاراً وشهرة: هو دعاء الله وحده ، وإخلاص العبادة له ، وان الغافلين كانوا بنقيض هذه الصفة من دون ان يضيفوا لما عبدوه شيئا من صفات الربوبية . كخلق ورزق وغيرهما . او يجعلوا لها من ذواتها وصفاتها مقتضياً ومُلز ِماً للعبادة ، بل أعربوا عن اتخاذها آلهة لتقريبهم الى الله وشفاعتها عنده (١٠ : ١٠٤ - ١٠٧ قل ياأيها الناس ، ان كنتم في شك من ديني ؟ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم . وأمرت ان اكون من المؤمنين. وان أقم وجهك للدين حنيفاً ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله مالاينفعك ولايضرك. فان فعلت فانك إذاً من الظالمين . وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلاراد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) .

تدبر قوله : (ولا تدع من دون الله - الخ) - مع حكمه تعالى على من سواهم بعدم النفع والضر - ووازن بينه وبين أقوال عباد المقابر ، التي هي صرائح في دعاء سواه ، والالتجاء اليه ، والاضطرار والافتقار بما يتعذر استقصاؤه ، وهو بمرأى ومسمع . وقد قدمنا قطرة منه . وشرح الظاهر المشاهد مستغنى عنه ، إلا اذا ذكرت اشارة اليه للدفع في نحر المتعنت المكابر لحسّه ووجدانه .

وقد وجدنا العبادة والدعاء يتعاقبان في الكتاب العزيز ، ويعتوران مشرعاً واحداً ، ومنتحىً متماثلاومساقاً متآخياً ، ومحطاًمتراوحاً. كقوله تعالى: (١٠ : ١٠٤ فلاأعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم وامرت ان اكون من المؤمنين) وقوله (٧ : ١٩٤ ان الذين تدعون من دون

الله عباد امثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) وقوله :
(٣٥ ١٣،١٤ ذلكم الله ربكم له الملك.والذين تدعون من دونه مايملكون
من قطمير . ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا مااستجابوا لكم.
ويوم القيامة يكفرون بشرككم ،ولاينبئك مثل خبير) وقوله (٤٦:٥،٦
ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له الى يوم القيامة .وهم عن دعائهم
غافلون . واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) مع
قوله تعالى : (١٠:٢٩ ان كنا عن عبادتكم لغافلين).

فتأمل قوله : (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) وتضمنَه
بيان معنى ذلك الدعاء والقصد به ، والغاية الباعثة عليه ، والصفة التي
تكيف بها . فإنه مترجم عن انهم يسألون المدعو أغراضهم . فكشف لهم –
إذ لم يكونوا منزلين منزلة من يجهل – عن حقيقة الأمر ، وانه لايملك مما
سألوه شيئاً ، ولايستطيع لهم قط إجابة .

ولا نخال ان القوم يعتقدون – إذ دعوا أوثانهم – أنها تدبّر الأمر ،
وتملك التصرف فيه ، فأي دلالة في دعائها عليه مع تسميتها ايضا شفعاء ؟فهل
يمكن مع هذا ان يجزم بكون القصد على نمط العبارة .

وهذا بعينه – دع ماجاوزه – قد ملأ أرجاء البسيطة ، ودان به العامة في
سكان المقابر ، ودعاء أصحاب الأجداث في كشف الملمات ، ودفع المهمات ،
وقضاء المطالب والمآرب والحاجات ، براً وبحراً ، وسهلا ووعرا . وإن
تراجم الكتاب العزيز ، وبراهينه بتلك المثابة والمنزلة والبيان الذي تلوناه
عليك من آياته البينة ، وكلماته المفصلة المعينة ، التي لاتبقى شكا ، ولا شبهة
ولا ارتيابا ، عند من وازن وتدبر .

فتعين اتحاد الجهتين جزما في أن صنع المقابرية – الذي مر لك منه ماتفاحش
نكره – هو الذي سلكه الوثنيون حذوك النعل بالنعل ،والقُذّة بالقذة،وتبعوا

آثارهم فيه حرفاً بحرف وخطوة بخطوة ، ودخلوا الجِحَرة التي دخلوها ، وولجوا الأبواب التي ولجوها ، بحيث انفصل أحدهما من الآخر فصل الشيء من عينه ، اللهم إلا على جهة مجاوزة المقابرية لحد أولئك في اكثر الحالات كما نبهناك على الحجة في ذلك ، ودللناك على صدر من صنيع العامة ، مما يشعر بذلك . فنعم .

ولا إله إلا الله ، كيف التبس مثل هذا ، وهو من أَبين البينات ، وأوضح الواضحات ؟ متداول الدلائل ، متجاذب الأهداب ، مَتْلوٌ بُكْرَةَ وعشية ، مقروء في الصلوات ، دائر على الألسنة ، يأثره الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير ؟!

لاجرم لما كان ملاك أمر الجميع وحاصل مبلغهم ، وغايتهم : هو التلاوة دون الفقه والتدبر والاتباع ، والصورة دون المعنى ؟ والمقدمات دون المقاصد ، والجسد دون الروح : خفي عليهم ذلك ، وعموا وصموا عنه . وانَّى لهم ذلك ؟ وقد منعهم سادتهم وكبراؤهم من أهليهم ، وممن يقوم عليهم ويسوسهم ، وقالوا : كتاب الله حِجْر محجور ، لايستفاد منه ، ولا يقتبس من أَنواره ، ولاينال مافيه من العلم والدين ، لأن رجاله قد ذهبوا ، وليس هذا الزمان صالحاً ان يكون فيه أحد كأولئك في أصل هذا الباب ، وإن صح على قدر ماأوتي ، والزاعم لذلك مباهت أفَّاك .

فلعمر الله ، للخير أضاعوا ، وللشر أذاعوا ، وإلا فلولا ذلك لكانت هذه المسألة من أظهر الظواهر ، لما ان العناية في كتاب الله بشأنها أَتم وأكمل ، والقصد اليها بالتكرير والتقرير والبيان في كتاب الله اكثر وأشمل . فإنها روح المطلوب من الرسالات ، وعماد ماسأله العبادَ رب الارض والسموات ، ودرجة الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وأفراد العبادة : بعد تلك الأسطوانة العامة والله يهدي من يشاء الى صراطٍ مستقيم .

بل قال الناظرون — ممن تحت أيديهم — لهم : إن كنت تطالب ، كيف

تصلي ، وتزكي ، وتصوم وتحج، وتتطهر من الحدث والجنابة ؟ فدونك ماقد قيل من قبلك ، فإن ذراته — فضلا عن جلائله —مستفادة محصلة من الكتاب والسنة . وان كنت تروم تصحيح عقيدتك . فهلم الى الفن المدون لذلك ، المبني على تلك الاصطلاحات والاختيارات . ثم ان كنت تريد سوى ذلك، فلك ولابد ناحية تؤمها ومنهج تعبره ، خاص بك عن سائر الطوائف ، اذ لو سلكت مسلكهم ، عطبت وهكذا : أشعري معتزلي امامي ، حنفي ، شافعي ، مالكي ، حنبلي وغيرهم .

فإن قلت : اريد مبدأ القضية ، وأس الامر ومصدر الخطب .

قالوا : ذلك شيء عجيب ، ثم ماذا تأمل ؟ لانك ان انتهت غايتك الى حاصل مادعوناك اليه ، فما زدت ان طولت المسافة على نفسك ، وتجشمت متاعب السفر ، والامر ايسر من ذلك واقرب . وان كانت الغاية بخلاف ذلك، فهناك العطب والمهالك ، لان باب استنادك الى نفسك وذوقك : باب مرتج، ومذهب ممتنع حرام . فالله المستعان .

وقد رأينا بعض المفسرين اعتمد تفسير الدعاء بالعبادة ، وكأنه الحديث الذي سنذكره ان شاء الله تعالى ، وهو الوجه . فرأيناه يعمد مثلا الى تركيب (٧:١٩٤ ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم) فيقول : تعبدون ، وهكذا في غير هذا التركيب ، وبه جاء النص الصريح ، المروى عند ابي داود والترمذي واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح الاسناد « الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم:(٤٠:٦٠ وقال ربكم ادعوني، استجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)».

وهذا الحديث رواه عدد جمّ من جلة الأئمة، واسانيده شهيرة ،ومخارجه معروفة وفيه البيان الصريح: بأن احد الجزأين في تركيب الحديث عين الآخر، ومنحصر فيه ، ولهذا أتى بالصورة والصيغة المؤذنة بذلك من تعريفها ، واقحام ضمير الفصل زيادة في الإفادة .

ولايخفى عليك ان سياق الآية الكريمة معرب عن كون الدعـاء المذكور فيها هو هذا المعروف ،الذي قدمنا الكلام فيه: بأنه وضع واقتضاء صوري، لازم طلب النفع والدفع ، وسؤال الغير مراد مع كون المحل باعتبار الهيئـة والطبـع والصدور ، لاالقصد الذي وراءه ففرق بعد الجمع الصحيح التعليق، لمكان القدرة التامة ، وسائر الوجوه التي تتأهل للدعاء . هذا ان لم يطابق القصد الصورة ، والا فإيغال في التيه : ان وضع قصدا في غير محلـه ومركزه الصحيح .

وقد قدمنا ان الدعاء – الذي نبحث نحن فيه الان – : هو عند المتشرعة والإسلاميين : طبع وهيئة لازمة طلب العاجز للقادر ، وسؤاله منه . ولهذا تكرر ذكره في كتاب الله تعالى ، اذ وصف حال الوثنيين مع أوثانهم مطلقاً عن تعيين صفته وكيفيته ، للاشارة الى انـه معنى متميز بَـيِّن منكشف ، كالصلاة والصوم مثلا .

ولعلك تقول : هذا تطويل في شيء لاخفاء فيه ، فإن دعاء الله ، ودعاء زيد عمراً في قبره لشفاء مريض ، او اياب غائب ، او تفريج كربة ، ودعاء المشركين أوثانهم لمثل ذلك : شيء ظاهر قريب ، وبعد الأنس بلائحة دين الإسلام يمتاز التوحيد مما سواه . فقل لي : ماتريد بهذا التكثير ؟.

فأقول : الامر كما تذكر ، بالنظر الى الجملة ، وأما مع ملاحظـة متعلقات البحث ، وذيوله وتفاصيله ولوازمه ،وتفريـع الكلام فيها. فَـلاَ بُعدَ فيعَـدِّهِ او بعضه ضرورياً . وليس القصد الا الى تقرير « ان دعاء الله وحـده : هو التوحيد الخالص ، وماسواه شرك ».

ولايصح لنا هذا الا بإيضاح ان وضع الدعاء على كيفيته وحاله : لايصلح ولايسوغ بسببها دعاء السوى . ولولاهذا لما شاع تقريـع الموحدين للملحدين، وتوبيخ المُحقـِّين للمبطلين ، ولما أطلق الرسل واتباعهم : ان دعاء غير الله تعالى شرك به ، وانكرُ الحادِ في دينه ،لأنه خالف وضعه تعالى لذلك،ورسمه

المعين فيما هنالك ، لأنه وضع الدعاء على كيف مخصوص ، وحالة فيها تعبد وتعرض لنيل مايقصد الداعي لقدرة المتعلق وغيرها المقتضية لندائه ، وتوجيه الدعاء اليه . فيجب صرف الشيء في اهله ومحله باعتبار حكمه تعالى اللازم ، وقضائه المحتوم ، ورسمه المطاع المتبع . امراً وشرعاً وتكليفاً ، لاوقوعاً ، والمخالفة له في ذلك مناقضة ومحادة ، ومشاقة ومضادة .

فقولنا في هذه المباحث : الدعـــاء موضوع لسؤال القوي القاهر القادر ، المتصف بصفات الحمد والمجد ، والتفرد بالربوبية ، نريد به : انه بوضع وكيفية ، وهيأة وصورة ، لايفارق بالنظر الى نفسه وحالته البارزة ، وكيفيته المتصورة في حال ظهوره بها : ان يكون لذي الملك والملكوت منصرفاً اليه .

واما بالنظر الى قصد الداعي الذي هو وراء القصد الأول ، الذي هو التوجه ، ومنتحى صورة المسألة : فالمفارقة جاءت من جهته فقط ، لامن حيث ذات الدعاء وصورته ، التي هي بمنزلة الخلقة المشاهدة ، والطبيعة اللازمة .

ومثاله : من صلى ركعتين بركوع وسجود وقيام واعتدال لغير الله ، ذي العزة والجلال . فلا يكون مثل هذا الا لله في الحكم الحق ، وللقضاء اللازم الاتباع ، والرسم الصحيح ، والوضع والهيئة العملية ، لانه لايسمى دعاءً الا ما كان كذلك ، حتى يطرا في خاطر المشرف على كلامنا : خروج نداء الوثني الـهه من ماهية الدعاء ، فلا معنى للقول عليه بأنه دعا غير الله ، ولم يتلبس بدعاء قط .

وهذا جماع الكلام في هذه المسألة ، وضم اطرافه ، وتأليف شعوبه .

فإذا تنقح الوجه في ذلك ، واتضح لك معنى الدعاء وضعاً وشرعاً ، ومالا يصلح ان يكون الا عليه مطلقاً ومنزلاً ، باعتبار الحكم الصحيح ، لاباعتبار قطع النظر عنه ، بل لوحظ الدعاء مطلقا عما ذكر : فدعاء المشركين اوثانهم مما يدخل تحته ، وضلالهم باعتبار خلافهم لمقتضى الوضع والأمر الحكمى ،

المعتبر الصحيح . عرفت – والله يرشدني واياك – :ان ذلك المتكرر ذكره في كتاب الله تعالى ، الدائر في كثير من مدارك الآيات المتلوة : هو ماذكرنا تفسيره ، من ان الاستغاثة ، وسؤال المقاصد ،وطلب المراد، وماأشبه ذلك. فحيث يمدح ويثنى على فاعله: فلوروده على الجهة الصالحة ، وضعاً واستعمالاً، باعتبار الحكم الحق . وحيث يذم ، فلخلوه من موجبات الحمد والثناء ،مع فصل جهة سؤالك من زيد درهما ، ودعوة صالحة ، فتلك قد تكلمنا في انفصالها عما نحن بصدده فيما سلف ، وبيّنّا انها تجري مجرى صَلّ ، وصُم، وتَصَدَّق علينا ، ان الله يجزي المتصدقين ،لاتلتبس بباب الأدعية الدائرة في الكتاب العزيز ، حسنها وقبيحها ، ولم يزد بذكر القوي القادر ، التام الغنى والقدرة ، في شرح معنى الدعاء إلا للاعراب عن كون: تصدق علينا، غير : سلمنا من ظلمة البحر ، وأغثنا من شدة القحط ، وعقم الأرحام ، ومرض الأخلاء ، ومع الله ، وأعينوا ، وياولي الله الغوث ، فإني قد أنخت راحلتي بمشهدك المعظم . وجئتك لكشف هذه النازلة ، او لحصول الربح في تجارتي ، والنصر على عدوي ، وقد أضناني ماترى .فقم بحاجتي ،واجعل سرّك مَنجى لمطلبي ، على الله وعليك ، وسعادة الله وسعادتك ، حسب الله وحسبك ، ياشيخاه ياشيخاه ، الغارة والغوث والمدد ، أجدبت الارض ، وجاع الأهلون ، واضطر البنون ، وكثر الموت في الماشية . فالبدار البدار، ياقطب العارفين . فلك التصرف والتصريف ، والمدد والولاية في تدبير المطلوب ، والوكالة من الوكيل ، ونحن فقراؤك وخدامك .وان قال قائلنا: وعبيدك . فواقع وسائغ صريحا بلا كناية ، ممن لايحصى منا ولا ضير عليه لأنه إخلاص فيك ، وصدق انجذاب إليك ، فهو زيادة في الإصابة والثبوت، وقد طال علينا الأمر ، وأبطأ الفرج ، فمالك عناغافلا ؟وقد كان من أمرنا، ماهو كذا وكذا ، نفصله لك ، ونشكوه اليك ، ومالها إلا أنت – او الاالله

وانت [1] ـ فلا نرجع خائبين ، ولانعود بخفي حنين ، وأنت أنت ، ونحن أضيافك ، وزوارك ، الذين قدرأينا ماصنعته مع فلان،وقد قصدك فيخطبه المدْلهَمّ ، ومع غيره في غير ماقضية ، يستغاث بك فيها ، فمادتك الجميل، ونفعك الجزيل ، وقد قمنا بأداء الواجبات المالية والقلبية التي لاتصحزيارتك إلا بها ، ولايسوغ الوصول اليك الا بتقديمها ، حتى آثرنا السعي الى رحابك والوصول اليك على بر الابوين ، وطاعة الوالدين ، وحملنا اليك من القربان ماقدرنا عليه من الطعام والنقدين ، وغير ماشيء منفروض العين ،وعكفنا على المشهد المقدس بالإجلال ،والتعظيم لك ،والخضوع والوقار ، والانكسار والاطراق ؛ وماتركنا مايجب علينا في هذه الشرعة .فلا تحرمنا برك وجُدْ علينا ، فانك لاترضى بما عرف عنك من واسع الجود والكرم والإحسان الى المحسوبين عليك ان نعامل لديك بالحرمان والقطيعة ،وقد أخلصنا فيك، ولعل قائلهم يقول ايضا : ولم نشرك بك غيرك ، لأن من أشرك فاته المقصود ، والسلام .

فإن حصل لهمماقترحوا . فكرامة الشيخ، وحسن صنائعه، معقاصديه، وبره لوافديه .

وإلا فهناك علل عندهم طويلة الشرح ، وماشرحناه عنهم ـماهو الحقيقة ـ

---

(1) هذا بعض ما يقوم به عباد القبور والانصاب ، والا فلو عاش الى اليوم لراى وسمع ما هو اشنع واقبح من ذلك . وسبحان ربنا رب العالمين ، الذي بيدهملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه يجيب المضطر اذا دعاه ، ويجبر المنكسر اذا لاذ بحماه ، ويغيث الملهوف اذا ناداه ، هو الذي عطاؤه الجميل. لان كل اسمائه وصفاته وافعاله جميل . والخير كله بيديه . والشر ليس اليه (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم . له مافيالسموات ومافي الارض .من ذاالذي يشفع عنده الا باذنه . يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء منعلمه الا بما شاء . وسع كرسيه السموات والارض . ولا يؤوده حفظهما . وهو العلي العظيم)

ترجمة لحالهم وقولهم مع المقابر وأهل الرجوم ، إنما هو قطرة من صنيع من فيه جزء من العقل أبقاه ، والا فقد سافر الكثيرون — او الأكثرون — عن هذا المنزل الى أوحش منه ، كما أسمعناك انموذجاً منه فيما تقدم . فشأنهم هذا وشأن « تصدق علينا ، وادع الله لنا » كبعد السماء عن الارض ، وجهتان : متميزتان غاية مستغنية عن تحرير عبـارة فاصلة بالوضوح والتبيين والتميز الضروري ، والعبارات إنما يؤتى بها للبيان والكشف . فما أعرب عن نفسه . فقد كفى المؤنة ، ودون هذا في نهاية من الظهور والانكشاف . كيف هو ؟ واللابس لإحدى الجهتين بالأخرى احمق من ابن هبنّقة او يحذو حـــذو ذي الودعات يزيد بن مروان ، اذ علق عليـه خرزات ليعرف بها نفسه . فجاء يوماً وقد لبسها أخوه ، فقال : ياأخي ، انت انا ، فمن انا ؟ مثل هذا فاسد الصورة الباطنة مسلوب العقل ، فاقد الإنسانية .

فمطلق الدعاء من غير اعتبار حيثية مخصوصة ، تنتهض لمدحٍ او ذم : هو شامل لقول الرسول واتباعه ، وسالكي سبيله من اهل التوحيد(هب لنامن لدنك ذرية طيبة) «واسْقِ العباد والبهائم » (وانصرناعلى القوم الكافرين) « وافرج عنا مانحن فيه » « واجعل لنا من الشدة مخرجاً » « وقد دعوناك لشفاء مريضنا ، وغيث بلادنا ».

ولدعاء الوثنية معبوداتهم بما بين اللهفي كتابه ، ولوح بهودَلّ عليه ،ولدعاء اهل المقابر بما سردنا من لَف ونشر ،وقصصناه عليك منانباء هؤلاء الناس، كماقص اللهفي كتابه الكريم ،منانباءتلك الامم ،واخبار ذلك العالم بمثلقوله تعالى :(١٠:١٠٦ ولاتــدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك . فإن فعلت فانك اذا من الظـالمين) وقوله (١٧:٥٦ ، ٥٧ قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضرعنكم ولا تحويلا، اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم اقرب ،ويرجون رحمته ،ويخافون عذابه)اي :فكيف تدعونهم ، وهم بهذه المثابة ؟

وهــل ترى انفصالا لقول فقراء الشيخ : أجدبت البــلاد وجاع الأولاد ، ونزلت بنــا النوازل ، ياشيخاه الغــارة والغوث. فإنك محمود الفعال ،صادق الغارات والإغاثات والتفريج ؟

فهل ترى هذا ليس ممــا شملته تراجم هــذه الآية الـكريمة ، ونادت به ؟ أم تجده أدهى وأمر ؟ ومثل قوله (٢٦: ٧٢ ، ٧٣ هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم ، أو يضرون ؟)وقوله تعالى (١٧: ٦٧ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) .

فهــذا تصريح بمعنى الدعاء ، وبيــان لحقيقته ومدلوله ، وإعراب جـلي عن مفهومه ، وما يقصد من لفظه .

وذكر الله تعالى في سورة الكهف ما يعرفك بلا شك – إن شاء الله تعالى – بأن من أطعته في معصية الله فقد اتخذته وليــاً من دون الله تعالى (١٨ : ٥٠ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ؟ وهم لكم عدو) وقوله (١٨: ١٠٣ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دوني أولياء . إنا أعتدنا جهنم للكافرين نــُزُلا) .

وليس المراد بهذا الولاء والولاية : إلا إيثار إشــارته وما هدى إليه ، على ما أرشد الله سبحانه اليه، ودل عليه . فإنا لانرى من أحد منا : أنه يصبو الى الشيطان ، ويحبه بقلبه،ويميل إليه بشوقه وهيامه،وربما لايخطر ببال أحد ممن انهمك في موافقة ارادته ،ولايمر على خيال شخص قد صار شنامن طول عبادته. فعبادته وتوليهعلى مامرّ:هو هذه الموافقة له، فيما هو حرفته .وقصارى تقلبه والكون على مايحاوله منا ويعانيه،من دون أن يكون متخيلا أو متصوراً،أو حاصلا في الخاطر منك صورة منه داعية الى ماتتعلق به النفوس ، وتميل اليه الطباع،وتنجذب اليه الأهواء،حتى تحبه لذلك،وطلعها كأنه رؤوس الشياطين، ان دل على شيء متصور : فهو ما ينفع عنه ، لا مما هو بخلافه .

ومن طاعته في معصية الله : تحليل ماحرم وعكسه ،الذي أشارالى فظاعة شأنه قوله عز من قائل (٣:٥٣ كل الطعام كان حِلا لبني اسرائيل، إلاماحرم اسرائيل على نفسه ، من قبل ان تنزل التوراة ،قل فائتوا بالتوراة فاتلوهاان كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك.فأولئك همالظالمون)
وانتقلْ من آيةالكهف الى قولهتعالى :(١٩:٤٢ ام اتخذوامن دونه أولياء؟ فالله هو الولي) وماجرى مجراه .

ومن ذكر العبادة في محلّ الدعاء :قوله سبحانه وتعالى(١٩:٤٨ وأعتزلكم وماتدعون مندون الله)وقوله(١٩:٤٩ فلمااعتزلهم ومايعبدون من دونالله)

واذا عرفت بصرائح الاستعمال القرآني وماقادتك اليه ، وأخذتْ بيدك حتى أوصلتك اليه ، من معنى الدعـاء وتبينه وانكشافه ، فاجعله موضوع العبادة في ذلك الحديث الشريف « الدعاء ، هو العبادة » كأنـــه على جعل الإفادة بالموضوع لتعيين المنتشر في المنحصر ، والشائع في المتعين ، ومافيــه نوع نقص على الانضباط في الفهم وكال الانسياق اليه ، فيما هو بَيِّن متميز منضبط ، فهواذاً كقولك :الصدق هو النجاة ،والتقوى هي السعادة،وحسن الخلق هو البر ، والبخل هو الهوان ، والكسل هو الإفلاس .

فالموضوع في هذه الأمثلة:هو قاعدة المحمول وأساس بنيانه ، وَأمُّ قُرَى أفقه ، حتى كأنه له شرح وبيان ، كما ان الدعاء للعبادة بهذه المنزلة . فإنه لما كان بكيفية الاضطرار والافتقار الى القوي القهار ، العزيز الغفــار ، وضعاً وضبطاً وَصُنْعاً ، وإبداء الفاقة والاحتياج اليـــه ، وعدم الاستغناء عنه ، مترجماً عن معنى عبد مملوك مربوب ، والمدعو مالكه وربه : كان حينئذ قاعدة أفق العبادة ، ومنتثل كنانتها ، وهذا سرُّ اختصاص الله به ، وعدم استحقاق سواه له ، لتقاضى كيفيته التي وضـــع بها وبرز فيها : أن لايكون إلا لله تعالى الذي هو أهل لما يستوجبه الدعاء ويلزمه : من كون المدعو بالنعت الأكمل ، والوصف الاجمل ، ولله الاسمـــاء الحسنى ،

والداعي ذليل له ، مفتقر اليه، معلق آماله به وعليه ، راجياً للنفع منه حا كما باستحقاقه لجميع ذلك بصنعه الذي ابداه، وتكيفه الذي اتصف به في دعائه إياه.

فالدعاء بوضعه وطبعه وحاصله : كأن يقيم صلاة بتكبير وقراءة وركوع وسجود ، وذكر يتلوه فيها .

فهذه العبادة بكيفيتها موضوعة للرب الأحد الصمد ، السميع القريب المجيب مالك الملك . والدعاء هذا مجراه ، وهذه منزلته .

فدعاء غير الله تعالى : اخراج للدعاء عن محله وموضوعه ، كقيامه بتلك الصلاة على تلك الكيفية للمقبور والحجر ، سواء بسواء . والفصل بين الصلاة والدعاء : فصل بين متآخيين، وتفريق بين الفرقدين، وإلا فليجعلوا للمقبور صلاة وصياماً ونحوهما ، يفارق الذم والتشريك ، ويكون صالحاً خالياً عن الفساد والمنكر ، سبحانك ربنا ، هذا بهتان عظيم .

فما بال الدعاء الذى هو العلم المشهور في العبادة ، وآيات التنزيل — بل هو في الحقيقة بداية الامر ومشرعه ، وقطب رحاه سُلَّ من مركزه، واستنزل من شوامخ صياصيه ، وهو أظهر وأشهر معنىً من العبادة ، وأكثر تنصيصاً وتعييناً ، وبياناً لمعناه في آيات الكتاب منها ؟ ! .

ولذا قلنا : إنه كتركيب : الصدق هو النجاة ، ولعله لايتردد في أرجحية جعله كذلك ، على جعله كالجانب المقابل، المؤذن : بأن عهده الاول هو الثاني وأصل الموضوع هو المحمول ، او بأن الثاني تحقيق الاول ، وبيان حاصله ، وإيضاح مفهومه . كقولك : الحج عرفة ، والكرم هو التقوى ، والبر هو حسن الخلق ، والهوان هو اتباع الهوى .

وأما درجة : العلم هو العمل . فغير ذلك كله لأنك تقول: علمتَ فاعمل، وإنما لما كان هو روح المقصود منه ، والغاية المطلوبة : نُزِّلَت الوسيلة — مع عدم مقصدها — منزلة العدم ، والله وَلِيُّ التوفيق .

وقد حكى الله سبحانه عن عُبَّاد الاوثان، وَعبرَّ عن صنيعهم بأنهم يعكفون للأصنام وعليها، كقوله تعالى: (٢٦ : ٧١ قالوا : نعبد اصناماً، فنَظَلُّ لها عاكفين) (٢٠ : ٩١ لن نبرح عليه عاكفين) (٧ : ١٣٨ يعكفون على اصنام لهم) (٢٠ : ٩٧ وانظر الى إلٰهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً).

ومادة « عَ كَ فَ » فيها معنى الاحتباس، والإقامة، والمرابطة، واللزوم والاستدارة ونحو ذلك.

ولا نرى في هذه الآيات إشعــاراً محصوراً معنىً سوى الاعتكاف، الذي معناه ما علمت، ولا اشارة الى انضمام شيء اليه، او صحبته له، او أن العكوف كان بعمل سواه. إذ الحكم بذلك محتاج الى شاهد صدق.

واي مانع من أن يكون الاحتباس والإقامة، وما اشبه ذلك: عند الاصنام هو مورد القصد في تلك الآيات؟ لأنه بنفسه عمل كالسجود، ولأنه لا دلالة فيه على ما سواه. ولله ما افصحت عنه الفاء في قوله: (فنظل لها عاكفين) وقد فسر بعضهم العكوف بالإقامة على العبادة. فهذا التقييد بالمتعلق المذكور لابد من تصحيحه. وربما يظن أن قوله (٢١ : ٥٢، ٥٣ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين) حجة له ولعله بإفساده اشبه، لكونه أحلَّ العبادة محل العكوف. فهي علته، ولمكان التطابق بين السؤال وجوابه، ولفظ العكوف بمعانيه المارة غَنِيٌّ عن متعلق.

فكيف يقدر له بلا ثبت؟.

وما علمنا حادثة في الإسلام ضاهأت هذه الفتنة بالمقابر، وأين هي مما قص الله عن لوط عليه السلام اذ وعظ قومه في تلك الفاحشة، وهي في الحضيض الأوهد وبالمقام الاسفل بالنسبة الى امر القباب والمشاهد.

وقد نظم الله لوطاً في نذارته بذلك مع اخوانه من الرسل الذين انذروا قومهم في الشرك بالله تعالى. هل علمت فيها ما يشاكل ما عليه أمم سائر الرسل

من عبادة الأوثان ، ودعاء إلـه مع الله ثان ؟ أم ليس فيها إلا ذكر تلك الفاحشة ، وما انضم اليها من قطع السبيل ، وإتيان المنكر في النادي ؟ إن كانا غيرها والا فالتأويل المصرح بأن «تقطعون السبيل» أي بفعلكم الفاحشة بمن يمربكم « وتأتون في ناديكم المنكر » أي فعل الفاحشة بمضكم ببعض قاض بالاتحاد فعاد اليها على التغاير . فكأنها اتبـاع لاقتصاره على ذكرها فقط في بعض المواضع .

فهذه منهم معصية من جنس معاصي البشر . لكنه اقـترن بها الإصرار والتصميم على مخالفة الناصح ، ورد ما حذر به وقام ببلاغـه وإعراض عن الالتفات الى موعظته ، وإيذان بأن ما قاله من قسم الباطل عندهم .

وقصة شعيب في سورة الشعراء مع اصحاب الأيـكة :صرح فيها بذكر إيفاء الكيل والوزن ، وترك البخس والغش والإخسار . وكلها أعمال المأمور به والمنهى عنه . والمقام يفصح عن كون التكذيب في مثل هذا كقصة لوط ، كالتكذيب في اصل الدعوة .

فما شأن من رد واعرض ، او صمم على شيء بالغ في التحذير منه صاحب الكتاب المنزل ، والوحي المبجل ، قائلا : هذا لا حرج فيه ؟ فكيف اذا قال : قضى الله ورسوله بحسنه ، بلا بينة عنده من الله ؟ .

فكيف يسع مؤمنا بالله وكتـابه أن يكون بأولئك المبطلين في شبـه ومضاهاة او مشاكلة ، ولو مع فرق مّا . والقرآن والسنة ينهيان عنه ، كما زعمه من استحسن أبنية القباب والمشاهد ، واتخاذ القبور مساجد .

فوازن بين الأمرين . فبعدأن تطلع على ما سردناه في الباب الثاني . فأنت أنت والله المستعان .

وقد فارق قوم لوط قوم شعيب في الجواب، حيث قال قوم لوط : (٢٦: ٦٧ لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) وقوم شعيب قالوا :(٢٦:١٨٥– ١٨٧ إنما أنت من المسحرين . وما انت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين

فأسقط علينا كِسَفاً من السماء ان كنت من الصادقين) رموه بالتسحير، فالظن المؤكد بأنه كاذب فالشك في صدقه وقد تطوروا في جوابهم هذا على عادة منلم يثبت قدمه على بساط الحقائق اذ قطموا بكونه مسحراً، وهوموذن بالتكذيب الجازم ، ثم نزلوا الى المرتبة الثانية . فالثالثة .

وأما قول شعيب (٢٩ : ٣٦ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر)فذاك مع اهل مدين لا الايكة .

وكلامنا هذا في قصتي لوط وشعيب مبني على أن قوله تعالى(٢٦ : ١٩٠ كذبت قوم لوط) وقوله (٢٦ : ١٧٦ كذب أصحاب الأيكة) واردمورد الحكاية والترجمة لما تضمنه التفصيل وشرحته المحاورة المسطورة فيهما .

وملاك الاحاطة بما حكى الله عن مقاولة الرسل مع قومهم: هو استيعاب المواضع، وتصفح الموارد وإحصاؤها، حيث كانت، من دون قصر الاعتبار مع موضع واحد، إذ قديطوى في بعض مابسط في آخر. وكذا الايجاز مع الاطناب والاشارة والاختصار مع مقابليهما .

فماذكرنا في هذه المواطن منزل هذا التنزيل وموقوف على هذا الاعتبار . وإن أهملنا التنبيه عليه ، وما أوهم الرد على رسل الله وشدة اعتنائهم في دعوة التوحيد او غيرها من افراد احكام شرعهم. وكل بمقامه في حكم الله، كاللياط والبخس في الكيل والوزن ، واتخاذ القبور مساجد. وما اشبه ذلك، وكذا الإحداث في دينهم مالم يأذن به الله من تحليل وتحريم. لأنه استدراك عليهم، واليه الاشارة بقوله : (٣ : ٩٣ : ٩٤ كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) وبقوله (١٠ : ٥٩ قل : أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا . قل : آلله أذن لكم ، ام على الله تفترون ؟) .

وذكر الزمخشري في كشافه في تفسير هذه الآية كلاما أخذ بذاك الحظ من الصواب والاستقامة ، لابأس بايراده بلفظه . قال :

«وكفى بهذه الآية زاجرة زجرا بليغاً عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه ، وان لايقول أحد في شيء : جائز ، اوغير جائز ، الا بعد ايقان واتقان ، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت ، والا فهو مفتر على الله » انتهى .

قلت : ولأمرٍ مّا تواتر عن عدد من أكابر العلماء كلمة « لاأدري » في كثير من المسائل .

والآن خَفّ والله هذا الميزان وتجاسر الأكثرون على هتك حرمة هذا الشأن فقالوا في هذا الباب بما لاأثارة عليه ، أوهي بخلافه ، مالايحصيه ديوان . كأنهم ماسمعوا التحذير والإنذار فيما يتلى من آيات الفرقـــان . وماأحسن ماأرشدك مولاك الى الاعتبار وخصك بــه من التعليم والاستبصار . إذ قرع سمعك بما قال (٢١:٤٢ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله؟) فانها من أشد القوارع الوازعـة عن تحليل او تحريم ، او اعتقاد او تحكيم ، بلا حجة ليوم الدين ولا سلطان مبين . والبدعة داخلة في هذا الباب دخولا أوليا ، او أولويا . ويليه القول بشيء من الدين لوهم فاسد ، او تخيل بارد ، او ظن تخميني ، او قياس باطل .

وضابطه : حسبان يحكم به من دون استثبات وظهور .

وهذا شيء قد عمت بحكاية حمّاه البلوى . خصوصاً من مفرعي المذاهب ، الذين توسعوا في تكثير سواد هذا الباب ، تجدهم يبنون الأساطين والقناطر من مسائل الأحكام على اساس منهار . تنبه .

والاستقراء أصدق شاهد . فانهم قد أكثروا القول في تفاريع الأحكام وتفاصيلها ، وتصنيف المسائل وتنويعها بما يشهد العقل السليم والنظر الحكيم على بعضه بسقوطه واختــلاله ، وأنه ليس على شائبة من استقامة ولاصحة

ولا اعتبار وان بعضه مقضي عليه بالضعف الواضح ، والسقوط اللائح ، وكل قائل في حق من شاء من مخالفيه بأنه قال في هــذا الباب : بشرع لم يأذن به الله .

ولو ذهبنا نتتبع أمثلته ، وماعرفنا أقوالهم فيه : لأتيناعلى مؤلف حافل، ولكنه يعرفه كل من التفت اليه وتصفحه .فلا نطيل بذكر الواضح المتداول، المعلوم لمن رفع نظره اليه .

وهل سلمت فروع شيعى من سنى ، وعكسه مثلا ، أو أمثالا ؟

وهذه أدلتهم وحججهم شاهدة لهم وعليهم ، وماسد الله باب الاستظهار والتحقيق ، والا فكان التكليف بذلك مرتفعاً ، ولازالوا هم أنفسهم دائبين في التصحيح والتضعيف،والتقوية ومقابلها،ماذلك الا لإفادة المرتاد ،ولبيان ان جملة الامرفيها صحة وفساد ، أي : باعتبار التعدد ، لافي فردٍ من المسائل كما لايخفى .

وحاصل الامر : ان مما وضعوه : ماقامت له الحجة، ومنه ماقامت عليه، ومنه مابان سقوط مأخذه ، الذي استند قائله اليه . وربما تجـد أنت حجة ترفعه أو تضعه ، ومنه مالم يستبن سبيله ، والقول به تخمين وجزاف ظن ، وهم يرعمون — أو يزعم لهم ، بتوسيع هذهالدائرة ، وتكثير ذلك السواد — انهم بذلك خدموا الشريعة المطهرة ، وهم إنمـا رموها في الصميم بسهم الرد والتعطيل والاستدراك .

وكيف تصدق دعواهم خدمة الشريعة؟وقد شهدوا هم صريحا علىأنفسهم — وإن كان في حق المخالف — ان ذلك قد تضمن أمرا كبيرا،من تكثيرالنقط، والإسراف في السقط ، والإيغال في الفضول واللغط . فضلا عما قضت بـه البراهين في كل بحث بحث ، ومسألة مسألة ، غالبا ، والأمر لايقبل شيئاً من ذلك ، والقول فيه على ذلك النحو من عدم التثبت، إنما هومهاوي ومهالك.

فإن كنت في شك منهذا فاقرأ مؤلفات الفقه،وأسفارمقالاتهم وتفريعاتهم وتلمح مادللتك عليه ، ومالوح بالتحذير منه قوله تعالى : (٤٢ : ٢١ أم لهم

شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟)وهي أس بحثنا هذا ،ومطلع شمس أنواره .

وخف من قوله تعالى (٤ :٨٢ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وقوله (٤٢ :١٣ أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه) وقوله (٣ : ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا) وقوله (٣ :١٠٥ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)وقوله (٦ :١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء . إنما أمرهم الى الله . ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون).

فإن هذه المذاهب صارت رسوماً ، وأصبحت أثبتَ اعتباراً من رواسي الأدلة وخصوصاً أمهات التحزب ، كمعتزلي أشعرى ، زيدي إمامي ، حنفي ماتريدي ، ومافي معناها ، وصور الأولاد. كحنفي مالكي ، وأماالزيدي، بل وكذا يتلوه الإمامي والخارجي ، فمشترك بين الأم والولـــد ، وتراث مشاع بين فرع ومعتقد .

فما الذي فرق الجماعة ، وبدد الصلاةفي المسجد الحرام—محط رحال الطاعة— وصير القوم عدلية ، وجورية ، وسنية ، وبدعية ؟ والمذاهب نجاة وهلاكا ، أي هكذا على الإجمال والإطلاق . (١١ :١١٨، ١١٩ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك).

وأما على التفصيل : فمن سلم من أيها ؟ اللهم إلا باعتبار الكثرة والقلة إن تحققت ، لابمجرد دعوى .فكل فريق أخـــذ بزمام الدعاوي العريضة في ذلك العراك .

وما الذي صَيَّرَ دين الله وأحكامه طَرَائِقَ قدَدَا ،وكل سبيل ينتحله خلائق يشب عليه الصغير ، ويهرم فيه الكبير ،ويكفّر بخلافه المسلم،اويُرمَى بحالك الابتداع المظلم . وحاصل البرهان في ذلك عند خصمه :هو مخالفته له،لأنه يقول: ماأنا عليه فقد شهدت به البراهين والعقول ،وذاك يقابله بمثله، وكأنهم لم يسمعوا في كتاب الله مثل قوله تعالى (٢٣ :٥٢ ، ٥٣ وان هذه أمتكم أمة واحدة ،

وانا ربكم فاتقون ، فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً، كل حزب بمالديهم فرحون).
أمنت صولتها فيما استقر عليه امر هذه المذاهب ،خصوصاً فيماسموه الأصول،
لانها أسّ التشعب ، وشدة الاختلاف والتفرق في الدين .

أما ماسموه فروعاً ، فزعموا ان الخطب فيها سهل ،ولاتراهم يطردون هذا في كل موضع ، بل يعترفون حيث شاءوا على انها تفرقة لدين الله ،بلاسلطان مبين والله قد جمع في كتابه وجمع رسوله في السنة الامرين ، وساقهما مساق المؤتلف المتزاوج ، وكم من فَرعِيٍ اشهر واجل شأنا من أصليّ ، كما قدمنا ، وهو معروف .

فانظر ماانتهى اليه حال هذه الفرق ، من اهل الدعوة الإسلامية — والله يرشدهم — وتقطعهم امرهم بينهم ، فإنك تجد عجبا من الاختلاف .

فدليل الثبوت في كل طريقة : ما كان عليه سلفه ، اي : لانها السنةعنده؛ ولايحل له مفارقة السنة الى بدعة ، ولايرى لنفسه - بعد ان تقرر عنده حقية مانشأ عليه — ان يعدل عنه الى باطل . حسبما شهد له في الطرفين اربعة : الإلف ، والمنشأ ،والعادات ،والاماني الكاذبة،وزكاهم : الخرص والتخمين، وامضى ذلك حاكم الهوى ، وإحالة الانتقاد .

فبينهم وبين الناصح هذه الخنادق ، ولهذا فرح كُلٌ بما هو عليه والسلامة من مقابله ، وجادل عنهوناضل ، وفاخر وفاضل،وألّفُوا في ذلك الكتب، وسطروه في الزبر ، ورسموه في الصحف ، وقالوا : ههنا النجاة ، والامن والمفاز . وخصمه يعطف عليه قضاءه ، ويصرف فيه ماانفقه عليه بعينه ، ويقول فيه بنفس ماقاله فيه ، كيل الصاع بالصاع ، لان السلعة والحرفة والحاصل متحد .

ولله در التنزيل ، وماجمع من الخير الجزيل ، والتنبيه على ابواب الاعتبار والاستبصار،بذكر احاديث مَنْ قبلنا،الذين مضوا فيدارج الاعصار،ليكون كل إنسان علىبصيرةمن امره.وبالاخص مَنْ ضَنّ بنفسهعنمتالف الاخطار.
فخذ من كل احد ماعنده من الحق ، بعد نقد مااعطاك ، والاعتبار عليه،

حتى تتميز سمينه من هزيله ، وإلافقد خاطرت اشد المخاطرة ، وهيهات النجاة

وكتب المقالات ، وأصول المذاهب وفروعها ، ومجامع الخلافيات ، ومؤلفات الباحثين : ترى من شك او تردد في حرف مما ذكرنا او اراد الاطلاع ، فسيرى اضعافه ايضاً ، حتى ما يصادم ضروريات الدين .

واول سبيل نسلكه للاستعلام والعثور على غرائب الباب : الكتب المؤلفة في علم الاحكام ، وذكر مذاهب الناس وأدلتهم ، فمع صدق النظر ، وصحة الذوق ، وإصابة الإدراك : لست مفتقراً الى تعريف بما هنالك .

ثم تنتقل الى ماوراءها تجد الامر اغرب ، ولا يزال تعجبك يطول تارة في صفة ماتعثر عليه ، وأخرى في تلقيك إياه عمن لايحصى ، وجعله جبلاً راسياً بعلة تأصيل تلك الدعوى المجردة : انه لايكون إلا حقاً ، وان انتقاده ضرب من الممتنعات ، لأنه لا يُنتقد الاما يجوز فيه الاختلال ، ولا ينتقده الا من يجوز وجوده في هذه الازمان ، والمقامان عندهم مقام منع .

والحازم : من لم يقنع بمجرد الانتساب الى الإسلام حَسبُ ، بل ينقب عن معالم دينه من منبعيه الكتاب والسنة بفهمه هو وفقهه ، ويباشر المذاق النظري . فهذه سنة اهل البيت ، والصحابة ، واهل السنة ، والمؤمنين بالله واليوم الآخر ، لانه بذلك يتميز صَفوُ الامر من كدره ، وحلوه من مره ، ولو لم نقل بذلك ، وحكمنا أن السالك على سنة سلفه . والواقف على حكم المنشأ — من اتباع مذهب الآباء — لحسن ظنه ، وامتلاء صدره بهم شوي واستعاظاماً : ناجٍ مرضي ، من دون أن يستوضح امره ، ويستبين لنفسه — لوجب القول بأن تباين هذه الفرق والتضاد في نحلها : لاشيء منه بحائف عن العدل ، ومن يرضى منهم انفسهم بهذا ؟

وقد تحرر — إن شاء الله تعالى — مما تلونا : ان امم الرسل ، الذين بعثوا اليهم ، ونعوا اليهم افعالهم ، واجلبوا عليهم بما كانوا فيه من الجهل والضلال ، اعرضوا عن هدي رسلهم ، واستبدلوا بها اقوال وآراء شيوخهم وعادات وتقاليد آبائهم

وأجدادهم، فكان حاصل مساعيهم :هو التوجه ، والاستشفاع بالأوثان ودعائها كما يدعوالمؤمنون إلـههم الرحمن ، وتوابع ذلك من التطواف حولها ، والمثول بين يديها ، والاحتباس والعكوف في عرصاتها ، وتنويع الاعمال هنالك .

فهل ترى ان الله سبحانه وتعالى قصر النهى عن عبادة سواه في السجود خاصة؟ بل باب العبادة واسع، وأنواعه كثيرة ، وصنوفه لا تدخل تحت الحصر فكل فرد من العبادة داخل في قوله تعالى (١١٧:٥ اعبدوا الله ربي وربكم) وقوله (٢٩ :٥٦ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) وقوله(١١ :٢ ان لا تعبدوا إلا الله).

وحقق في هذا المقام طاعتك لغير مولاك الكريم : لمن انت تعرفها، وتتعبد بها ؟ وهي التي اشار اليها ربك بقوله :(١٩ : ٤٤ يا ابت لا تعبدالشيطان. ان الشيطان كان للرحمن عصيا) وقوله (٣٦ : ٦ لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) وقوله (٤٥ : ٢٣ أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه)وقوله (٩ :٣١ اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله) وما علمنا احداً من البشر اتخذ صورة حسية او خيالية من شيطان او هوى . فسجد لها .

واما الطاعة فيما يدعوه اليه ، والموافقة له في امره ، والتكيف بما يسعى لحصوله، ويكدح في تحصيله، ويَدأبُ للاتصاف به ، والكون عليه، ويحرص من بين العباد على ابرازه في عالم الإيجاد فامره غنيٌ عن الإظهار والإشهار ، وهو المعلوم وقوعه منهم على سبيل الرضا به ، والمحبة له ، والتدين والانقياد الإيثاري ، والميل الاختياري ، وجعلهم له نصيباً مفروضاً : من نفسٍ ؛ او عملٍ، او مال .

واماالمؤمنون بالله : فيتسخطون ماليس لله ،ويكرهونه ،وتنفرعنه اديانهم وتمقته قلوبهم ،ويحاربونه بكل قوتهم. ولا يرضون إلا قوله صلى الله عليه وسلم « لايؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » وإن حدث بأحدهم لَمَّة البشرية، وزلة إثمية . أتظنهم كالذين فرحوا بما عندهم من العلم، فاذا انقلبوا الى

أهلهم انقلبوا فكهين ؟ ام تجد نعتهم الجميل في قول ربهم الجليل(٧ : ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) وفي قول رسولهم صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَرَّتْه حسنتُه، وساءته سيئته . فهو مؤمن » ؟ .

وبالجملة : فالحصول على الكيفية التي هي مرمى سعى الشيطان فينا ، ومرام طلبه منا ، مع الرضا به ، والتدين والاختيار القلبي ، والإذعان والانقياد له فهو الذى علمنا عليه اقوام الضلالة ، واخوان التقليد الأعمى والجهالة ، من غير اشتراط حصول أمرٍ مطاعٍ ، وداعٍ متصور . ذهناً او خارجاً ، وإلقاء الشيطان معاني في خواطرهم ، هي دعوته إياهم ، وامره لهم ، والانفعال لها هو طاعته وإجابته ، فإن كثيرا منهم لا يتصور داعياً له ، الى ما هو عليه من الغي والفساد البتة ، بل تلك المعاني تجول في خاطره ، وتتردد في صدره ، وبحسبها ينفعل وينقاد ويرضى ، ويختار ويتدين ، وهذا هو عبادته من دون الله .

وأنت ـ بالضرورة ـ تعلم الفرق بين من يعبد الله ، ومن يعبد الشيطان ، وأن الاول : يعتقد داعياً للعباد ، آمراً ناهياً مُثِيباً مُعَاقِباً معلوماً متميزاً عن الاغيار بآياتٍ ودلالات ، وأسماءٍ ونعوتٍ وصفات ، دون الثاني ، فربما لا يخطر له معبوده بحال . لا باسمٍ ولا صفةٍ ولا ذاتٍ ، ولا دعوةٍ ولا امرٍ ولا نهيٍ . وليس عنده إلا معان منفصلة عن مصدرها ، غير مرتبطة بمؤثرٍ ، أو دالٍّ لا معلوم ، ولا موهوم .

ولولا إعلام الله عباده بالشيطان وفعله وحرفته . هل كانو مطلقاً يعلمون شيئاً من ذلك؟ مع أن الموافقة له والتحقق بمرمى سعيه ، ومنتهى طلبه : أمرٌ متحصل قائم في القديم والحديث ، حتى إن المطيع للشيطان ـ وقد علمه ـ والعامل بأمر يوافقه ويرضاه ، ربما لا يستشعره اصلا حينئذ ، مع علمه بأنه يدعو الى ما عمل ، ويحرص عليه ، ولكن كان إقدامه على ما يرضاه منه ، ومقارفته لما يحاول الكون عليه ، ويزاول ابن آدم في التلوث به : منفصلا عن ملاحظته بَتَّةً .

فالإقدام والمقارفة يكونان انفعالاً عن ارتسام تلك المعانى ، التى يلقيها الشيطان ، ويحيلها في الخاطر من دون استشعار الملقيِ ، والشعور بمدبرها ، وخطوره في الخيال والملاحظة .

بل يعتبر المقدم والمقارف : أنه في ذلك التكييف ساعٍ لله ، ومبادرٌ إلى مرضاته (١٨ : ١٠٤ قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعًا) (٢٣:٥٥، ٥٦ أيحسبون أنّ ماتمدهم به من مالٍ وبنين ، نسارع لهم في الخيرات ؟ بل لا يشعرون) .

وكذا — أو قريب منه — الهوى والأحبار، زِنْ هذين بما قبلها ، ولا تقل : إن الأحبار والرهبان أمْرٌ عند المطيع لهم معلوم محسوس. فكيف يتصور عدم الشعور بهم ؟ لأن العابد لله في نيته وقصده ، على صورة نهى الله عنها ، وأمر الأحبار بها: هو في ذلك غير جار على عمله لهم، ولا مضيف عبادته لحبره وراهبه، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم في حديث الترمذى « والله ماعبدوهم» إنما غايته :انفعل عن دلالته وإضلاله له ، حيث كان معنى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً) أى : بطاعتهم في تحليل حرام ، أوتحريم حلال، كما أشار إليه حديث الترمذى وحسنه، وفي خصوص سنده عنده مقال — وإن كان معناه غير ماذكرنا — فهو محتاج في إخراجه عن أن يكون شركاً إلى تقرير: أن التدين بطاعة غير الله في فعل ماحرمه، واجتناب ما أحله: ليس تنديداً له، وهلم الحجة فيه إن كنت من الصادقين .

وإلا فالتفسير المرفوع عند الترمذى مشدود الإطلاق بما لا يخفي على مميز . (٥ : ٤٤ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) .

وما سبق ذكره، من أن المصورين لصالحيهم ، ثم المسندين عباداتهم إلى تلك الصور والمضيفيها لها : لا شك في كون اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً أمراً

اوضح وابين من طواغيتهم المشار اليها [1] .

وقد عرفت ان معنى «الدعاء» مفهوم معقول ، لالبس فيه ، وان وضع الدعاء بحال :يقتضي ان يكون به من خاص حق الله ؛ ولذا اطلق الرسل إذْ وعظوا اقوامهم– لَفْظ «الدعاء»عن شرح وتقييد ،وإضافة بيان لمعناه.

وأمَّا مادة « عَ بَ دَ » ففيها معنى الخضوع والذلة والطاعة .

واقتصر على تفسيرها بالأخير : مَنْ شاء الله من أعلام الباحثين ، وكأنه على إمكان ردّ الاولين اليه .

وعلى ان حاصل (لاتعبدوا الشيطان) هو ذاك .حيث كان المعنى لاتطيعوه فيما امركم ، وتستجيبوا له إذا دعاكم .

وحاصل : (افرايت من اتخذ إلهه هواه) و (اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرْبَاباً من دون الله) اي : والمعنى : اطاعوهم فيما امروا فيه بخلاف حكم الله تعالى ، كما يشير اليه . او أعمّ منه ايضاً : قوله تعالى : (ام لهم شركاء ، شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟).

ولادَخْلَ في هذا ، لقوله تعالى : (٢: ٣٤ اسجدوا لآدم) (١٢: ١٠٠ وخَرُّوا له سجدا)وقوله تعالى(٤٨: ٩وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوه ،وتُسَبِّحُوهُ ، بُكْرَةً وأصيلا)(٤٩ : ٢ لاتَرْفَعُوا اصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، ولاتَجْهَرُوا له بالقولِ ، كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لبعض)وقوله تعالى (١٧: ٢٤ واخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرَّحْمَةِ)وقوله صلى الله عليه وسلم «ليس مِنَّا مَنْ لم يُجِلُّ كَبِيرَنَا » وقوله تعالى : (٥: ٥٤ أذِلَّةٍ على

[1] ان اتخاذ الاحبار والرهبان اربابا : انما كان نتيجة مخالفة الدين المشروع من عند الله والاختلاف فيه ، فيوحي الشيطان بتعظيم أولئك الاحبار باسم العلم والتبحر فيه ،وبتعظيم وتقديس الرهبان ، باسم العبادة والعمل والاجتهاد فيه ، ثم يوحي الى أوليائه بتركيز النظر من كل طائفة الى مقدسها حتى تقوم الحجب الكثيفة بين قلوبهم وبين هداية الدين الحق ونوره ، فيوقعهم الشيطان بعد ذلك فيما شاء من وثنية وافتراء كذب على الله وفسوق وعصيان .

المؤمنين أعِزّة على الكافرين) .

إذْ هذا الاخير كقوله تعالى : (٤٨: ٢٩ رُحَمَاءُ بينهم) كما ان قوله تعالى: (٥: ٥٤ أَعِزَّةٍ على الكافرين) لايكون من النزاع في رداء الكبرياء وإزار العظمة .

وكل ماذكرنا فيما لانراه سواه جارٍ مَجْرَى : أطِعْ أباك ، وأكرم ضيفك وجارك ، ليس منه شيء على معنى قوله تعالى (١٠٨: ٢ فَصَلّ لربّك وانْحَرْ) وقوله (٤١: ٣٧ واسجدوا لله الذي خلقهن ، ان كنتم اياه تعبدون) سيَّمَا اذا فُسِّرَ السجود في قوله (فاسجدوا لآدم) وفي قوله تعالى (وخروا له سجداً) بالانحناء ، تحية له ، والانحناء للتحية في شرعنا فيه : ماأخرجه الترمذي ، ولا أعلم غيره . لكن في سنده مافيه .

والحاصل : ان كل ذلك – فيما نراه – ظاهرٌ مبين ، جارٍ مجرى الإكرام ومَحَاسِنِ التآخي ، واعطاء الحق لمن جعل الله له عليك حقا « ان لنفسك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً » و« اذا مَرِضَ فعُدْه ، واذا مات فاتْبع جنازته » .

والمعنى التعبدي عن هذا بناحية ومنفصل ، مع عدم تيقن الوضع اللازم بالرغبة ، والرهبة ، والرجاء ، والخوف ، وصلاحية المقصود ، وأهليته للضر والنفع وتوجيه العمل بالقصد ، والإضافة له واليه .

فالسجود المذكور : هو طاعة لله تعالى ، وامتثالٌ لأمره ، وهو سبحانه وتعالى المجعول له ذلك السجود ، وهو المقصود به ، من حيث الانقياد لأمره ، وان كان اكراماً او غيره لغيره ، وان اتّحَدَ ماله مع مافرضه لغيره ، وهو بالآخرة له في الصورة والبروز ، كمشيك للصلاة المكتوبة ، ومشيك للعبادة المشروعة ، كل منهما منفصل عن الآخر بالقصد والاعتبار والحقيقة ، متعقل الانفراد عنه صِدْقاً ومَذَاقاً . فلانطيل فيه بما هو مركوز في معالم الضرورة ، ولاهنا قطع أيضاً

في هذا الباب بكيفيةٍ وضعيةٍ ، طبعيةٍ لازمةٍ ،مانعةٍ للتصريف والتغيير – كما قد شرحنا ذلك – مكرراً ذلك في الدعاء [1]. بل هذا الباب قابل للتحويل القصدي ، على أنه لو تُعُبِّدَ به غير الله . فشرك بلا شكٍّ ومِرْيَة .

وقد تضمن ماسنمليه – ان شاء الله – عليك : ماتأخذ منه تسميةَ هذه الاعمال الظاهرة عبادة .

فمن ذلك : حديث « يَاابْنَ آدم ، تَفَرغْ لعبادتي » عند الترمذي ، وقال ، حسن . والحاكم . وقال : صحيح الإسناد ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي في « كتاب الزهد » .

ومن ذلك : حديث مسلم والترمذي وابن ماجه « العبادة في الهرج ، كهجرة اليَّ » .

ومن ذلك : ماذكر الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرطهما .

قلت : والكشف عن تصحيحه ممكن ، لتساهله رحمه الله – عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما « أنَّ رجلا قال: يارسولَ الله ، إني أقف الموقف ، أُريدُ وَجْهَ الله ، وأريد : ان يُرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، حتى نزلت (١٨ : ١١٠ فَمَنْ كان يَرْجُو لقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ، ولايشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أحَداً) » .

وَلاَ تَمْرُرْ على هذا ، وأنت في غفلة عما يُراد بك وكُلِّفْتَهُ . بصرك الله رُشْدَكَ وعلمك .

وبالجملة : فَكَوْنُ الْعَمَلِ عبادةً ، لايحتاج – فيما أخال – مَزِيدَ إيضاحٍ ، فمن

---

[1] اي في باب سجود الملائكة لادم – والسجود في لسان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم : هو منتهى الخضوع والانقياد . فسجود الملائكة هو : انقيادهم بامر الله وتسخيره لادم وبنيه في تدبير امورهم ، بما ينزل لهم ربهم من الارزاق والاجال والوحي وغيرها ، ومايصعدون به منهم الى ربهم متعاقبين في الليل والنهار .

حَلَقَ ، او طاف ، اوصلى ، او صام ، او سافر ، او اعتكف وحبس نفسه . وقرّب القرابين ، او زاول وعالجَ أيَّ فعل : كان مُتَعَبِّداً بذلك لغير الله فلا شك هو من إخوان الشياطين ، ومَرَدَةِ الكفار والمشركين .

ولانعلم كبيرَ معنىً للشرك – إذْ نعاه الله الى أهله – سوى : باب العمل لغيره ، والدعاء لسواه ، ومايستتبعان او ينشأ عنهما ، وان كان العمل للأوثان : لم يقع إلا للاستشفاع ، لاللاستحقاق بالذات ، كما هو صريح (٣٩ : ٣ مانعبدهم إلاَّ لِيُقَرِّبُونا الى الله زُلْفَى) .

فالقصد الثاني – وهو التوسل – غير نافع مع القصد الاول ، وهو ارادة السوى بالعمل ، وجعله له ، واضافته اليه ، وتوجيهه له ، إذْ هذا فرق مِن وراء الجمع .

وهل يستطاع بحجة واضحة ان يمانعنا بشرٌ : ان «ياوليَّ الله افعل» من هذا القبيل ، كالصلاة له سواء ؟ إذ الوضع واحد ، كما شرحناه ، حتى ان المشركين أهلَ الأوثان تجدهم - في بعض الاحوال – أقربَ حالاً ، وأخفَّ من عباد القبور مجالاً ، فانظر ماحكاه الله تعالى عنهم بقوله سبحانه (١٧ : ٦٧ واذا مسكم الضُّرُّ في البحر . ضَلَّ مَنْ تدعون إلا إياه) وقوله تعالى (٢٩ : ٦٥ فإذا ركبوا في الفلك دَعَـوُا الله ، مخلصين له الدين . فلما نجاهم الى البـر اذاهم يشركون) أترى أصحابَ المقابر يرضون بتفريد الحميد المجيد ، عن الشاذلي والرفاعي ، وشاويش الحضرة والحداد ، والجيلاني ؟ كلا والله ، بل يفرغون التوجه الى الجهتين في قالبٍ واحدٍ ، بل هم الى جهة أوليائهم وأندادهم اشدانصرافاً .

ولقد روى الإمام ابو عيسى الترمذي – رحمـــه الله – في تفسير سورة الذاريات ، من جامعه بسند جيد ، قوي كالشمس ، عن رجل من ربيعة – وهو الحارث بن يزيد البكري – قال «قدمت المدينـة . فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذُكِرَتْ عنده : وَافِدُ عاد ، قال : فقلت : أعوذ بالله ان أكون مثل وافدِ عاد ، قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : وماوافدُ عاد ؟ قال :

فقلت : على الخبير سقطت . إن عاداً لما أقحطت . بعثت َقيْلا، فنزل على بكرِ ابن معاوية ، فسقاه الخمر ، وَغَنَّتْه الجرادتان ، ثم خرج يريد: جبال مهرة ، فقال : اللهم إني لم آتك لمريض َفأُدَاوِيَه ، ولا لأسيرٍ فأُفَادِيه ، فاسق عبدك ما كنت ُمسْقِيه ، واسق معه بكر َبن معاوية ـ يشكر له الخمر ، التي سقاه ـ الحديث » . وفي آية (فإذا ركبوا في الفلك . دعوا الله مخلصين له الدين) وآية (٤٠ : ١٤ فادعوا الله مخلصين له الدين) وآية (٣١: ٣٢ واذا غشيهم موج كالظلل َدَعوُا الله مخلصين له الدين) وغيرها : تسمية الدعاء ديناً ، ودعاء غيره شركا .

ومن زعم أن المشركين لايدعونه تعالى، او انهم يشركون به في الدعاء احداً عند الشدائد. فقوله من افسد القول ، وأقبح الغلط ، فكم هتف عباد المقابر بدعاء شيخ الولاية عند التطام الموج بالفلك ، والحال : أن هذه حالة تنسى غيره تعالى ، كما حكى عمن هو غريق في الضلالة بقوله تعالى (٣٠ : ٣٣ ، ٣٤؛ وإذا َمسّ النّاسَ ُضرٌ َدعوْا َربَّهم ، ُمنِيبِيْنَ اليه، ثم اذا أذَاقَهمْ منه َرحْمَةً اذا فريقٌ منهم بربهم يشركون، لِيَكْفُرُوا بما آتيناهم) وَمَسُ الضُّرّ : أعَمُّ من غشيان الموج ، وإذاقةُ الرحمة : أعم من النجاة الى البر ، وعباد المقابر اذا مسهم الضر : نادوها واذا مستهم الرحمة : نسوا ربهم ولم ينسوها ، وكيف ينسونها ؟ وهي كرامتهم وبها نجوا: اما باستقلال وساطتها وتصرفها واما للإرادة الالـٰهية بزعمهم الفاسد : اما ابتداءً او مصاحبةً ، لتأثير اقتراح الواسطة ، كما لعلته المركبة ، أو بأي الاعتبارات السابق ذكرها ، اذ المقام صالح لجميع ذلك ، وهم يذكرون هذا صريحاً .

واهل التوحيد إنما يدعون الله وحده ، لايشركون به شيئاً ، في كل شدة وُضرٍّ ، فاذا نجاهم شكروه وحمدوه ، من دون أن يداخلهم بذلك غرور يزعمون به أنه كرامة . بل هم يؤمنون أن كل نعم ربهم عليهم امتحان وفتنة . كما قال ربهم في كتابه ، واهل الاوثان يخلصون عند تلك الشدائد ، فلما نجاهم الى البر : اذا هم يشركون .

تأمل ذكر الإخلاص والشرك في هذا المقام ، وبماذا وقعا وتحققا ؟ أبمثل :

ياالله برحمتك ، ام بغيره ؟ فتدبره ان كنت في التثقيف الفرقاني ذا شغف.
والكرامات لها بحث يليق بها قدراً ومحلاً، وحدًّا تقف عليه لاتتجاوزه الى حمى التوحيـد (٧ : ٢٩ وادْعُوه ، مخلصين له الدين) (٤٠ : ٦٥ هو الحي لا إله الاهو ،فادعوه مخلصين له الدين) (٩٨ : ٥ وما امروا الا ليعبدوا الله، مخلصين له الدين) (٣٩ : ٣ فاعبدالله مُخْلِصاً لهالدين،ألالله الدين الخالص).

فهذا ما امـر الله به سبحـانه وتعالى وارسل به رسله ودعا اليه عباده ، وحذرهم أن يكونوا كظالم نفسه ، الذي قال الله فيـه (٣٩ : ٨واذا مَسَّ الانسان ضر دعـا ربه منيباً اليه ، ثم اذا خَوَّلَهُ نعمةً منه نَسِيَ ما كان يدعو اليه من قبل ، وجعل لله انداداً ليضل عن سبيله ، قل : تمتع بكفرك قليلا ، انك من اصحاب النار) .

وتأمل ، هل تراه عنى بالنسيان هنا : رَفْضَ الاخلاصِ الى الاشراك،كما في قوله تعالى: (٢٩ : ٦٥ فلما نجاهم الى البَرّ اذا هم يشركون)وقوله تعالى: (٣٠ : ٣٣ اذا فريق منهم بربهم يشركون) وكما يلوح به قوله تعالى:(وجعل لله أنداداً) ؟ فإنه شبيه بتركيب (١٠ : ١٢ واذا مَسَّ الإنسان الضر دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً ، فلما كشفنا عنه ضُرَّه مَرَّ ، كأن لم يَدْعُنَا الى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كذلك زُين للمسرفين ما كانوا يعملون) .

أم ترى معنى الكل : أنه لا يعمل بمقتضى اخـلاص الدعـاء لله عند مَسِّ الضُّرِّ ، لأنه يقتضي التوحيد ، وعـدم التنديد ، بأي طريق ؟ وما هناك هو كل الانفصال بين البحثين .

وَمَن لم يفهم المقاصد — مع هذا التنويع والتلوين للعبادات ، ودورانها في تلك المقامات، على تقريرٍ فردٍ ، وحاصلٍ مُتَّحِد — فأنَّى لهدرك الحقائق ؟

اذا عرفت هذا . فوازن بين صنيع عباد المقابر ، وما كان عليه تلك الأمم الغوابر ، بحس شاهد ، وفكرصادق وقلب حاضر ، وأنت أنت بعد ذلك .

فالله الحكمُ القدير المالك ، الذي إياه ندعو ونعبد ، واليــه نسعى ونحفِد ، ولا نشرك به في ذلك بانتحال كُفُوٍ ولا ند .

وقد مرت الإشــارة : أنه لا يشترط في التنديد : أن ينتحل للسوى من الصفات والأسمــاء والافعال ما يختص به الحميد المجيد ، بل هو أن تتكيف لذلك السوى بكيفية العابدية ، وتتحقق أنت له بصفة المربوبية ، وتقضي له بحالتك التي صنعتها ، وصورة نعتك في عبادتك اياه فقطبأنه يَربُك ويُربِّيك: فتعمل له ، وتتأله وتتعبد ، وتسعى في العمل له وتردد ، من دون أن تقول: ذا خالقي ورازقي ، وله طريفي وتالدي ، وما ملكت يــداي ، ومالك امري ، وحياتي وموتي ، ومنزل الامطـــار ، ومجري الانهار ، ومرسي الشوامخ ، ومنشيء الارواح النوافخ :

ولذلك لما فسر الزمخشري في « كشافه » الندّ : بالمثل المناوىء المخــالف - والعلمُ شــاهد : بأن المشركين ما كانوا يعترفون لأوثانهم بهذا التوصيف ، ولا كانت عندهم بهذا النعت والتعريف - استشعر شيئاً من هـــذا المعنى ، لوروده على ما ذكر من تفسير الند ، وأجاب عنه ، فقال :

فإن قلت : كانوا يسمون أصنامهم باسمه ، ويعظمونها بما يُعَظَّـم به من أنواع القُـرَب ، وما كانوا يزعمون : أنها تخالف الله وتناوئه ؟

قلت : لما تقربوا اليها ، وعظموها وَسمَّوْها آ لهة . اشبهت حالهم حالَ مَنْ يعتقد أنها آ لهـة مثله ، قادرة على مخالفته ومضادته - الى آخر كلامه .

والذي هدت اليه ضرورة التمييز ، وصدق الادراك ، وتطابقت عليه الدلائل ، والاخبار الكثيرة الصادقة ، واستقراء حقائق الاحوال : أن عامة شرك الوثنيين ، هو جعلهم للأغيار حظ الربوبية في الاعمال ، من دون مجاذبة القوي القاهر سلطانه وعزه وكبرياءه ، ومعاني أسمائه الحسنى ، وصفاته العُلىَ .

وهل علمت احـــدا من رسل الله - عليهم اجمعين صلوات الله وسلامه - وعظ قومه : في انهم جعلوا مع الله خالقا ، اورازقا ، اومحييا ، اومميتا مثلا؟

ام العلمُ قاضٍ بصدق الحاكي : انهم اذا سئلوا :من خلق السموات والارض؟ من يرزقكم من السموات والارض ؟ لقالوا : الله ، وان الموعظة منصرفة الى ترديهم بتلك الاوصاف الصادرة منهم ،والتوجه ببذلها لغير خالقهم ، وسوى فاطرهم وبارئهم من الميت اللاحق بالعدم ، اما قوله عمن حاج إبراهيم في ربه : (٢ : ٢٥٨ انا أحيي وأميت) وعن فرعون (٧٩: ٢٤ أنا ربكم الأعلى) فإنه فردٌ منصوص عليه ، جاوز طور عامة مَنْ كفر بالله ، الى مبالغ الفحش ، ومحط رحال العموم ، والاغلبية هو الاول (٤ : ١٢٥ ومَنْ أحسن دينا ممن اسلم وجهه لله ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ؟) (٣٩ : ٢٩ ضرب الله مثلا : رجلاً فيه شركاءُ مُتَشَاكِسُون ، ورجلاً سَلَماً لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟) (٣٠ : ٢٨ ضرب لكم مثلا من انفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ؟ فأنتم فيه سواء) .

وأما قولهم : (٣٨ : ٥ اجعل الآلهة : إلهاً واحد ؟) فالمراد : خاصة او ضما ، لانبعاث الأسماء عن المعاني ، التي تلتزمها بضرورة امرها : فيما كانوا عليه من تشريك ما يملكه الله وما ملك [١]

وكذا قوله تعالى: (٧: ١٨٠ وذَرُوا الذين يلحدون في أسمائه) أي : يميلون عن الصواب فيها ، فيسمون غيره رباً وإلهاً ومعبوداً ، لأن ذلك معنى سجودهم لها ،وتقريبهم القرابين ،والتوجه نحوها بالعبادة باسم الشفاعة والتقريب

«١» لقد كانت قريش تفهم معنى كلمة « اله » وتعرف أن معناها غير معنى كلمة « رب » فالاله : هو المعظم المقدس بأنواع التعظيم والتقديس والولاية له ، واتخاذه وليا ، كماشرح الله ذلك أوضح شرح في كتابه . وأما « الرب » فهو السيد المالك المربي بخلقه ورزقه ونعمه نهم لذلك كانوا يوحدون في الربوبية ، ويتخذون الشركاء في الالهية . ومن ثم استنكروا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى توحيد العبادة والالهية . وكانوا يقولون في تلبيتهم «لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك تملكه وما ملك » . والله أعلم .

زلفي ، والاسم كالتابع ، والفرع الملزوم المتولد عن المعنى، اذ بتحقق هذا ـ ان شاء الله تعالى ــ هو الذي لاتحقق سواه . وان اعتبرت الاسم، واستطردته في هذه المقامات ، وجعلت تلك المعاني لاغية ، من تحصيل الشرك ، مالم ترتبط بالاسماء ، فتحصله حينئذ. فانظر ما نقول ، فلا اخالك ترضاه فإنك تعري كل فعل خلاعن هذا الاسم عن أن يكون شركا ، ويمنع من أن يكون جميع العبادات الشرعية ، اذا صرفت لغير الله وقصد بها التعبد لسواه ، مع السكوت عن تسمية الغير والسوى باسم الإله ــ شركا به تعالى ، وهذا بمجرده مغن عن الكلام عليه .

وأما القائل :(أناأحيي وأميت ــ أنا ربكم الأعلى) فمنازع مجاذب .

وههنا تلخيص سديد ، فألق سمعك وانت شهيد ، وهو ان دين الله الذي ارتضاه للعباد : هو الاسلام ، بما اشتمل عليه من الشرائع والاحكام ، ومعالم الواجب والحلال والحرام . فندعوه سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وحده ، مخلصين له الدين ، ونؤمن بما امر بالإيمان به ونقف على حكمه فيما نأتي ونذر، لا نجعل لسواه فينا حكما ولا امراً ، ولاحظاً من مربوبيتنا ذاتاً ولا افعالاً، ونكون فيما ندين به : من اعتقاد ، او عمل ، مسلمين ذلك من انفسنا له ، مذعنين لقضائه ، راضين به مختارين له (٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله) وكل هذا في العبادات ظاهر .

وأما المعاملات : فهي متوقفة على تحليل وتحريم، وفعلُ الحلال،واجتنابُ الحرام : عبادة ، لقوله تعالى (٢ :١٦٨،١٦٩ يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالاً طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله مالا تعلمون) وقوله (٥:٨٧ ياايها الذين آمنوا، لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وقوله (٧:٣٢ قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق) وقوله (٧:٣١ وكلوا واشربوا) وشبههن.

ولأنك تقول : أحل الله لي البيع . ففعلت ، ففزعتَ الى حكم ربك ، ومجرد التحكيم في ذلك عبادة ، كالقول بالحكم ،ولا يقصد بالإحلال إلا ثمرته من التعبد به ، الذى منه : العمل به استناداً .

اللهم إلاّ أن يقال : العمل في هذه الجهة منفصل عن الحكم . وليس من لازم عبادية الحكم عبادية العمل، وغايته : أن الإذن في شيء ، لا يستلزم ملاحظـة حصوله ، ولكنه جـاء في الحديث الصحيح « وفي بُضْع أحدكم صدقة ، قيل : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ، ويكون له أجر ؟ قال : أرأيتم : لو وضعها في حرام ، أكان عليه وِزْرٌ ؟ » .

ولعل أظهر من ذلك كله « إن الله يحب : أن تؤتى رخصه » حيث يكون المراد بالرخصة : الحلال مطلقاً ، لا بقيد كونه بعد عزيمة .

وأما العلم بحكم البراءة والتعبدية : فله اتصال بما نص الشارع على حله ، من حيث كونه سكت عنه ، « وسكتَ عن اشياء رحمة لكم – غير نسيان – فلا تبحثوا عنها » أو لم يكلفنا ماليس في وسعنـا (٢٣ : ٦٢ لا نكلف نفسا إلا وسعها) ؟ او لقوله سبحانه : (٢ : ٢٩ خلق لكم مافي الارض جميعاً) فيما تناوله ، او لكون الآمر الناهى اذا عين مشخصات امره ونهيه كان ذكر المعين – أي بمقامه – حجة على أن مـا سواه لا يتعلق به اعتبـار فعل ، او ترك ، ولا قصـــد إيجاد او إعـدام (١٩ : ٦٤ وما كان ربكَ نسيًّا) او لنحو (٥ : ١٠٣ ما جعل الله من َبحيرة ولا سائبة – الآية) ؟ .

او لكون ما كان من هـذا القبيل ، هو غير ما يتدين به . إذ لو صار بهذه الحيثية عاد من باب البحيرة .

او يقال : إن حكم البراءة مفروض، غير موجود، لنحو قوله تعالى (٤ : ٢٤ وأُحِلّ لكم ما وراء ذلكم) وقوله (٢ : ٢٧٥ واحل الله البيع) وقوله (٢ : ٢٩ هو الذى خلق لكم مافي الأرض جميعاً)وقول النبي صلى الله عليه وسلم«ما أنزل

الله في الخمر شيئا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة » وقوله « لوحدث في الصلاة شيء لأخبرتكم » «وسكت عن أشياء رحمة بكم ».

وحاصله : ان حكم البراءة ان وقف في الاعتبار والقصد ، على رسم مخصوص : من فعل أو ترك ، بحيث يكون مثالا متبعاً ، لاتجوز مخالفته . صار ديناً ، كذات أنواط ، اذ لو علقوا سلاحهم ، لابذلك القصد والاعتبار والرسم المتبع العادي المتروك المخالفة ما كانوا ظالمين ،ولا كان لجواب السائل، اذ قال : « اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط » بجملة « لتكونن كمن قال اجعل لنا إلها ، كما لهم آلهة» مقتضى اصلا .

بل وبالنظر الى قصة ذات انواط — مع التأمل —ربما يظهر لك :انقولنا: لاتجوز مخالفته . انما هو لبيان القدر المتيقن ، والا فلعل مجرد الالتزام العملي العادي كاف من دون حكم بمنع المخالفة .فتنبه .

والمراد بقوله تعالى : (١٨٠:٧ فادعوه بها) اي : ولو من غير احاطة ، لقوله تعالى : (١١٠:١٧ قل : ادعوا الله ، او ادعوا الرحمن ، أيّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ولأنه تعالى يتعرف الى عباده ببعض أسمائه وصفاته ، التي يتميز بها عن الاغيار (٢١:٢ ياأيها الناس ، اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم)(١٢٢:٢٦ - ١٢٤ واتقوا الذي أمَدّكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون) (٢٦ : ١٨٤ واتقوا الذي خلقكم والجِبِلّة الاولين).

وكذا ماتضمنته محاورة موسى مع فرعون ومَلَئِه ، بل ايمان السحرة من أبين البينات في هذا البحث . فإنه لاعن احاطة بما يجب ويجوز ، ويمتنع في حقه سبحانه وتعالى ، بل صدقوا بما بلغهم ، وهو بعض ضرورة .

ومن هنا تعرف الجواب ان شاء الله تعالى عن قصة الذي أمر بنيه : ان يحرقوه ويذروه في الرياح ، او في البحر .

ومن هذا: قصة الخليل ابراهيم عليه السلام، المشروحة في آيات (٦: ٧٦–٨٣ فلما جن عليه الليل – الآيات).

ومنه : حديث ضمام بن ثعلبة ، وحديث الدعاء الذي رواه ابن مسعود . وفيه « او استأثرت به في علم الغيب عندك » .

وما كان المشركون يجهلون جميع ماالله تعـــالى من الأسماء ، والصفات ، والافعال التي اختص بها ، لآيات (٢٩: ٦١، ٢٩، ٦٣، ٤٣، ٨٧، ٣١: ٢٥، ٣٩: ٣٨، ٤٣: ٩، ٤٣: ٨٧ ولئن سألتهم) وقد مرت، انما ظلموا بترك مقتضى ذلك، لما سئلوا : ان يخلصوا العبادة للذي صفاتـــه تلك الصفات التي علموها ، ويوحدوه ، ويخلصوا له العبادة ، ويجيبوا رسله ؟ أبَوْا من ربط الْمُقْتَضَى بالْمُقْتَضَى ، بعد اذعانهم لذات الْمُقْتَضِي دون ماتستتبعه وتلزمـــه بالوضع ، وعمدوا الى التابع . فوضعوه في غير التابعية .

قيل لهم : أليس خالقكم ، ورازقكم ، ومحييكم ، ومميتكم ، هو الله تعالى ؟
قالوا : بلى .
قيل : فاعبدوه وحده ، وهو أمركم بهذا .

قالوا : لانطيع ، ولا يصلح ، ولايسوغ . الا ان نتخذ اليه شفعاء ، نعبدهم ليقربونا اليه زلفى .

هذا هو الأنسب بنا ، اذ من شأن العلى الكبير العظيم : ان لايفضي اليـه الحقير الا بشفيع من دونه ، أو ولي ، لابدون ذلك : فإن الإفضاء اليه بدون ذلك فساد في الرأي (٧: ٦٦ انا لنراك في سفاهة) (٧: ٦٠ انا لنراك في ضلال مبين) لمخالفتك العادة المعقولة ، اى : بزعمهم .

فناداهم الرب العظيم: شأني أعظم وأجل، من ان أقاس بغيري، وأكرم من ان يفترى علي ، أويقال بلاعلم ولا حكمة، ولا دلالة صحيحة ، واكبر من ان يكون لأحد دوني حكم في امري ، بلا سلطان مني ولاهدى ، وحماي ارفع

من ان يدبره القصور والجهل ، وماذكرتم ، هو عين الغلط والخطأ ،والغشم والهجوم في ظلمة بلا مصباح . وذلك القياس في العلم والحكمة ، وعظم شأني، وعلو سلطاني مجانب الصواب والصحة غاية المجانبة ، وهو شيء لايحملكم على الرضا به ، إلا مجرد وجدان آبائكم عليه ، او مرور خاطر مقتحم في البال ، لايتأثر عن منشأ أصلا ، او منشأ معتبر . ومن لم يكن عليما حكيما، كيف يهتدى الى ماينبغي وكيف ينبغي؟فإني أخرجتكم من بطون امهاتكم ، لاتعلمون شيئا ، وقالت ملائكتي : (٢:٣٢ لاعلم لنا إلا ماعلمتنا) .

وبالجملة : فلا علم ولا حكمة إلا من لدني ، ومن لم يكن من قبلي ، او لم يأت به مني توقيع الشهادة بالصحة ،او بالوضع،فمن اين له وجه؟فلكونكم تجهلون محض الرشد ، وحسن الرأي ، وخالص الهدى .

فاتخذوني وكيلا ، مدبراً حاكما فيكم ، كيف أمرتكم ورسمت لكم ، أولى بكم من أنفسكم ، ان كنتم تعلمون . وتلك الطريقة التي سلكتم من اعتبار توسيط الأولياء والشفعاء ، هي نكتة غريبة ، وآية بينة على ضعف هذا الاعتبار ، لاني لاأنسى فأحتاج الى تذكير ،ولا اعجز فأستمين بغيري، ولست ببعيد او غافل، او يفوت علمي وحكمتي وقدرتي شيئاً ، وأنا ارحم الراحمين ، واكرم من منح ، وأغنى مَنْ أعطى ، ولاأمَلُّ حتى تملوا ،ولا أسأم ولايشغلني شأن عن شأن ، ولايقف إحساني على ترغيب غيري إياي ، او تحسينه لي ، او تعريفه إياي باستحقاق المشفوع له ، وكيف ؟وأنا أعلم به، وارحم ، واقرب اليه وادنى من حبل الوريد ؟وامري معه على حكمة بالغة: منعاً ومَنّاً .

وبالجملة : فالمعاني التي لأجلها يكون الشفعاء، وتلكم الوسائل والوسائط التي اتخذتموها من دوني،لايكون إناطتها بناواتصالها بجنابنا ، إلا عن جهل وقصور بالغ،ولايعتبرها في حقنا ، إلا من لم يدر أمرنا ، ولا حقيقة شأننا ،

اذْ لو علم لأيقن أنّ هذا غلطٌ كبير ، وظلمٌ مجـاوز ، ونـُؤيٌ عن الصواب بمفاوز ، وعملٌ بنقيض العلم والعدل والحكمة .

وكيف لا ؟ والتوسيط في هذا الباب،وقع بجاهلٍ الىعالم ، او بمن لانسبة بينه وبين المتوسل اليه في جميـع الوجوه ، وخصوصاً : المعنى الذي يلاحظه المتوسل ، والجهة التي يؤمها ، والامر الذي يحاوله ، وهو انهاءُ مطالبه .

فكيف مع هذا اذا كان اْلمُتَوَسَّلُ اليه يقول : هلم ، فأنا قريب منك لقضاء حاجتك ، واجابة دعائك ، وقـد تعرضت لك . فلا تعرض عني ، والتوسيط توعير ومناقضة للمقاصد الصحيحة ، والركون في الوصول الىّعلى شفيـع ، هو من محض إيجادي ، ساع في ان ينال قربا مني ، ودنوا من رحمتي واحساني ، مُتَشَوِّفٌ الى ماتتشوفون لـه ، راج ماترجون ، خائف مما تخافون (١١:٤٧ وإلا تغفر لي وترحمني ، أكن من الخاسرين) سَفَهٌ بحت، وضلال مبين ، مع ان الذي رسخ في فطركم وتمييزكم ومعارفكم — ان كان عندكم بقية من معرفة وتمييز —: أنّ مَنْ كان خبيراًبحال أحدكم ،وارحم به من غيره ، وأقدر على تحصيل مطلبـــه ، واكرم واسمح وارغب في المن والإعطاء ، لاسيما اذا كان يدعوكم الى سؤاله ، ويحبه ويريده ، ويرتاح له، ولايتبرم به . فهو الذي يكون أحْرَى بالمسألة وأولى بالطلب ، وأرجـى لحصول المطلوب ، ولو سأل من لايقدر ، ولا يعلم أمره اولا يرحمه ، ويسمح بمطلوبه . كأخَسّ مايكون ، مع وجود مقابلـه . لعددتموه سفيها أحمق ، أولا علم عنده في القضية . فهذا هو الصحيح ، لاقياسكم القبيح .

فكيف يصلح توسيط من يجهل وينسى ، ويمل ويضجر ،ويشغله شيء عن شيء ، الى من يعـــلم السِّرّ وأخفى ، والجهر ومايخفى ، وخائنة الأعين وماتخفي الصدور ، ولايَضِلُّ ولاينسى ، ولايجوز عليه مايمتنع على القـادر الحكيم العليم ؟

والحال : ان وضع الحاجة مقتض ، سيما العلم منه لكاشف واسع الرحمة ، محيطالعلم والحكمة والقدرة؟فالتعليق بمَن دونه ،منادعلىنفسه بالفسادوالضلال

والشفاعة بإذنه تعالى وامره : هي منه منشأ وانتهاء ، ولاوجه لاتخاذ من دونه ، ولا حاجة له ، ولا للمتخذ . فانضمّ الى الظلم لَغْوٌ وتضييعٌ .

ولم يحجر الله سبحانه وتعالى اتخاذ الشفعاء من دونه ، الا لما هو خير لنا ، حسن العائدة علينا ، عدلٌ قسط فيما بيننا وبينه ، جارٍ على السنن القويم الصالح البرىءمن كل فساد، ولما في الاتخاذ من الفساد والضرر ، وعدم الانتفاع. فهذا خلاصة الامر .

والأغيار من شأنهم نقص ، وقصور وعجز واعياء ، وتأخر في السمات والأحوال عن مقام النهاية والكمال . فمن الخليق ان يدعى ، ويخلص له العبادة والافتقار والضراعة ؟ أهو سوى من يجيبك في الخلوات والفلوات ، وساعات الليل والنهار، ويعلم ذرات احوالك ، ومناجاة اقوالك ، وخواطر بالك ، في كل لحة وطرفة ، وجهر وخفية،وَسِرٍّ وعلانية ؟ وهو يقول لك: (٤٠:٦٠ ادعوني استجب لكم)(٢:١٨٦ واذا سألك عبادي عني فإني قريب)(٢٧:٦٢ أمْ مَنْ يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ؟) ويعلم ماهو لك انفع ، وفيك انجع ،ولا يغفل عنك ولايسهو ، ولا يحتاج في نفعك ومسألتك الى غير ، من مشير او ظهير . واذا تقربت اليه او عملت له ، او ذكرته او تعبدت له او خضعت ، فأنت بمرای منه ومسمع . وان هممت بالحسنة فلم تعلمها كتبها عنده حسنة كاملة ، يكثر القليل ، ويعفو عن الكثير ، ويصفح عن المسيء ويعفو عن السيئات ، وهو قريب منك ، رحيم بك ،عالم بسرك وعلانيتك . قادرٌ على نفعك وضرك في اسرع زمان واقصر اوان .

فأين الشفيع منك ؟ ومتى يعلم ماأنت فيه ، حتى تأتيك نتائج شفاعته . فالله المستعان (٣٧:١٢٥ أتدعون بعلا ، وتذرون أحسن الخالقين : الله ربكم ورب آبائكم الاولين) أي: الذي ليس لك من دونه وَلِيٌّ ولانصير ،ولادافع، ولا واق، فلا تكن إلا لهواليه ومعه وبه،واقفاًببابه ،لَهِجاً بذكره وكتابه .

وقد وعظك وأنبأك : ان ذلك التوسل هو القاطـع عن التوصل . فازدد اليه انقطاعاً . فيا تخـــاف وتأمل . فإن ذلك الاستشفاع سبب المضار ، وحرمان الانتفاع .

قوله : والذي أصّلَ أصْلَ هذه الفتوى ، هو ابن تيمية الحنبلي ، الضال المضل ، حيث حرم زيارة القبور .

أقول : لو كنت حقا تعرف الفضل وأهله ، والضلال ومحله . لعرفت :أنك قلت باطلا جما – والله يبصرك ويلهمك – إنما تعرف : ان هذا الأمر ضلال، وقائله مضل بالبرهان ، الذي منعت أنت من الوصول اليه ،بمنعك تأتي أخذ حكم من دليله . والرجل سل عنه كتب الشافعية خاصة . وكيف تجد النقل عنه ونشر آثاره ، وذكر علومه وأخباره ؟ .

وبالجملة : فما ثم حاجة الى الكشف والإطناب ، او إشباع القول في هــذا الباب . فإن كنت قد سمعت زلة من غيرك . فالله لايرضى منك حتى تباشر وتزن بميزان العلم والنقد والتفتيش ، وانت الحكم . لكن بعد ذلك : فأنت الآن قاصر جاهل بتفصيل القضية . مانع لنفسك من دركها لما ذكرنا لك .

على انك لو عقلت لم تجد مساساً ، ولا تلازماً بين وجوب هدم المشاهد ، وتحريم زيارة القبور .اي : ولو كانت بلا شد رحل اليها .

وايضاً فابن تيمية إنما منع من شد الرحال اليها .

فقولك « حيث حرم زيارة القبور » بهت منك للمذكور ، لأنه إنما منع شد الرحال اليها ، لازيارتها مطلقا .

فعجب من ابطال وكذب المقلدين المفترين ،ومذهبه في المسألة مشهور .على ان الخطيب القسطلاني مؤلف شرح البخاري قال في هذا الشرح :باب فضل بيت المقدس ، اذ تكلم على حديث «لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد »الاستثناء مفرغ . والتقدير : لاتشد الرحال الى موضع. ولازمه منع السفر الى كل موضع غيرها ، كزيارة اخ صالح او قريب او صاحب ، او طلب علم . او تجارة ،

أو نزهة . لان المستثنى منه في المفرغ يقدر بأعم العام . لكن المراد بالعموم هنا : الموضع المخصوص .وهو المسجد كما مر تقريره .واختلف فيشدالرحال الى غيرها – يعني : الثلاثة المساجـد – كالذهاب الى زيارة الصالحين أحياء وأمواتا ،والى المواضع الفاضلةللصلاة فيها والتبرك بها.فقال ابو محمدالجويني : يحرم ، عملا بظاهر الحديث ، واختاره القاضي حسين . وقال به القاضـــي عياض وطائفة . انتهى بلفظه من شرح الباب المذكور .

وقد سبقه الىذلك بلفظه،او إلا يسيرا منه : الحافظ ابو الفضل العسقلاني في فتح الباري .

فيسع شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في منعه شد الرحـال لزيارة القبور ماوسع أبا محمد الجويني والقاضيين : حسينا وعياضا وغيرهم ، ان كان مقصدك الإنصاف مرضاة لله .

على ان الشذوذ غير ضائر . إنما السقوط مع مخالفة الحق .

وقوله : كما مر تقريره .

السند فيه شهر بن حوشب ، والكلام عليه في محله ، سيما وقد زاد هنا مالم يفه به الأثبات من قوله «الى مسجد يبتغي الصلاة فيه » وصاحب الفتحجعل في العبارة هنا إشارة الى شيء من هذا حذفها الخطيب ، وما كان لهذلك .

ولا ندري من اين عرفت أنه غالط فى هــذه المسألة ؟ وان صح ذلك فلا يضره . ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ؟

وهل تجسر على ان الشافعي بريء من ذلك . وهؤلاء أصحابــه في مواضع كثيرة ، أو أقوام منهم ، يضربون عما قال صفحا ، وان كذبت فاطلع على كتبهم وحوافل مصنفاتهم .

نعم ، فان قلت : عرفتغلط ابن تيمية فيهذه المسألة لقوله ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » .

قلنا : هذا في شريعتك حرام ، لأنه أخذ للحكم من دليله ،على ان أساطيرك وأساطير رفقائك في هذه الكراسة التي كتبتم كلُّ ذرة منها ناقضة لما أصّلتم. فاعجب أيها الناظر .

لانكم ان زعمتم أنكم كتبتم بحجة ودليل ، واستمددتم منه تصحيح بحثكم برمته . فقد أخذتم عدة أحكام من عدة دلائل .

وإن قلتم قلدنا في ذلك،وأن ابن تيمية غالط ضال مضل.فهذه سفاهة بينة .

ثم نقول لك : من أين علمت ذلك ؟ حيث تقول«لما تقرر عند علماء العربية أنهم كذلك ، وان ماتقرر عندهم حجة يستمد منه العمل بما دل عليه » . فان هذا أخذ للحكم من دليله .

ثم يرد عليك أيضا سؤال نشأ من قولك « علماء العربية » وهو انك قد حكمت بأن الاربعة رضي الله عنهم مجتهدون ، ومن شئت من غيرهم. وكذلك نقول نحن فيهم وفيمن لايحصى سواهم . فهل علمت ذلك ؟ او قولك : هذا طبيب فلسفي ، وأنت لاتعرف الطب والفلسفة ملغى عن الاعتبار .

فان قلت : الآثار والوجدان .

قلنا : بعد تقرر أنها آثار تلك الصناعة ، وأنها حجة للحكم بذلك . ولابد من الانتهاء الى إفساد أصلك الذي بنيت عليه مدافعتك لخصمك عن القول في المسائل العلمية بطريق النظر والاستدلال ، او حيرتك ووقوفك عن التمييز برة . ولقد جمعت أنت وقومك هؤلاء أمرين متناقضين : منع أخذ حكم من دليله . والعمل بخلافه في كل لمحة .

فما الكلام ، ومابال العقول والاحلام ؟ حتى أوهمتم الناظر : ان هذا البحث صدر من عابث لايعقل قط،خلا بنفسه فرقم شيئا من تلاعبه الاتفاقي، وإلا فأولوا القصد يعلمون مافي ذلك .

فان كان الأمر كذلك ، ولم يكن من أحد منكم فى تلك الكراسة سارحة ولا رائحة . فلا سواه يليق بذي مسكة من عقل .

فصل

وأما مفتي المالكية : فعامة نقله في فتواه عن الإمام مالك رحمه الله ورضى عنه ونقله عن أصحابه أيضاً مناد بكراهة البناء على القبور . وهو الظن بمثل مالك ، وهي كراهة تحريم على الصحيح ، لما أنه مقتضى الأدلة .

فمازاد المالكي على ان نثر بناء من كان قبله ، وخرق إجماع قرنائه ، لكن لما لم تطب نفسه باخلاء جوابه عن سنتهم ، قال في أثناء بحثه ماحاصله :

وقد كان وضع البناء في زمن السلف الصالح من التابعين وتابعيهم ، فهـذا حكم انعقد عليه الإجماع اهـ.

فلاأدري: أخرق مالك الإجماع لقوله بالكراهة . فيسعنا عند هذا ماوسع إمامه .

فصل

وأما الحنبلي : فالاطلاع على كلامـــه يقوم بعذرنا عن التعرض له . والله يهدينا جميعاً .

● ● ●

والى هنا انتهى بنا الكلام : ووقف ماحرره القلم في هذا المقام .

ولست بحمد الله في جميع ماأمليت عن مذهب محاميا ، ولالشيخ او إمام او احد من الانام محابيا ، مع اعترافي بقصور الباع ، وقلة الاطلاع .

لكن لما كانت هذه المفسدة التي تـكلمنا في دفعها غايـة في ظهور فحشها ، وملابسة الانام لأقذار حُشّها ، أبرزنا هذا الأنموذج .

فيامعشر أبناء الزمان ، وكل من اجاب منادي الإيمانـ : الرشد الرشد في السنة والقرآن ، والنصح لله ولرسوله في السر والإعلان.

ولايظنن بشر منكم أنا كتبنا هذا تطاولا . او مباهاة ، اذن لقـد ضللت وخاب سعيي ، ان لم أقصد الخير ، وأذب عن دين الله لاغير .

وهاأنذا عارض هذه المعالم والشعائر على كرام القبائل والعشائر ، وجميع من آمن بالله واليوم الآخر ، من بصير وغبي ، وقريب وبعيد ، وماهر وقاصر ، ومتحدٍّ بها أهل العناد والتصميم والإصرار ، ومقتبس إنارة ذوي العلم والإنصاف والعدل ، على قلتهم في هذه الاعصار ، والانقياد لما دللت عليه مما لايعارض بأوهام . ولايصلح ان يقوم في وجهه : قال المذهب ، والشيخ ، والإمام . وقد أكثرت في هذا . وان أغلظت فلاقتضاء المقام .

حسبي الله لاإله إلا هو ، عليه توكلت في المبدأ والختام .

وعلى سيدنا محمد النبي الكريم . وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين عدد الليالي والأيام .

كان الفراغ من نقله : ضحى يوم الأحد لتسع عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٧ هـ سنة سبع وخمسين ومائتين وألف . على يد الفقير الحقير الأقل (حمد بن محمد بن حمد بن نصر الله) غفر الله له ولوالديه . ولإخوانه المسلمين والمسلمات أجمعين آمين .

« في آخر الطبعة الاولى ما نصه » :

وكان الفراغ من طبعه بمطبعة السنة ، مع بذل الوسع والطاقة في التصحيح ، والضبط والتدقيق وإخراجه بهذا الشكل الجميل ، اللائق بهذا الكتاب ومؤلفه النبيل — على نسخة الأخ العلامة الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ جزاه الله أفضل الجزاء — وذلك في اليوم العشرين من شهر شعبان من سنة تسع وستين وثلاث مائة وألف من هجرة عبد الله ورسوله وصفوته من خلقه محمد عليه من ربه أفضل الصلاة وأزكى السلام .   وكتبه فقير عفو الله ورحمته

محمد حامد الفقي

فهرس كتاب معارج الالباب

٢٤١- فساد قول من زعم أن قدماء المشركين كانوا لايدعونه تعالى، أو أنهم كانوايشركون به في الدعاء أحداً عند الشدائد .

٢٤٣- المشركون لم ينحلوا أولياءهم وأندادهم صفات الله تعالى ولا أسماءه.

٢٤٥- دين الله الذى ارتضاه للعباد : هو الاسلام وما يقتضيه من الشرائع والأحكام ، ومعالم الواجب والحلال والحرام

٢٤٦- العلم بحكم البراءة والتعبدية : له اتصال بما نص الشارع على حله

٢٤٨- شأن الرب العظيم أجل وأعظم من أن يقاس بغيره ، فيتخذ له الوسطاء والشفعاء

٢٥٢- الفرق بين زيارة القبور ، وشد الرحال إليها

● ★ ●